الجامعة الأردنيـــــة

كلية الدراسات العليا

أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي

١٣٢-٣٣٤هـ/ ٧٤٩-٩٤٤م

إعداد الطالبة

فايزة عبد الرحمن حجازي

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في التاريخ

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

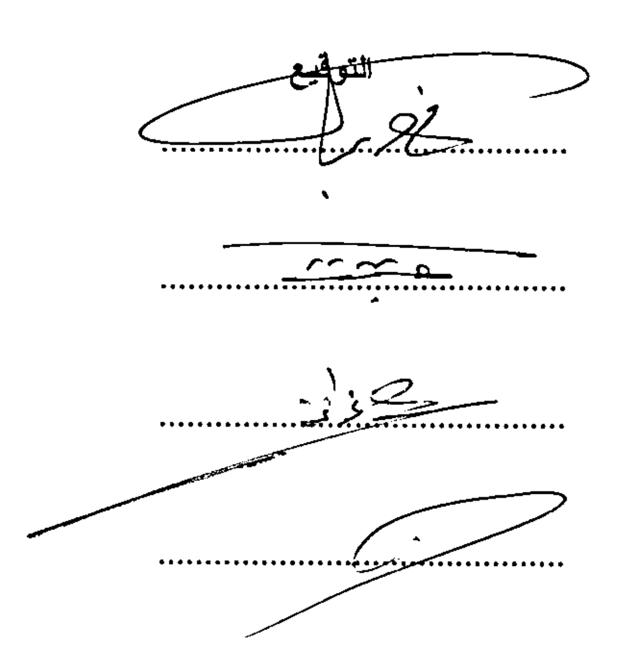
آب ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

1

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٠/٨/١٣..

أعضاء لجنة المناقشة | التوقيع



أ.د محمد عبد القادر خريسات/ رئيساً ....

أستاذ التاريخ الإسلامي

أ.د عبدالعزيز عبدالكريم الدوري / عضوا ....

أستاذ التاريخ الإسلامي

أ.د يوسف درويش غوانمه / عضوا ....

أستاذ التاريخ الإسلامي

أ.د فالح صالح حسين / عضوا ....

أستاذ التاريخ الإسلامي

الإهـــــداء

إلى روح والدي الطاهره

إلى أمي الحبيبه

إلى أسرتي الغالية

شكر وتقدير

الشكر والحمد لله سبحانه على توفيقه وبعد. ومن باب إسداء الفضل إلى أهله أتقدم بكل الشكر والتقدير إلى استاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد خريسات الذي كان لتوجيهاته وملاحظاته العون الأكبر في إتمام هذه الرسالة على صورتها الحالية. وأكبر فيه تواضع العلماء، واهتمام المشرفين الأوفياء.

وأتقدم بالشكر الجزيل للأساتذة الكبار، علماء التاريخ ورواده الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري، والأستاذ الدكتور يوسف غوانمة، والأستاذ الدكتور فالح حسين، الذين تكرموا بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة، فجزاهم الله خير الجزاء.

وأتقدم بالشكر والتقدير للدكتور سليمان خرابشة رئيس قسم التاريخ في جامعة اليرموك وجميع أساتذتي في هذا القسم.

ولا يفوتني أن أقدم الشكر لجميع موظفي مكتبة جامعة اليرموك، وأخص بالذكر السيد فوزي الخطيب، والسيد عبدالله الناصر، والسيد نضال قطناني فقد قدموا لي كل العون والمساعدة في الحصول على المصادر والمراجع.

وأقدم الشكر لمركز أمية ومركز بيضون للطباعة في إربد، اللذان تولا طباعة هذه الرسالة

وفي الختام الذي آمل أن يكون مسكا أتقدم بالشكر إلى رفيق دربي وشريك حياتي زوجي الدكتور حمدان حسين الحوري وأبنائي الذين هيأوا لي جوا هادئا للبحث والدراسة.

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا" "وفوق كل ذي علم عليم" صدق الله العظيم.

فهرس المحتويات

فهرس الملاحق

ملخص

أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي

١٣٢-٣٣٤هـ / ٧٤٩-٩٤٤م

إعداد

فايزة عبد الرحمن حجازي

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات

عالجت هذه الدراسة مجموعة من الجوانب من خلال أربعة فصول:

تناول الفصل الأول حدود بلاد الشام الجغرافية في فترة الدراسة وتوضيح لفظة الذمة لغة واصطلاحا. ثم تناول الفصل أحوال أهل الذمة في بلاد الشام في الفترة السابقة للعصر العباسي اشتملت على عصر الرسول (ﷺ) والخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين إذ أرست في هذه الفترة القواعد والتدابير العملية في التعامل مع أهل الذمة.

وبحث الفصل الثاني في موقف الدولة العباسية من أهل الذمة اشتمل الالتزامات المالية وموقف الدولة من رؤساء الطوائف الدينية ودور عباداتهم.

وبحث الفصل الثالث في بعض الجوانب الاجتماعية لأهل الذمة اشتمل توزيع أهل الذمة السكاني في بلاد الشام وكذلك بحث العلاقات الاجتماعية فيما بين الذميين والمسلمين. كما تطرق الفصل الى حالات التحول الى الإسلام التي حدثت في العصر العباسي والقيود الاجتماعية التي كان على أهل الذمة الالتزام بها في بعض الأحيان كما أبرز الفصل المكانة الاجتماعية لبعض شخصيات أهل الذمة داخل المجتمع في بلاد الشام.

وبحث الفصل الرابع في النشاط الاقتصادي لأهل الذمة اشتمل النشاط الزراعي، والحرفي والتجاري إذ لم يكن في الشرع الإسلامي ما يحول دون الذميين من ممارسة أي نشاط اقتصادي ومن اختيار العمل الذي يريدون حتى كان لهم غلبة واضحة في بعض المجالات الاقتصادية.

المقدمة

إن موضوع أهل الذمة والحكم الإسلامي من الموضوعات التي نالت اهتماماً كبيراً في العصور القديمة والحديثة نظراً لأهمية الموضوع وحيويته. فمعظم كتب الفقه الإسلامي تناولت أحكام أهل الذمة وموقف الشرع الإسلامي منهم. كما ألفت كتب متخصصة بأصحاب الملل والنحل. كما أفردت كتب الحسبة أبواباً خاصة بأهل الذمة والشروط الواجبة عليهم. كذلك اهتم المؤرخون والجغرافيون الأوائل بكتابة التاريخ العالمي فكتبوا عن أخبار الأنبياء والرسالات التي كانت قبل الإسلام واطلعوا على كتبهم الدينية وما جاء فيها فكتبوا عن عقائدهم وطوائفهم ودور عباداتهم وطقوسهم الدينية من أعياد وحج وصوم وصلاة. واستمر هذا الاهتمام بأصحاب الديانات المختلفة لدى المؤرخين المسلمين في العصور المتأخرة فكانوا يرون أن على المؤرخ المسلم أن يعرف الكثير عن أصحاب الديانات الأخرى ويطالع كتبهم.

كما اهتم المؤرخون المسيحيون القدامى أيضاً بالكتابة عن أحوال النصارى تحت الحكم الإسلامي، وكان معظمهم من رجال الدين ومنهم من كان معاصراً للأحداث ومنهم من نقل عن مؤرخين عاصروا تلك الأحداث واشتملت تواريخهم على الكثير من أخبار النصارى أثناء الحكم الإسلامي وخاصة أن مؤلفيهم اهتموا بتدوين أخبار العامة وحياة الناس العاديين.

وفي العصر الحديث ظهرت دراسات كثيرة حول موضوع أهل الذمة، تناول بعض تلك الدراسات الجانب الفقهي دون النظر الى الجانب التاريخي وتناول البعض الأخر دراسة أحوال أهل الذمة في العصور الإسلامية بشكل عام دون التركيز على جوانب معينة كما ظهرت بعض الدراسات التاريخية التي اهتمت بدراسة أحوال أهل الذمة في منطقة معينة وفترة زمنية محددة مثل أحوال أهل الذمة في العراق ومصر في العصور العباسية والفاطمية والمملوكية.

كما تناول عدد من الكتاب الغربيين والمستشرقين في العصر الحديث هذا الموضوع منهم من أنصف الدولة الإسلامية، ومنهم من تحامل عليها وركزوا في دراساتهم على فترات الحروب والاضطرابات مسلطين الضوء على ما كان يحدث لهم من مضايقات وشدة، متجاهلين الأسباب الحقيقية والظروف التي أدت الى تلك المضايقات ومتجاهلين أيضاً دورهم في الحياة العامة والأوضاع الطبيعية التي كان ينعم بها أهل الذمة من تسامح ديني، وحسن جوار في جميع العصور الإسلامية، وإن حدث توتر ونزاع في فترات معينة فلم يكن هذا من باب التعصب

والتشدد، فالإنسان ميال بطبعه إلى النزاع والعدوان، فالنزاع سيظل قائماً ما دام هناك أفراد ومجتمعات. كما يجب أن لا ينسى أن تلك العصور امتازت بالتشدد والتزمت الديني حتى داخل الطائفة الدينية نفسها.

من هنا جاء اهتمامي بدراسة أحوال أهل الذمة داخل المجتمع الإسلامي لإعطاء صورة قريبة من الموضوعية قدر الإمكان عن أحوالهم في تلك العصور حتى لا تستخدم بعض حوادث التوتر من بعض الكتاب سواء القدامى أم المحدثين من أجل إثارة الطائفية والإنقسام داخل المجتمع العربي الإسلامي وبالتالي تفكيكه وإضعافه فكانت الدراسة في مرحلة الماجستير أحوال أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ودفعني الإهتمام بهذا الموضوع أن أعود بالدراسة عن أحوالهم في بلاد الشام في العصر العباسي (١٣٢-٣٥٩هـ/ ٧٤٩-٩٦٩م) على اعتبار أن هذه الأقليم كان يستوعب العدد الأكبر من جمهور أهل الذمة وخاصة أنه كان موطناً لأتباع الكنيسة السريانية الغربية (اليعاقبة) والملكيين اتباع مذهب الكنيسة البيزنطية بالإضافة إلى أصحاب الديانات الأخرى كاليهود والسامرة والصابئة. كما أن العصر العباسي يمثل الجزء الأكبر من عصر صدر الإسلام حيث لم يبعد به العهد كثيراً عن عصر النبوة والخلافة الراشدة الذي أرست فيه دعائم العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة. كما شهد هذا العصر استمرار الحروب مع الدولة البيزنطية مما أثر في بعض الأحيان على وضعية النصارى داخل البلاد الشامية وخاصة الملكيين منهم الذين كانوا موضع شك من الدولة لوجود قابلية الاتصال بينهم وبين الدولة البيزنطية، ولمحاولة بعض الثوار منهم الإلتجاء إلى الدولة البيزنطية فكان لا بد للدولة العباسية من ان تحتاط لهذا الأمر.

واجه البحث بعض الصعوبات لعل أبرزها يتمثل في أن المصادر الإسلامية لا تشير الى أهل الذمة إلا عند حصول مشكل أو صدور قرار خاص. فبرزت الصعوبة من توزع تلك الإشارات والنبذ المتناثرة في بطون المصادر ليست المصادر التاريخية فحسب بل المصادر الفقهية والأدبية والجغرافية وكتب التراجم. وكان لزاماً تتبع ذلك أينما وجد للتعرف على أحوال أهل الذمة في فترة البحث.

أما الصعوبة الثانية، فكانت في الرجوع الى المصادر السريانية، ومع أن تلك المصادر احتوت أخباراً كثيرة عن حالة النصارى في المجتمع العربي الإسلامي، إضافة الى احتوائها على معلومات اقتصادية واجتماعية وسياسية لسياسة الدولة الإسلامية تجاه النصارى إلا أن تلك المصادر كان يغلب عليها الطائفية والتعصب وخاصة أن مؤلفيها كانوا من طبقة رجال الدين الذين كرسوا حياتهم لخدمة الكنيسة والعقيدة النصرانية، فكانت تصف تلك المصادر المسلمين من

خلفاء وولاة وعمال بأنهم يستغلون مراكزهم السياسية لتحقيق مآربهم الشخصية فتروي أنهم صادروا أموال النصارى والرهبان وألحقوا بهم الكثير من العسف والظلم، في حين أن المصادر الإسلامية تؤكد الجوانب الإيجابية في علاقة الحكام المسلمين برعاياهم من الذميين وإن حصلت حالات من الشدة فيكون ذلك من باب حرص الدولة على تنظيم العلاقات وتركيز دعائم الدولة، أو قد يحدث ذلك بسبب استغلال بعض الولاة لمراكزهم والإساءه إلى أهل الذمة وغيرهم لحساب أغراضهم الخاصة.

والصعوبة الثالثة كانت تتعلق أيضاً بالمصادر السريانية وذلك بسبب تناقض الأراء والأحكام فيما بينها فكان المؤلفون السريان الغربيون أكثر شكوى من السريان الشرقيين وذلك لقرب الأوائل من الحدود البيزنطية فهذا المؤرخ السرياني الشرقي ماري بن سليمان يكتب عن المأمون بأنه كان يميل الى النصارى[١]. بينما يقول ميخائيل السوري السرياني الغربي[٢] أن المأمون كان يلعنه الجميع مما أنزل بالناس من صنوف البلاء. بينما ذكر مؤرخاً سريانياً غربياً آخر هو الرهاوي المجهول أن الملك المأمون كان عادلاً في أحكامه محباً للسلام رحيماً وأن النصارى كانوا يصلون لله بلا انقطاع أن يحفظ الله عليهم حياة المأمون[٣]. فكان لزاماً أمام هذا التناقض في الآراء تتبع الأحداث في الكتب التاريخية الأخرى من إسلامية ومسيحية لمعرفة الأسباب الحقيقية التي أدت بأصحابها لإعطاء مثل هذه الآراء.

تدور هذه الدراسة على محورين رئيسيين: المحور الأول: المعالجات والحلول والتنظيمات التي اتخذت مع سكان البلاد المفتوحة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين والامويين. إذ أرست هذه الفترة قواعد تنظيم العلاقات ما بين الذميين والدولة الإسلامية المستمدة من الشريعة الإسلامية على أساس الاحترام الكامل لحقوقهم الدينية وصيانة أموالهم ودمائهم وأعراضهم والدفاع عنهم وضمان حقوقهم مقابل دفعهم الجزية. والتي أصبحت فيما بعد قواعد لمن أتى بعدهم.

---

(١) ماري بن سليمان ،(ت في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي)، أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل للاستبصار والجدل، طبع في رومية الكبرى، ١٨٩٩، ص٧٤.

(2) Michel Le Syrien, (1166-1199), Chronique De Michel Le Syrien, Editee pour la, Premiere fois et traduite en Francais PAR J-B Chabot, Paris, 1905 Vol. 3. P. 75.

(٣) مجهول، (عاش ما بين القرن السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر الميلادي)، تاريخ الرهاوي، عربه عن السريانية ووضع حواشيه الأب البير ابونا، بغداد، مطبعة شفيق، ١٩٨٦، ج٢، ص٢٩.

وتناول المحور الثاني من البحث، علاقة المسلمين بأهل الذمة في العصر العباسي اشتمل على موقف الدولة الرسمي منهم والتدابير العملية المتخذة تجاههم وبعض الجوانب الاجتماعية لأهل الذمة في بلاد الشام ونشاطهم الاقتصادي مع الإشارة إلى التجاوزات والتعديات التي حدث نتيجة تطور الظروف والأحوال خلال فترة البحث .

وقد قسم البحث الى أربعة فصول:

تناول الفصل الأول حدود بلاد الشام الجغرافية من خلال ما ذكره الجغرافيون المعاصرون لفترة البحث وما ذكره الجغرافيون والمؤرخون المتأخرون فيما بعد لإعطاء صورة متكاملة عن تلك الحدود. وتناول الفصل تعريف لفظة الذمة لغة واصطلاحاً ثم تناول الفصل أحوال أهل الذمة في بلاد الشام في الفترة السابقة للعصر العباسي اشتملت على عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين إذ اشتملت تلك الفترة على أوليات التنظيم مع سكان البلاد المفتوحة من خلال المفاهيم الإسلامية ومن خلال تدابير الرسول العملية بالتعامل مع أهل الذمة وتحديد ضريبة الجزية وموقفه من الأراضي التي فتحت عنوة أو صلحاً. ووصاياه الدائمة بالإحسان الى أهل الذمة وحمايتهم والمحافظة على عهودهم ومواثيقهم وجاءت المرحلة الثانية من التنظيم من خلال عهود الصلح التي عقدها الفاتحون مع سكان البلاد المفتوحة وتنظيمات عمر بن الخطاب فيما بعد بأن حدد قيمة الجزية وجعلها متدرجة على الطبقات وإبقاء الأرض وقفاً على الأمة وجعل الخراج على الطاقة مع إلزام الذميين ببعض القيود الاجتماعية لغايات الضرورة والتنظيم. ومع تزايد عدد الداخلين في الإسلام وكثرة الأراضي الخراجية التي انتقلت الى العرب وصارت عشرية حاول عمر بن عبد العزيز إعادة تنظيم الضرائب ووضعها في إطار المفاهيم الإسلامية فرفع الجزية عن المسلمين وأكد بأن الأرض الخراجية ملك للأمة ووقف عليها لا يجوز التجاوز عليه واعتبر سنة ١٠٠هـ نقطة البدء في تطبيق قراره. وأكد العدل في المعاملة وحاول إيقاف تجاوزات بعض العمال. وإلزام الذميين ببعض القيود الاجتماعية سيراً على سنة عمر بن الخطاب فأصبحت مجموعة تلك التدابير والأنظمة في هذه الفترة قواعد ثابتة لمن أتى من بعدهم من الخلفاء، كما كانت وثائق رسميه بأيدي أهل الذمة يحتجون بها فيما لو حاول أحد التعدي على حقوقهم أو الانتقاص منها.

وبحث الفصل الثاني في إجراءات العباسيين التنظيمية تجاه أهل الذمة موضحاً الالتزامات المالية الواجبة عليهم مثل ضريبتي الجزية والخراج وطرق جبايتها وإجراءات العباسيين في ذلك والتي كانت في الغالب استمراراً لما جرى عليه الأمر في عهد عمر بن الخطاب مع بعض التغييرات التي اقتضتها ظروف الدولة ومطالبة عمالهم باستمرار اتباع سياسة العدل والإنصاف

في تعاملهم مع أهل الذمة. ثم تلاشت بالتدريج طرق الجباية بوساطة موظفين خاصين وخلفها طريقة الضمان، وما رافق تلك الطريقة من تجاوزات واعتداءات على حقوق الأهالي والفلاحين، مما كان له من أثر سلبي على الأوضاع الاقتصادية فيما بعد.

وتناول الفصل الضرائب الإضافية الجديدة التي سادت في فترة العباسيين إضافة الى ما كان سائداً في العصور السابقة.

وبحث الفصل أيضاً موقف الدولة من رؤساء الطوائف الدينية داخل المجتمع الإسلامي واعتبارهم موظفين رسميين لديها فكان لا يتم تعيين الشخص المنتخب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك. وإصدار مرسوم رسمي يشتمل على عدد من الوصايا والأوامر التي يجب عليه الالتزام بها، والقيام بالأعمال الموكلة إليه تجاه أبناء طائفته.

كما تناول الفصل موقف الدولة من دور عباداتهم وبيان موقف الفقهاء المسلمين من بناء وترميم الكنائس ومع صراحة النصوص التي تنص على منع استحداث وبناء كنائس جديدة إلا أن الكنائس بقيت تبنى في العصر العباسي بحرية تامة وبموافقة أصحاب السلطة والأمر. وكان أول مرسوم يمنع استحداث كنائس جديدة جاء في مرسوم المتوكل سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م، إلا أن أثر ذلك كان وقتيا.

وكان لاستمرار الحروب مع الدولة البيزنطية واشتداد الغارات على حدود البلاد الإسلامية وتعرض المساجد في الثغور للهدم والتخريب أثر على سياسة الخلفاء داخل البلاد إذ لم يجدوا وسيلة لتخفيف الضغط الواقع على رعاياهم والانتقام من البيزنطيين إلا بضربهم كنائس عزيزة عليهم داخل البلاد الإسلامية فكانت تتعرض كنائسهم للهدم والتخريب وخاصة في منطقة الثغور.

وبحث الفصل الثالث في بعض الجوانب الاجتماعية لأهل الذمة فقد تناول في البداية الإشارة الى طوائف أهل الذمة في البلاد وتوزعهم السكاني في المدن والقرى الشامية. وتناول الفصل العلاقات الاجتماعية فيما بين المسلمين والذميين إذ لم يكن هناك أي انعزال اجتماعي فيما بينهم، وامتازت علاقاتهم بحسن المودة والجوار وظهر تأثير ذلك على عادات وتقاليد المجتمع الشامي وتأثر كل منهما بالآخر.

أما بالنسبة للقيود التي فرضت عليهم فيمكن الاستنتاج من خلال تلك القيود أن أهل الذمة مارسوا جميع ما تمتع به أفراد المجتمع آنذاك بل زادوا عليهم بسبب سيطرتهم على الوظائف في الدولة، وتقربهم من الحكام والولاه وتسلطهم على المسلمين، وتمتعهم برفاهية العيش مما كان

يثير غضب رجال الدين من المسلمين كالقضاة والفقهاء فكانوا دائماً يطالبون الخلفاء بإنصاف المسلمين وعدم السماح للذمي بالتسلط على المسلم. فما كان على الخلفاء لإرضاء لجمهور هؤلاء الفقهاء إلا أن يصدروا أوامرهم بعزلهم من دواوين الدولة وإلزامهم ببعض القيود الاجتماعية إلا ان تلك القيود والأوامر كانت في معظمها شكلية ولم تكن سارية المفعول.

وبين هذا الفصل أيضاً حالات التحول الى الإسلام وبيان أسبابها إذ لم يكن السبب الرئيسي للتحول هو الخلاص من ضريبة الجزية كما جاء في روايات مؤلفيهم فالانتقال الى الإسلام لن ينقذهم من دفع ما عليهم من ضرائب إذ أن المسلم الجديد يفقد حصته من الإرث والمسلم الجديد له أن يحتفظ بأرضه ويدفع الخراج وأن يتركها لأهل قريته يزرعونها ولا يدفع عنها شيئاً وإذا مات الذمي ولم يترك وارثاً فإن إرثه يرجع لأهل ملته في حين أن إرث المسلم يعود الى بيت المال.

فأمام هذا الوضع كان لا بد أن يكون هناك أسباب أخرى للتحول فكان منها على سبيل المثال الميل الى الدين الجديد والتخلص من الانقسام والانشقاق الذي كانت تعاني منه الكنيسة آنذاك، أو طموحهم في الحياة العامة، والحصول على مراكز في الدولة.

كما أبرز الفصل المكانة الاجتماعية والعلمية التي كان يتمتع بها رجالات أهل الذمة داخل المجتمع الإسلامي وذلك بسبب قدراتهم العقلية ونبوغهم العلمي فبرع بعضهم في الطب والصيدلة وبعضهم في الموسيقى والحساب والهندسة والفلك ومنهم من عنى بالترجمة والنقل، ومن الواضح أن تلك العلوم لا تخلو من أهمية داخل المجتمعات مما رفعهم في نظر العامة وقربهم من الخلفاء والحكام فعلت منازلهم وتأصلت مراتبهم.

وعني الفصل الرابع في النشاط الاقتصادي لأهل الذمة في بلاد الشام، فقد كان للذميين من حرية العمل ما مكنهم من مباشرة جميع المجالات الاقتصادية التي يرغبون فيها ومزاولة العمل الذي يريدونه إذ لم يكن في الشريعة الإسلامية ما يحول دون تمتع الذميين بحرية العمل سوى

أنهم منعوا من إظهار الخمور وإشهارها في أمصار المسلمين. ولهذا فإنهم كانوا يمارسون أنواع النشاطات الاقتصادية كافة ففي مجال الزراعة كان لهم غلبة واضحة في الريف الشامي مما أثر على حياة المزارعين هناك فقدرت المواسم والفصول بأعياد النصارى وكانت خبراتهم الزراعية التي اكتسبوها من الروم ومن أجدادهم قواعد زراعية توارثتها الأجيال من بعدهم وأنتجت أراضيهم المحاصيل الزراعية كافة التي اشتهرت بها البلاد الشامية كما كانت الصناعات مفتوحة أمام جميع أبناء الديانات المختلفة. وكان للنصارى واليهود سيطرة تامة على بعض الصناعات وذلك لأسباب اجتماعية وتاريخية وأخرى دينية. كما كان لتجار أهل الذمة دور في تنشيط التجارة في العصر العباسي عن طريق تنشيطهم للمعاملات المالية وتسليف التجار وتسهيل معاملاتهم فظهرت مؤسسات مصرفية تقوم مقام البنوك في العصر الحاضر. فكان أكثر الجهابذة في إقليم الشام من اليهود. كما امتلك تجارهم المقومات والأسس التي تساعدهم على الاشتغال بالتجارة فتوفر لديهم رأس المال الوفير، ومهروا في أعمال الاقتصاد وفنون الحساب وتعدد اللغات الأجنبية فجمعوا بين تجارة البر والبحر وسيطروا على بعض التجارات الهامة مثل المجوهرات والمصوغات والرياش الثمينة والثياب الفاخرة. بالإضافة الى الاتجار بالرقيق وغيرها من التجارات الأخرى.

الفصل الأول

الحدود الجغرافية ولمحة تاريخية

- حدود بلاد الشام الجغرافية
- الذمة لغة واصطلاحاً
- أحوال أهل الذمة في بلاد الشام قبل العصر العباسي

حدود بلاد الشام الجغرافية

تعرض الجغرافيون الأوائل إلى ذكر حدود بلاد الشام. وكانت إشارتهم إليها تتفاوت دقة وتعميماً فابن خرداذبة (ت٢٧٢هـ/٨٨٥م)، يعدد كور الشام ويذكر المسافات. بين مدنه ويشير إلى أن آخر حدود الشام من جهة مصر رفح[١]. بينما يعدد اليعقوبي (ت٢٧٨هـ/٨٩١م)، أجناد الشام ويذكر القبائل التي سكنتها ويذكر أن رفح هي آخر اعمال الشام ومنها إلى موضع يقال له الشجرتين وهي أول حد مصر. [٢]

ويشير ابن الفقيه (ت٢٩٠هـ/٩٠٣م) إلى حدود بلاد الشام هكذا "وقالوا أن الشام من الكوفة إلى الرملة ومن بالس إلى أيله"[٣] أما المطهر بن طاهر المقدسي (ت ٣٠٨هـ/٩٢٠م)، فيذكر الحدود بشكل أوضح ولكن بصورة عامة فيقول: "فشرق الشام غرب الفرات وغرب الشام ساحل الروم وشماله جبال الروم وجنوبه فلسطين والأردن وبعض البادية".[٤]

أما الأصطخري الذي ألف كتابه سنة ٣١٨هـ- ٣٢١هـ/ ٩٣٠-٩٣٣م فقد قدم حدوداً لبلاد الشام أكثر دقة فيقول:" وأما الشام فإن غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم وشماليها بلاد الروم وجنوبيها حد مصر وتيه بني اسرائيل وأخر

---

(١) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م)، المسالك والممالك، ويليه نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨م)، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م، ص ص ٧٥-٨٠.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح، (ت ٢٧٨هـ/٨٩١م)، كتاب البلدان، منشور في المجلد السابع من كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧، ص ص ٣٢٤-٣٣٠.

(٣) ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني، (ت حوالي ٢٩٠هـ/٩٠٣م)، مختصر كتاب البلدان، ليدن، مطبعة بريل، ١٣٠٢، ص٩٢.

(٤) المقدسي، المطهر بن طاهر، كتاب البدء والتاريخ، المنسوب لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسوية كلمان هوار. باريس: ارنست لرو، ١٨٩٩-١٩١٩، أعادت طبعه بالأوفست. بغداد، مكتبة المثنى، د.ت. ج٤، ص٧١-٧٢.

حدودها مما يلي مصر رفح ومما يلي الروم الثغور وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربه والمصيصة وأذنه وطرسوس[١].

أما ابن حوقل (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) فقد كرر ما قاله الأصطخري مع رسم خارطة لبلاد الشام في زمنه[٢]. وتمثل هذه الخارطة أول محاولة جدية لرسم حدود الشام. فغربي الشام الساحل وجنوب الشام القلزم وتيه بني اسرائيل،أما شرقي الشام فهي نواحي ديار العرب وشرق الفرات، وشمال الشام جبل اللكام ونواحي بلد الروم[٣].

ويصف المقدسي (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) التكوين الطبيعي لإقليم الشام فيقول: "ووضع هذا الإقليم ظريف هو أربعة صفوف الأول يلي بحر الروم وهو السهل رمال منعقدة ممتزجة، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل. والصف الثاني الجبل مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وكابل وقدس والبقاع وأنطاكية. والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل ويقع فيه من البلدان ويله وتبوك وصغر وأريحا وبيسان وطبرية، وبانياس. والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية باردة. معتدلة مع البادية، ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب".[٤]

أما بالنسبة لحدود الشام الشمالية فقد كانت الثغور الممتدة من ملطيه على الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر الشامي تمثل الحدود مع الروم[٥].وقد اعتنى جغرافيو القرن الرابع بالثغور وأفردوا لها بحثاً خاصاً في كتاباتهم. فابن خرداذبة يذكر الثغور الجزرية وهي بحسب روايته سلغوس وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وبينهما ثلاثون ميلاً وكمخ وحصن منصور وقورس ودلوك ورعبان، وأما الثغور الشامية فهي قنسرين وأنطاكية

---

(١) الأصطخري، ابو اسحق ابراهيم بن محمد، (الف كتابه سنة ٣١٨-٣٢١هـ/ ٩٣٠-٩٣٣م) كتاب المسالك والممالك، وهو معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ ابي زيد احمد بن سهل البلخي. ليدن، بريل، ١٩٦٧، ص٥٥، ص٥٣.

(٢) ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي، (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م) كتاب صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، د.ت، ص ١٥٣-١٥٥.

(٣) انظر خارطة رقم (١)

(٤) المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري، (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩١، ص١٨٦.

(٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٥٥. سترانج، لي، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة كوركيس عواد، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٤. ص٦٠.

والإسكندرية (الاسكندرونة) والمصيصة وأذنة[١]. أما ابن رسته (ت حوالي٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) يذكر ومن كور الجزيره مما يسمى الثغور شمشاط وملطيه وزبطره ومرعش والحدث وسميساط وحصن منصور... ومن الشام كور تسمى الثغور الشامية وهي اذنه والمصيصة وطرسوس وعين زربة والهارونية والكنيسة السوداء والعواصم وانطاكية وتيزين وقورس ومنبج ودلوك ورعبان[٢]

أما قدامة فقد تحدث عن الثغور بإسهاب أجمله فيما يلي: "الثغور المعروفة بالشامية فلنبدأ بذكرها وهي طرطوس وأذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس .. ونقابلس..، ثم يلي هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال الثغور المعروفة بالجزرية وأول ما يحاد الثغور الشامية منها مرعش ويليه ثغر الحدث وكان يلي هذه زبطرة فخربت أيام المعتصم .. وبنى مكانها وبالقرب منها حصوناً لتقوم مقامه وهي الحصون المعروفة بطبارجي والحصن المعروف بالحسينية والحصن المعروف ببني المؤمن والحصن المعروف بابن رحوان ثم يلي هذه الحصون ثغر كيسوم ثم ثغر حصن منصور ثم ثغر شميشاط ثم ثغر ملطية .. وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج. ويلي هذه الثغور عن يمينها أيضاً من جهة الشمال الثغور المسماة بالبكرية وهي سميساط وحاني وملكين وحصونها منها جمح ومنها حوران ومنها الكلس وغيرها. [٣]

والاصطخري يتوخى الدقة في التسمية إذ يقول في معرض حديثه عن حدود الشام الشمالية، "ومما يلي الروم الثغور وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصه وأذنة وطرسوس.. وقد جمعت إلى الشام. وبعض الثغور تعرف بثغور الشام، وبعضها تعرف بثغور الجزيرة. وكلاهما من الشام. وذلك أن كل ما وراء الفرات من الشام. وإنما سمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يرابطون ومنها يغزون، لا لأنها من الجزيرة .. وبين ثغور الشام والجزيرة جبل اللكام. وهو الفاصل بين الثغرين. [٤]

يتضح مما سبق أن معالجة حدود الشام تتفاوت بين الإشارة العابرة والمحاولة الجدية لرسمها. ويمكن وصف الاصطخري بأنه يمثل البداية الجدية لمن حاولوا رسم الحدود. كما يمكن

---

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٩٧، ٩٩.

(٢) ابن رسته، ابو علي احمد بن عمر. (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) المجلد السابع من كتاب الأعلاق النفسية، ليدن، بريل ١٩٨٩١م. ص١٠٦-١٠٧

(٣) قدامة بن جعفر، أبو الفرج، (ت ٣٣٧هـ-٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١. ص ص ١٨٥-١٨٧.

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٥٥-٥٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٥٤.

القول بصورة عامة أن حدود بلاد الشام سايرت لدرجة واضحة الأوضاع الجغرافية، فجبال طوروس تكاد تكون الحد الطبيعي بين العرب والبيزنطيين في الشمال. ويشكل بحر الروم (المتوسط) الحد الطبيعي لبلاد الشام من الغرب. بينما تشكل البادية الحد الشرقي والجنوب الشرقي للشام، ويشكل نهر الفرات مع الجزيرة الحد الشرقي.[١]

الذمة لغة واصطلاحاً

الذمة لغة:

الذم نقيض المدح ذمة يذمه ذماً ومذمة فهو مذموم، والمذمة بالفتح الملامة وهي من الذم. والمذمة بالكسر من الذمام. ويقال أذهبْ عنك مذمتهم بشيء. أي أعطهم شيئاً فإن لهم ذِماماً . والذمة من الذِمام، وتعني الحق والحرمة، والجمع أذِمة، والذِمة العهد والكفالة وجمعها ذِمام، وفلان له ذمة أي حق[٢]

والذِمام والذمامة، الحرمة والكفالة، قال الأخطل: (الطويل)

لا تناشدونا من أخيكم ذِمامة ويُسلم أصداء العوير كفيلها[٣]

والذمام: هو كل حرمة تلزمك ان ضيعتها المذمة. أي الحق والحرمة التي يذم مضيعها، ومن ذلك يسمى أهل العهد أهل الذمة، ورجل ذمي معناه رجل له عهد يأمن به على ماله وعرضه ودينه. ويسمى العهد ذِماماً لأن الإنسان يذم على إضاعته منه[٤].

---

(١) انظر خارطة رقم (٢).

(٢) ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرز (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م) ، لسان العرب، ج١٢ بيروت، دار صادر، ١٩٨٦، ص ص ٢٢٠-٢٢٥. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، (٨١٧هـ/ ١٤١٤م)، القاموس المحيط ، ج٤، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠، ص ١١٤.

(٣) ابن منظور، المصدر السابق، ج١٢، ص ٢١١، الفيروز آبادي، المصدر السابق، ج٤، ص١١٤. الأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت الطارقة والأخطل لقب غلبه عليه كان نصرانياً من أهل الجزيرة (ت ٩٠هـ/٧٠٥م). الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م). كتاب الأغاني ج٨، مصور عن طبعة دار الكتب القاهرة ، دار إحياء التراث العربي، د.ت. ص ٢٨٠-٢٨٢.

(٤) ابن فارس، ابو الحسن أحمد بن زكريا. (ت. ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، ج٢، تحقيق عبد السلام هارون، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩، ص ٣٤٦. ابن منظور، المصدر السابق، ج١٢، ص٢٢١. أبو جيب، سعدي، القاموس الفقهي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢م، ص ١٣٨. حجازي، فايزة ، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م، ص٢١.

الذمة اصطلاحاً:

يطلق الفقهاء ألفاظاً متعددة واستعمالات كثيرة على الذمة، إلا أن القصد منها واحد فتطلق الذمة على:

- **الذات والنفس:** ومنه قولهم ثبت المال في ذمته، وبرئت ذمته، لأن النفس والذات محل الذمة[١]

- **العهد:** وفي قوله تعالى " لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة"[٢] فالذمة هنا العهد والإل الحلف[٣].

- **الأمان:** وفي الحديث الشريف " ذمة المسلمين واحدة" [٤] أي أمانهم، فإذا أمن شخص من المسلمين واحداً من الكفار، حرَّم على غيره التعرض له سواء كان الشخص المسلم رجلاً أم امرأة، حراً أم عبداً، شريفاً أم ضعيفاً، لأن المسلمين كنفس واحدة[٥].

- **عقد الصلح والمهادنة:** ومنه الحديث الشريف " وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن أجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فإنكم إن تخفروا[٦] ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من ان تخفروا ذمة الله وذمة رسوله"[٧].

- **الكفالة**، العهد والضمان، والذمي هو المعاهد الذي أعطي عهداً[٨]

---

(١) أبو جيب، القاموس الفقهي، ص ١٣٨.

(٢) سورة التوبة، آية ٩.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٢٢٢. أبو جيب، المرجع السابق، ص١٣٨.

(٤) أحمد، الإمام أبو عبدالله احمد بن محمد بن حنبل (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م)، مسند الإمام أحمد، ج٢، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر د.ت، ص٢١١. البخاري، ابو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، صحيح البخاري، ج٤، القاهرة، دار احياء الكتب العربية د.ت؛ ص١٦٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، البخاري، صحيح ، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، (ت٢٧٥هـ/٨٨٨م)، صحيح سنن ابن ماجة، ج١٢، تأليف ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٦م، ص ١٠٦.

(٥) ابو جيب، المرجع السابق، ص ١٣٨

(٦) تخفروا: من الإخفار، وهو نقيض العهد. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢، ص٢٢

(٧) الترمذي، ابو عيسى محمد بن سورة، (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م). الجامع الصحيح أو سنن الترمذي، ج٥، تعليق عزت عبيد الدعاس، حمص، مطابع الفجر الحديثة، ١٩٦٧م. ص٢٣٩.

(٨) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج٢، ص٣٤٦. الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٤، ص١١٥. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٢٢١. أبو جيب، القاموس الفقهي، ص ١٣٨.

- **الحق والحرمة:** ومنه الحديث الشريف " من ترك صلاة مكتوبة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله"[١]

وسمى المسلمون من صالحهم من أهل البلاد المفتوحة واقاموا في دار الإسلام أهل الذمة. وهم النصارى واليهود ومن جرى مجراهم من المجوس والصابئة والسامره وشملهم الإسلام بالأمان وصانهم بالعهود والمواثيق[٢].

وجاء ذكر الجزية صريحاً في القرآن الكريم في الأية الكريمة التالية قال تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"[٣].

فالشرط الأساسي لعقد الذمة هو الجزية: والجزية في اللغة من جزى يجزي إذا قضى[٤]. قال تعالى: "واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده"[٥]. والجزية من الجزاء ومعناه المكافأة على الشيء أي جزيته، قال تعالى: "لتجزى كل نفس بما تسعى"[٦]. والجزية ما يأخذ من أهل الذمة وهي تدل على الجزاء فإنها جزت عن قتله.[٧]

ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار، وأعفي منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والأرقاء[٨]. وقال بعض الفقهاء أن دفعها واجب على الرهبان إن كانوا ذوي غنى

---

(١) أحمد ، مسند، ج٥، ص٢٣٨. ابو جيب، القاموس الفقهي، ص ١٣٨.حجازي، أهل الذمة، ص ٢٣.

(٢) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية. ١٩٨٥. ص١٣٧.

(٣) سورة التوبة، آية ٢٩.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص١٤٣.

(٥) سورة لقمان، آية ٣٣.

(٦) سورة طه، آية ١٥.

(٧) قدامة، الخراج، ص٢٠٤. ابن منظور، المصدر السابق، ج١٤، ص١٤٣.

(٨) أبو يوسف. يعقوب بن إبراهيم (ت١٨٢هـ/٧٩٨م)، كتاب الخراج، اعتمد في هذه الطبعة على نسخة مخطوطة في الخزانة التيمورية. رقمها ٦٧٤ فقه مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢، بيروت، دار المعرفة، د.ت. ص١٢٢. قدامة، الخراج، ص٢٢٥. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٣، السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد (ت ٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، كتاب المبسوط، ج١٠، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٦، ص٧٩. ابن قيم، الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م)، أحكام أهل الذمة، ج١، تحقيق صبحي الصالح، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨١م. ص٤٢-٥٠. أرنولد، سير توماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، ص١٥٧.

Shorter Encyclopaedia of Islam, Edited by H.A.R. Gibb and J.H Kramers, Leiden: E.J. Brill, 1974, P. 191.

وتجارة ويسار وأن ادعوا الفقر وأقسموا يميناً جائزه أعفوا منـها[١]. وإذا أسلم الذمي بعد انتهاء السنة وجبت عليه الجزية، وأن أسلم قبل تمام السنة بيوم أو يومين أو شهر أو شهرين لم يؤخذ منه شيء من الجزية[٢].

ويشترط مع الجزية التزام أحكام النظام الإسلامي. لأن هذا من سيادة الدولة على أرضها[٣].ومن امتنع لزوم الأحكام أو قاتل المسلمين أو زنا بمسلمة أو أصابها بنكاح أو فتن مسلماً عن دينه أو قطع الطريق على مسلم، أو آذى المشركين أو دلهم على عورات المسلمين، أو ذكر الله ورسوله ودينه بما لا يجوز ذكره انتقضت ذمته وقتل في الحال وغنم ماله[٤].

أحوال أهل الذمة في بلاد الشام قبل العصر العباسي

أهل الذمة في بلاد الشام في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين

لم يشرع القرآن الكريم تشريعاً في الجزية ولم يذكر شيئاً بشان الخراج فاتبع الرسول ﷺ مع أهل البلاد المفتوحة سياسة هي مجموع تدابير عملية تتصف بالمرونة وبمراعاة مقتضى الحال، فقد راعى أولاً طريقة خضوع البلاد له بالقوة أو بالصلح وثانياً راعى أهلها عرباً أو غير عرب وثالثاً لاحظ حالتهم المعاشية أكانت لهم أرض أم لا. وبضوء ذلك وضع تدابيره التي صارت سوابقة لمن أتى من بعده [٥]

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٢. ابن سلام، الأموال، ص٢٧. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٤٩. ابن تيمية، علاء الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس، (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، الاختيارات الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٤٩م. ص٣١٩.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٢.

(٣) قلعجي، محمد رواس، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، بيروت، دار النفائس، ط٣، ١٩٨٦م، ص١٤٤.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٣٨. ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦، ص٩٩. قلعجي، موسوعة فقه عمر، ص٤١٤-٤١٥.

(٥) الدوري، عبد العزيز، النظم الإسلامية. وزارة التعليم العالي، جامعة بغداد، سلسلة بيت الحكمة ، (١) ١٩٨٨، ص ٦٨.

أ- الأراضي التي فتحها عنوه

بعد ان عقد الرسول ﷺ هدنة الحديبية مع قريش عام ٦هـ تفرغ للعدو الذي كان يتربص بالمسلمين الدوائر. وهم أهل خيبر من اليهود فغزاهم في المحرم من السنة السابعة للهجرة، فأخضعهم بعد قتال شديد وفتحت جميع حصونهم عنوه ما عدا حصن الوطيح والسلالم[١] فوقف الرسول ﷺ هذين الحصنين. وقسم الستة الباقية بأن عدها غنيمة وفق آية الغنائم: " واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل"[٢] ثم دفعها رسول الله بأرضها ونخلها إلى أهلها مقاسمه على النصف مما يخرج من الثمر والحب وقالوا له. " دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ... وولى عليهم في ذلك عبدالله بن رواحه فبقيت كذلك طيلة حياة الرسول ﷺ ثم حياة ابي بكر وصدراً من خلافة عمر بن الخطاب حيث اجلاهم فخرجوا منها ليس لهم من الثمر والأرض شيء[٣].

في السنة الثامنة للهجرة كان فتح مكة عنوه. فردها على أهلها ومن عليها ولم يقسمها. ولم يغنم منها مالا[٤] ويقول أبو يوسف في شأن الأرض العربية مايلي:" وأما أرض الحجاز ومكة والمدينة وأرض اليمن وأرض العرب التي افتتحها الرسول ﷺ فلا يزاد عليها ولا ينقص منها... فوضع عليها العشر ولم يجعل على شيء منها خراجاً. فأجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى[٥].

ب- الأراضي التي فتحها صلحاً:

١- وهنا يصعب أن نعطي قاعدة عامة إلا في الخراج

بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة أتته وفود أهل اليمن مسلمة فكتب الرسول ﷺ لهم كتاباً بإقرارهم على ما اسلموا عليه من أموالهم وأراضيهم وركازهم. ووجه إليهم رسله

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢١٤.أما بقية حصون خيبر فهي ناعم، القموص، شق، النطاة، والكتيبة، المصدر نفسه، ص٢١٤.

(٢) سورة الأنفال، آية ١٨.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص٥١. ابو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ / ٨٢٨م) كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الازهرية، ١٩٦٨، ص ١٦. البلاذري ، أبو الحسن احمد بن يحيى بن جابر. (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨، ص٣٧، ٤١. الدوري، النظم الإسلامية، ص٦٩.

(٤) ابن سلام، الأموال، ص ٨٩

(٥) ابو يوسف، الخراج، ص٥٨

وعماله لتعريفهم سنن الإسلام. وبين لهم حدود الصدقات وقبض صدقاتهم العشر فيما سقت السماء أو سقي غيلاً. وفيما سقى بالقرب نصف العشر[١]. وفي البحرين تركت لهم الأرض على " أن يكفونا العمل ويقاسمونا الثمر "[٢]

٢- المدن التي فرضت عليها الجزية فقط

وكان أول من أعطى الجزية من أهل الكتاب أهل نجران وكانوا نصارى[٣]. وجاء في كتاب النبي ﷺ الذي أعطاه لأهل نجران "وإن عليهم الفي حلة في كل صفر الف حلة، وفي كل رجب ألف حله، ثمن كل حلة اوقية فضة(الأوقية أربعون درهماً) ما زاد الخراج أو نقص فعلى الأواقي فليحسب وما قضوا من ركاب أو خيل أو دروع أخذ منهم بحساب..."[٤]. ويعني هذا بأنهم إذا قضوا ما عليهم من خراج من هذه الأشياء المذكورة تؤخذ بحسابها. وطلب منهم أيضاً أن يضيفوا رسل رسول اللهﷺ عشرين ليله فما دون ولا تحبس رسله فوق شهر . وطلب منهم المساعدة التالية عند حصول اضطراب بأن يعيروا المسلمين ثلاثين درعاً وثلاثين بعيراً وثلاثين فرساً على أن يعوض المسلمون ما يهلك مما يعار[٥]وجاء في الكتاب "... ولنجران وحاشيتها ذمة الله وذمة رسوله على دمائهم وأموالهم وملتهم، وبيعهم، ورهبانيتهم، وأساقفتهم، وشاهدهم وغائبهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. على أن لا يغير أسقفاً من سقيفاه، ولا واقهاً من وقيهاه[٦]، ولا راهباً من رهبانيته، وعلى أن لا يحشروا ولا يعشروا، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فالنصف بينهم ..."[٧].

---

(١) ابو عبيد، الأموال، ص ٣٨. البلاذري، فتوح، ص ٧٩-٨٠.

(٢) البلاذري، المصدر السابق ، ص ٨٩. الدوري، النظم الإسلامية، ص٧١.

(٣) ابو عبيد، المصدر السابق ، ص٣٩.

(٤) أبو يوسف، المصدر السابق، ص ٧٢.أبو عبيد، المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص ٧٢. أبو عبيد، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٦) واقهاً من وقيهاه: وإنما هي بالفاء "ولا وافه عن وفهيته" والوافه القيم على الكنيسة. سقطت عند أبي يوسف. أبو عبيد، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٧) أبو يوسف، المصدر السابق، ص٧٢. أبو عبيد، المصدر السابق، ص٢٧٣. الحيدر آبادي، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، ط٦، ١٩٨٧، ص١٧٨.

وكما أخذ الرسول ﷺ الجزية من نصارى نجران أخذها من اليهود، وبعث معاذاً إلى اليمن وطلب منه أن يعقد الجزية لمن لم يسلم من اليهود والنصارى وأن يعطيهم الذمة ويأخذ من كل محتلم ديناراً أو قيمته من المعافر (المعافري) [١].

وصالح بعض الجهات على جزية مشتركة مثل أهل تيماء فصالحوه على الجزية ما أقاموا ببلادهم وأرضهم [٢]. وكذلك في تبوك أقام فيها أياماً فصالحه أهلها على الجزية [٣].

وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل رجب وأهل جرباء صالحهم على الجزية وكتب لهم كتاباً [٤]. وصالح بعض المناطق على جزية دينار على رؤوس الأشخاص مع ضيافة من يمر بالمنطقة من المسلمين مثل أيله صالح صاحبها على أن جعل على كل مسلم بأرضه في السنة دينار فبلغ ذلك ثلاثمائة ديناراً واشترط عليهم قرى من مر بهم من المسلمين [٥]. كما أقر الرسول أهل تبالة وجرش على ما أسلموا، وجعل على كل حالم فيهم من أهل الكتاب ديناراً واشترط عليهم ضيافة المسلمين [٦].

كما صالح الرسول ﷺ أهل مقنا [٧] وكانوا يهوداً [٨] على عروكهم وربع ثمارهم وربع ما اغتزلت نساؤهم وعلى أن يعجل منهم ربع كراعهم وحلقتهم (معدات حربية) [٩].

---

(١) أبو عبيد، الأموال، ص٣٨. يحيى بن آدم القرشي، أبو زكريا يحيى بن سليمان، (ت٢٠٣هـ/٨١٨م)، كتاب الخراج، صححه وشرحه ووضع فهارسه، أحمد محمد شاكر، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٤٧هـ ص٧٢. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، دمشق، مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٧٩، ص١٥٦.

المعافر او المعافري: بفتح الميم ثياب تصنع باليمن، ابن آدم القرشي، المصدر السابق، ص٧٢. هامش رقم (٥) . ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج٣، ص١٥٦، وهذا دليل على أن الجزية غير واجبة نقداً.

(٢) البلاذري، ، فتوح ، ص٧١. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، (ت ٣٣٥هـ/٩٤٦م)، أدب الكاتب، نسخه وعنى بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد الأثرب، بغداد، ١٣٤١. د.ن. ص٢١٤.

(٣) البلاذري، المصدر السابق. ص٧١. الصولي. المصدر السابق، ص٢١٤.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص٧١. الحيدرآبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص١١٩.

(٥) البلاذري، فتوح، ص٧١. الصولي، أدب الكاتب، ص٢١٤. الحيدرآبادي، المصدر السابق، ص١١٧-١١٨.

(٦) البلاذري. المصدر السابق، ص٧٠. الدوري، النظم الإسلامية. ص٧١.

(٧) مقنا: بلدة قرب أيلة. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج٥، بيروت، دار صادر، د. ت. ص١٧٨.

(٨) البلاذري، المصدر السابق، ص٧١. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٥، ص١٧٨. الحيدرآبادي، المصدر السابق، ص١٢٠.

(٩) البلاذري، المصدر السابق، ص٧١، العروك، خشب يصطاد عليه، المصدر نفسه، ص٧١. والعركي: صياد السمك. مصطفى إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، تركيا، دار الدعوة، ط٢، ١٩٧٢، ج٢، ص ٥٩٧.

وكما أخذ الرسول ﷺ الجزية من النصارى واليهود فقد أخذها أيضاً من المجوس. عن محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله أخذ الجزية من مجوس أهل هجر. وعن عمر بن الخطاب قال: أخبرني عبد الرحمن بن عوف أن الرسول ﷺ، سئل عنهم. فقال: سنوا بهم سنة أهل الكتاب[1].

ومما أمكن استخلاصه من هذه التدابير أن الرسول ﷺ خصص الجزية الشخصية بدينار وفرضها على اهل الكتاب والحق بهم المجوس وأعفى النساء والأولاد منها، واخذ من بعض المناطق جزية مشتركة. وقبل الرسول المواد العينية بدل الجزية فحاجة الدولة فرضت من البدء أن تطلب من اهل الذمة المواد العينية، فكان أساس صلح نجران المواد العينية من الحلل وجواز دفع الخيل والدروع والركاب عوضاً عنها. وفي كتاب الرسول إلى معاذ باليمن يطلب فيه أخذ المواد العينية بدل الجزية النقدية. كما أدخل الرسول ﷺ مبدا ضيافة المسلمين للضرورة فقد أدرك أهمية التمويل ودوره الفاعل في عمليات القتال[2].

ومن التدابير العملية التي اتخذها الرسول أنه أبقى الأراضي التي فتحت عنوه بأيدي اهلها على النصف، وذلك بسبب قلة الأيدي العاملة وخبرة اهلها فيها. وربما يعود أيضا إلى عدم تفرغ المسلمين للأعمال الزراعية.

وقد توالت وصايا الرسول ﷺ بأهل الذمة خيراً وتكررت أوامره بالإحسان والبر بهم. والنهي عن ظلمهم وإيذائهم وسلب حقوقهم، ومن ذلك قوله: "من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة".[3]

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٩. ابو عبيد، الأموال، ص٤٥. البخاري، صحيح، ص١٦٩. الصولي، أدب الكاتب، ص٢١٤. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م)، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، ج١، بيروت، دار الجيل ١٩٧٣. ص٥٩.

(٢) خريسات، محمد عبدالقادر، دور العرب المتنصرة في الفتوحات، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ١٩٨٥، ص١٥٦.

(٣) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، ج٣، راجعه وضبط حواشيه، محمد عبد الحميد، بيروت، دار إحياء السنة النبوية، د.ت. ص١٧١. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، السنن الكبرى، ج٩، بيروت، دار المعرفة، د.ت. ص٢٠٥. يحي بن آدم القرشي، الخراج، ص٧٥.

وقد سار الخلفاء الراشدون على هذا النهج وأدركوا أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السكان وأن يملأ عليهم أفاقهم حتى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الخوف والقلق لكي تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والإعجاب بما يؤمنون به(١).

ومن أجل هذا كان أول ما تستند إليه كتب الصلح المختلفة مع أهل الذمة أن يعطي القائد أو الخليفة الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم مع الاشتراط عليهم بدفع الجزية. جاء هذا في صلح أهل بصرى. فقد ذكر البلاذري "أن أهل بصرى صالحوا خالد بن الوليد على أداء الجزية مقابل الأمان على دمائهم وأموالهم وأولادهم"(٢).وفي رواية ثانية للبلاذري يحدد فيها ماهية الجزية ومقدارها فيقول ذكر بعض الرواة أن أهل بصرى صالحوا على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً وجريب حنطة(٣). ويبدو أن الرواية الأولى هي إشارة إلى جزية عامة فرضها الفاتحون على بصرى ابتداء. أما الجزية المحدده فهي إشارة إلى أوائل التنظيم حيث فرضت ضريبة واحدة على اهل الريف والمدن.(٤) وفي الطبري أن بصرى صالحت المسلمين على الجزية(٥). ثم صولحت مآب من أرض البلقاء واذرعات وعمان على صلح بصرى. (٦)

وجاء في كتاب خالد لأهل دمشق "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم. ولا يسكن شيء من بيوتهم ودورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم هذا إلا بخير إذا أعطوا الجزية"(٧). وفي رواية أخرى للبلاذري قال: وقد ذكر بعض الرواة: أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صالحهم عليه على أن ألزم كل رجل من الجزية

---

(١) خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٧. ص ١٢٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٢٠. قدامة، الخراج، ص٢٨٨.

(٣) البلاذري، المصدر السابق، ص١٢٠. قدامة، المصدر السابق، ص٢٨٨.

(٤) كاتبي، غيداء، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤، ص ٧٨-٧٩.

(٥) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦-١٩٧٠، ج٣، ص٤١٧.

(٦) البلاذري،فتوح، ص١٣٢. قدامة. الخراج، ص٢٨٨.

(٧) البلاذري، المصدر السابق، ص١٢٨.

ديناراً وجريب حنطة وخلاً وزيتاً لقوت المسلمين(١). كما فرض عليهم أن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام وأن عليهم إرشاد الضال وبناء القناطر على الأنهار من أموالهم(٢).

ولما فرغ أبو عبيده من أمر مدينة دمشق سار إلى حمص فمر ببعلبك فطلب اهلها الأمان والصلح فصالحهم على الجزية والخراج(٣). وذكر الواقدي بأن صلح بعلبك كان على "...ألف أوقية من الذهب الأحمر والف أوقية من الفضة البيضاء وألف ثوب من الديباج وخمسة ألاف سيف... وأن عليكم خراج أرضكم في العام الآتي وأداء الجزية في كل عام وانتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحاً ولا تكاتبون ملكاً ولا تحدثون حدثاً ولا كنيسة وترون النصح للمسلمين..."(٤).

وتتشابه إجراءات صلح حمص بتلك التي حصلت في دمشق فقد روى البلاذري عن أبي مخنف(٥) أن أبا عبيده صالح أهل حمص على مائة ألف وسبعين دينار وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم. وعلى أن يضيفوا المسلمين يوماً وليلة وعلى أن لا يعمروا بيعهم(٦).

وصولحت بقية مدن الشام على صلح حمص فيذكر اليعقوبي أن حلب وقنسرين ومنبج صولحت على الخراج على غرار حمص(٧). كما ذكر الواقدي كان صلح المسلمين لأهل قنسرين والعواصم على أربعة ألاف دينار ملكية ومائة أوقية من الفضة وألف ثوب من متاع حلب وألف

---

(١) البلاذري، فتوح، ص١٣٦.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ١٣٨.

(٣) البلاذري، المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٤) الواقدي، أبو عبدالله بن عمر (ت. ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، فتوح الشام، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، د.م، د.ت. ص ١٤٣.

(٥) أبو مخنف: اخباري كوفي، كتب عن الردة وفتوح الشام والعراق ويعتبر أميز الإخباريين في العراق. وأخباره ليست متحزبة (ت ١٥٧هـ/ ٧٧٤م) الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، نصوص ودروس، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠، ص٣٥.

(٦) البلاذري، المصدر السابق، ص١٣٧. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح، (ت٢٧٨هـ/٨٩١م)، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، ودار بيروت، ١٩٦٠، ج٢، ص١٤١. قدامة، الخراج، ص٢٩٧. الحيدرآبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٦٧-٤٦٨. ينفرد ابن اعثم بأن الصلح كان على "سبعين ألف دينار عاجلة وعن كل محتلم أربعة دنانير"، ابن أعثم الكوفي، ابو محمد احمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م)، كتاب الفتوح، تحقيق محمد عبدالمعيد خان، حيدر أباد الدكن، حيدر أباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٨، ج١ ص٢١٦.

(٧) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٤٢. البلاذري، فتوح، ص١٣٧. الواقدي، فتوح الشام، ص ١١٥.

وسق من طعام[1]. وصالح أبو عبيدة أنطاكية على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ودفع عن كل حالم منهم ديناراً وجريباً ثم نقضوا فسار إليهم عياض بن غنم[2] وحبيب بن مسلمة[3] ففتحاها على الصلح الأول[4]. فصالح أهل حماة على الجزية في رؤوسهم والخراج على أرضهم وأنه صالح أهل شيزر وأهل فاميه على مثل ذلك.[5] وفتحت قرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين وصالحوا اهل دير طايا ودير الفسيلة على يضيفوا من مر بهم من المسلمين[6]

ويذكر الطبري أن المسلمين (شرحبيل) صالحوا أهل طبرية على صلح دمشق. وأنهم فرضوا على كل رأس ديناراً كل سنة وعن كل جريب براً وشعيراً أي ذلك حرث[7]، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلوه[8]. وفتح شرحبيل بن حسنة جميع مدن الأردن على هذا الصلح[9].

وصالح عمرو بن العاص أهل غزة وسبسطية ونابلس علماً أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم على أن يؤدوا الجزية على رقابهم والخراج على أرضهم[10]، وحصل

---

(١) الواقدي، فتوح الشام، ص١١٥. الوسق: كان الوسق يساوي في صدر الإسلام (حمل البعير) = ٦٠ صاعاً أي ١٩٤,٣ كغم. هنتس، فالتر، المقاييس والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ١٩٧٠، ص٧٩.

(٢) عياض بن غنم: ابن زهير بن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن مالك بن فهر. شهد بدراً مع النبي ﷺ وشهد فتوح الشام روى عن النبي ﷺ. وروى عنه سويد بن جبلة. (ت سنة ٢٠هـ/٦٤٠م). وافتتح الجزيرة كلها. (ت ٢٠هـ/٦٤٠م). ابن عساكر، علي بن الحسين بن هبة الله. (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأوائل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها. دراسة وتحقيق محب الدين العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥. ج٤٧، ص٢٦٤ وما بعدها.

(٣) حبيب بن مسلمة. حبيب بن مسلمة الفهري (ت٤٢هـ او ٤٥هـ/ ٦٦٢ أو ٦٦٥م). خرج إلى الشام مجاهداً شهد معركة صفين مع معاوية. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٢، ص٦٢.

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٣٧. قدامة، الخراج، ص٢٩٧.

(٥) البلاذري، المصدر السابق، ص١٣٧. قدامة، المصدر السابق، ص٢٩٧.

(٦) البلاذري، المصدر السابق، ص١٥٤

(٧) الطبري، تاريخ الرسل والملوك. ج٤، ص٤٤٤.

(٨) البلاذري، المصدر السابق ، ص١٢٣.

(٩) البلاذري، المصدر السابق، ص١٢٣.

(١٠) البلاذي، المصدر السابق، ص١٤٤. قدامة، المصدر السابق، ص٢٩٩.

ذلك مع لد (اللد) ويبنى وعمواس وبيت جبرين ويافا ورفح[1]. أما الطبري فيشير للجزية وحدها إذ يقول: "وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام"[2] ثم سار إلى إيليا وصالحت على أداء الجزية والخراج كبقية مدن الشام[3]، في حين ذكر الطبري أنهم صالحوا على أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن[4]. وجاء في كتاب عمر بن الخطاب إلى أهل إيليا "أنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم. ولا ينتقص منها ولا من حيزها. ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن ايليا معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايليا ان يعطوا الجزية كما يعطو أهل المدائن ..."[5].

---

(١) البلاذري، فتوح، ص١٤٤. قدامة، الخراج، ص٢٩٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٦٠٩.

(٣) البلاذري، فتوح ، ص١٤٤. قدامة، الخراج، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٤) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص٦٠٩. الأزدي، محمد بن عبد الله، (ت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي)، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠، ص٢٥٢.

(٥) الطبري، المصدر السابق، ج٣، ص٦٠٩. الحيدرآبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٨٧-٤٨٨. أما جملة "فلا يسكن معهم أحد من اليهود" فإنها لم ترد في المصادر الأولى التي أوردت العهد، فاليعقوبي (ت٢٨٣هـ/٨٩٧م) كان أول من أورد النص وقال" وإنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً. تاريخ، ج٢، ص١٤٧. ويورد ابن البطريق نصاً مشابهاً له. ابن البطريق، سعيد، (ت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩، ص١٧. أما البلاذري فقد أشار إلى "أن أهل إيليا طلبوا الأمان والصلح على مثل ما صولح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج" فتوح، ص١٤٤. وكانت أول إشارة إلى وجود نص للعهد يحفظه أهل بيت المقدس تأتي من ابن أعثم (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) الذي يقول "وكتب (عمر) لهم كتاباً يتوارثونه إلى يومنا هذا والله أعلم". ابن أعثم، فتوح، ج١، ص٢٩٦. "ويشير المطهر المقدسي إلى أن الصلح اشترط أن لا تهدم الكنائس ولا يطرد الرهبان منها". ويفهم من عامة الروايات أن الصلح يتفق والعهود التي أعطيت إلى المدن الأخرى في الشام وقد كان الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم مقابل الجزية. وفي القرون التالية وصلنا النص الموسع كثيراً والذي يدعى العهدة العمرية باعتباره عهد عمر إلى أهل بيت المقدس وقد ورد النص عند مجير الدين العليمي الحنبلي. (ت٩٢٨هـ/١٥٢١م) في كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص٢٥٣. وابن قيم الجوزية، في أحكام أهل الذمة، ج٢، ص٦٦٣، ويعلل الدوري تطور شروط الصلح على هذا الوجه أن له صلة بحرمة بيت المقدس عند النصارى. وتطور العلاقات مع النصارى ابتداء من أيام عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد والمتوكل إلى الفاطميين له علاقة بذلك وأن الحقيقة مؤداها أن عهد عمر تطور من صلح أنفذه المسلمون إلى تعهدات قطعها النصارى يدعو إلى الاستنتاج بأن النص طور بحيث ضمن شروطاً لا علاقة بها بزمان الفتح واكتسب صيغة فقهية وضعت لتنظيم أوضاع تالية. الدوري، القدس في الفترة الإسلامية الأولى القرن السابع حتى القرن الحادي عشر. بحث منشور في كتاب القدس في التاريخ، ترجمة كامل العسلي، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢، ص ص ١٣١-١٤٨.

ولما فتحت الشام توجه عياض بن غنم إلى فتح الجزيرة فأول ما بدأ بالرقة فحاصرها حتى طلب بطريقها الأمان فأجابه عياض إلى ذلك وأقر الأرض في أيديهم على الخراج ودفع الجزية على رقابهم ديناراً في كل سنة على كل رجل منهم وجعل عليهم مع الدينار أقفزه من قمح وشيئاً من زيت وخل وعسل(١). ثم حاصر مدينة الرها فصالحه أهلها على أنهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وعلى أن يؤدوا على كل رجل ديناراً ومدين قمحاً وعليهم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين(٢).ثم سار عياض إلى حرّان فطلب الحرانية الصلح فصالحهم على الجزية عن كل رجل ديناراً ومدي قمح وأن عليهم إرشاد الضال وأصلاح الجسور ونصيحة المسلمين(٣). ثم قدم صفوان بن المعطل(٤)، وحبيب بن مسلمة إلى سميساط فصالحه أهلها على مثل صلح الرها(٥). ثم أتى قرايات الفرات ففتحها على مثل ذلك. ووجه عياض بن غنم حبيب بن مسلمة إلى قرقيسيا ففتحها صلحاً على مثل صلح الرقة، الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم وألزم كل رجل منهم ما عدا النساء والصبيان ديناراً(٦). وفتح بقية مدن الجزيرة على مثل صلح ما تقدم(٧).

ولما فتحت عانات وسائر حصون الفرات، أراد عمير بن سعد الأنصاري(٨) من كان هناك من بني تغلب إلى الإسلام فأبوه، وهموا باللحاق بأرض الروم فصالحهم المسلمون على أن أضعفوا عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل زرع وماشية وهذا ما ذكره البلاذري في

---

(١) البلاذري، فتوح ، ص١٧٧-١٧٨. الدوري، النظم الإسلامية، ص٩١.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٧٨. الحيدرآبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص٤٩٥.

(٣) قدامة، الخراج، ص٣١٣.

(٤) صفوان بن المعطل: صفوان بن المعطل بن رخصة أبو عمرو السلمي الذكواني. صاحب رسول الله ﷺ أثنى عليه وقال: "ما علمت عليه إلا خيراً" شهد فتح دمشق. واستشهد بسميساط. ابن عساكر، ج٢٤، ص١٥٨، تاريخ مدينة دمشق.

(٥) قدامة، المصدر السابق، ص٣١٣.

(٦) قدامة، المصدر السابق، ص٣١٣، ٣١٢.

(٧) البلاذري، فتوح ، ص١٨٠. قدامة. الخراج. ص٣١٣.

(٨) عمير بن سعد الأنصاري: هو عمر بن سعد بن شهيد بن قيس بن النعمان. صاحب رسول الله ﷺ حدث عن رسول الله بحديث. روى عنه أبو طلحة الخولاني الشامي وراشد بن سعد وحبيب بن عبيد. ولي على دمشق وحمص في خلافة عمر بن الخطاب. مات في زمان عمر بفلسطين. قال عمر عنه: أتمنى أن يكون رجال من المسلمين مثل عمير فأستعين بهم على أمور المسلمين. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٤٦، ص٤٧٨.

رواية عن عوانه بن الحكم[١] وأبي مخنف قال: " كتب عمير بن سعيد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه أنه أتى شق الفرات الشامي ففتح عانات وسائر حصون الفرات وأنه اراد من هناك من بني تغلب على الإسلام فأبوه وهموا باللحاق بأرض الروم وقبلهم ما اراد من في الشق الشرقي على ذلك فامتنعوا عنه وسألوه أن ياذن لهم في الجلاء واستطلع رأيه فيهم فكتب إليه أمر رضي الله عنه يأمره بأن يضعف عليهم الصدقة التي تؤخذ من المسلمين في كل سائمه وأرض"[٢]. وفي رواية أخرى له عن داود بن كردوس قال: صالح عمر بن الخطاب بني تغلب بعد أن قطعوا الفرات وأرادوا اللحاق بأرض الروم على ان لا يصبغوا صبياً ولا يكرهوه على دينهم وعلى أن عليهم الصدقة مضعفة [٣].

أما بالنسبة لبقية قرى ومدن الجزيرة فقد أشار أبو يوسف إلى ذلك بقوله: "وأما المدن والرساتيق في الجزيرة التي كانت بأيدي الروم فإن أحداً منهم لم يدع ولم يمتنع إلا أن أهل كل كورة كانوا إذا فتحت مدينتهم يقولون نحن أسوة بأهل مدينتنا ورؤسائنا ولم يرد عن عياض أنه أعطاهم ولا أباه عليهم".[٤]

يتضح من خلال تلك العهود أن المسلمين منحوا سكان البلاد المفتوحة الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم مقابل دفع الجزية، وأن المسلمين أخذوا مبالغ نقدية أو عينيه (جزية عامة)، كما كان للمعاملة الحسنة التي لقيها سكان البلاد من المسلمين سبباً في عدم مقاومة هذه القبائل للمسليمن، بل في بقاء بعض المدن على ولائها بالرغم من خروج العرب المسلمين منها. [٥] فكانوا يعيدون لهم تلك المبالغ عندما يشغلهم شاغل أو يعجزون عن حمايتهم وتطبيق بنود العهد الذي بينهم وبين أهل الذمة كما حدث في دمشق وحمص، فعندما جمع هرقل الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك أمر أبو عبيدة سويد بن كلثوم القرشي أن يرد على أهل دمشق ما كان اجتبى منهم الذين كانوا أومنوا وصولحوا[٦]، وردوا على أهل حمص ما كانوا

---

(١) عوانة بن الحكم، اخباري كوفي، كتب في التاريخ الإسلامي في القرن الأول الهجري، وتدل المقتبسات المأخوذه عنه أنه كتب عن الخلفاء الراشدين، والردة والفتوحات، وهو ثقه فيها بصوره خاصة، توفي سنة ١٤٧هـ/٧٦٤. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ ، ص٣٦.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٨٦.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٠-١٢١، ص١٣٥. أبو عبيد، الأموال، ص٤٠. البلاذري، المصدر السابق ص١٨٦، ص٥٤. قدامة. المصدر السابق، ص٢٢٤.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص٤٠.

(٥) خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٥٤.

(٦) الأزدي، فتوح الشام، ص١٦٠.

أخذوه منهم من الخراج (الجزية) وقالوا: "قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم. فقال لهم أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود. وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد. فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين فلعبوا وأدّوا الخراج[١]. وكذلك فعل أهل شيزر ومعرة النعمان وفامية[٢].

ومع أن عهود الصلح عقدت مع أحد الأمراء الأربعة خالد وأبي عبيده وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنه، إلا انها سارت على نهج واحد، وهو فرض جزية على أهل المناطق المختلفة، وكانت الجزية ابتداء على دينار وجريب على كل جمجمة، وفرضت الجزية على أهل المدن والأرياف أما كلمة خراج الواردة في بعض عهود الصلح فهي لا تعني ضريبة الأرض بل تشير إلى فرض جزية عامة على الأهل تسمى خراجا[٣]

كذلك استمر فرض الضيافة على أهالي المناطق المفتوحة كما ورد في صلح دمشق وقرى الجومة وسرمين ومرتحوان وتيزين وأهل دير طاياه ودير الفسيلة[٤]، كما حرص قادة الجيوش على تأمين المواد العينية والتموينية للجيش وهو ما يسمى بالأرزاق، كما جاء في صلح بعلبك وقنسرين وحلب[٥] وفي الجزيرة حيث صالحت الرقة على الجزية وأقفزة من القمح وشيئاً من زيت وخل وعسل[٦] إلا أنها لم تكن بصورة منتظمة ومحددة بل اتخذت كإجراءات مؤقته لتموين القوات الإسلامية الفاتحة[٧]. إلى جانب فرض بعض التكاليف الإضافية مثل إصلاح الطرق والجسور وإقامة القناطر وحفر القنوات وإرشاد الضال من المسلمين ودلالة المسلمين وتزويدهم

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٩. البلاذري، فتوح، ص١٤٣.

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص١٣٧.

(٣) الدوري، تنظيمات عمر بن الخطاب (الضرائب في بلاد الشام)، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ١٩٨٥، مج٢، عمان ١٩٨٧، ص٤٦٣ .

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٨، البلاذري، فتوح، ص١٥٤.

(٥) الواقدي، في فتوح الشام، ص ١٤٣، ١١٥

(٦) البلاذري، المصدر السابق ، ص١٧٧.

(٧) عيسى، بثينه عبد الرحمن، التكاليف والضرائب الإضافية في صدر الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية،١٩٩٧، ص٣٥..

بأخبار العدو. وترد إشارات حول عدد أخر من الأعمال التي كلف بها الأهالي فمثلاً يذكر أن عمر سخر بعض أنباط اهل فلسطين في كنس بيت المقدس[١].

وعندما استقر الوضع في الشام والجزيرة بعد الفتح بدأ المسلمون بتنظيم العلاقة المالية مع أهل البلاد. فقد كتب عمر كتاباً إلى أمراء الأجناد يأمرهم بأن يفرضوا الجزية على كل من جرت عليه المواسى ويعفوا منها النساء والصبيان، وعليهم أرزاق المسلمين مدان من الحنطة، وثلاثة أقساط من الزيت كل شهر لكل إنسان بالشام والجزيرة وشيئا من الودك والعسل. وضيافة من نزل بهم ثلاثا يأكل الضيف مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة ولا دجاجة[٢]. وإذا حدث أن أمطرت السماء وعوقت المسافرين أكثر من المدة انفق من ماله ثمن ما يأكلون. [٣]

ويبدو أنه أجريت تعديلات على الجزية بعد فترة فمن جزية الدينار النقدية والطعام (حنطة، خل، زيت) التي فرضت أولاً على الجميع في المدن والأرياف، كان التعديل على جزية المدن وجعلها نقدية ومتدرجة أي حذف الطعام منها بينما بقي الريف على حاله. إذ يروي الأوزاعي[٤] بخصوص هذا أنه قال: "كانت الجزية بالشام في بادئ الأمر جريباً وديناراً على كل جمجمة ثم وضعها عمر على أهل الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل. [٥]

---

(١) أبو عبيد، الأموال، ص٢٢٦

(٢) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، ص٧٣. أبو عبيد، الأموال، ص٢١٣. البلاذري، فتوح ص١٣١، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٨٤. ذكر أربعة أقساط من الزيت. الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، دار الطليعة، ط٤، ١٩٨٢، ص٢٩. الدوري، تنظيمات عمر، ص٤٦٦.

(٣) الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت٢٠٤هـ/٨١٩م)، الأم، ج٤، بيروت، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٠، ص١٩١.

(٤) الأوزاعي، عبد الرحمن بن عمر (ت١٥٧هـ/٧٧٣م) الفقيه المشهور في بعلبك وفي بيروت، اشتهر بالعلم والزهد وتميز بالجرأة الأدبية وكان ثقة مأمونا صادقا، كثير الحديث والعلم. قال عنه ابن خلكان: إنه إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه. ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ٤٨٨. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، ص١٤٧. ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم، (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٣٠، ج٣، ص١٢٧. ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء، (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ج١٠، ص ١١٥. حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، أشرف على مراجعته جبرائيل جبور، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩، ج٢، ص١٨٣.

(٥) الشافعي، الأم، ج٤، ص١٩١، البلاذري، فتوح، ص١٣١. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٨٤. قدامة، الخراج، ص٢٩٥.

كما يروي البلاذري أيضاً عن ميمون بن مهران[١] أخذ عمر الزيت والخل والطعام لمرفق المسلمين في الجزيرة مدة ثم خفف عنهم واقتصر على ثمانية وأربعين درهماً نظراً من عمر للناس[٢]. وأصبحت الضيافة والأرزاق (الجزء العيني من الجزية) بعد تعديل عمر مقتصرة على أهل الرساتيق دون المدن. فقد كان أهل الريف أسوة بأهل المدن إلا في أرزاق الجند فإنهم حملوها دون أهل المدائن لأنهم أصحاب زروع وإن أهل المدن ليسوا كذلك وهذا اتبع في الشام والجزيرة.[٣]

ولما قدم عمر الجابية فأراد قسمة الأرض بين المسلمين قال له معاذ والله ليكونن ما نكره إنك إن قسمتها صار الربع العظيم في أيدي القوم ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد والمرأة ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسداً، وهم لا يجدون شيئاً فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم. فصار عمر إلى قول معاذ وعوملت الشام كما عوملت الجزيرة ففرض الخراج عليهم ولم تقسم[٤]. أي اعتبرها وقفاً للمسلمين لتكون مورداً دائماً لهم.[٥]

ويبدو أن هذا التنظيم سبقه إجراء مسح عام للأراضي وإحصاء للسكان فيذكر ثيوفانس (Theophanes) أنه في العام الثلاثين من حكم هرقل أمر عمر أن تمسح البلاد والأراضي التي خضعت له وتوصف ليس فقط بالنسبة للرجال، بل بالأشجار المثمرة والزروع أيضاً.[٦]

كما لم يجد القادة المسلمون غضاضة في اشتراك بعض العناصر من أهل الذمة في تأدية الخدمات المعاونة لهذه الجيوش مقابل إسقاط الجزية عنهم، فاستخدم أبو عبيدة بن الجراح اليهود في الأردن وفلسطين عيوناً وأدلاء للمسلمين أثناء الفتوحات وأسقط عنهم الخراج[٧]. وفعل مثل ذلك حبيب بن مسلمة الفهري عندما وجهه أبو عبيدة لاستكمال حركة الفتوح في شمال الشام حيث

---

(١) ميمون بن مهران أبو أيوب مولى بني أسد الجزري، فقيه أهل الجزيرة. (ت١١٧هـ/٧٣٥م). ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٦١. ص٣٣٦-٣٤٦.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٤٨.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص٤١.

(٤) أبو عبيد، الأموال، ص٨٣-٨٤.

(٥) الدوري، تنظيمات عمر، ص٤٦٦.

(6) Theophanes, The Chronicle of Theophenes, Philadelpia: University of Pensylvania Press, 1982, P 40.

(٧) البلاذري، فتوح، ص١٦٢.

صالح الجرجومة[١] على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام شريطة ألا يؤخذوا بالجزية وأن يكون لهم حال اشتراكهم في الغزو أسلاب من يقتلونهم من أعداء المسلمين، ودخل من كان معهم في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط من أهل القرى ومن معهم في هذا الصلح فسموا الروادیف لأنهم تلوهم وليسوا منهم، ويقال: أنهم جاؤوا بهم عسكر المسلمين وهم أرداف لهم، فسموا روادیف.[٢]

كما حرص الخلفاء على مراعاة أهل الذمة وحفظ حقوقهم، فقد مرّ عمر بن الخطاب بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد اجتمعوا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا عليهم الخراج (الجزية) لم يؤدوها فهم يعذبون حتى يؤدوها. فقال عمر: فما يقولون هم وما يعتذرون به في الجزية؟ قالوا: يقولون لا نجد قال: فدعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تعذبوا الناس فإن الذين يعذبون الناس في الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة، وأمر بهم فخلّى سبيلهم[٣]. وكان فيما تكلم فيه عمر بن الخطاب عند وفاته. "أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم"[٤].

كما أن أهل الذمة منحوا من الحرية ما سمح لهم من ممارسة كافة النشاطات الاقتصادية دون أي تدخل من الدولة، فعلى سبيل المثال فقد جاء في صلح بعلبك، "... ولتجارهم أن يسافروا حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ..."[٥] إلى جانب إشتراكهم في وظائف الدولة حيث ترك أمر اشراكهم في إدارة البلاد إلى اجتهادات الخلفاء من جهة وإلى حاجة المجتمع لكفايتهم وخبرتهم من جهة أخرى[٦]. ولذا وجدنا عمر بن الخطاب يرفض بشدة في بعض المناسبات أن

---

(١) الجرجومة: بضم الجيمين، مدينة يقال لأهلها الجراجمة. كانت على جبل اللكام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٢٣. انظر أيضاً: الجراجمة في العصر الأموي وفي العصر العباسي من هذا البحث.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٦٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٢٣. المسالح: جمع مسلح وهو كل موضع يقف فيه الجند بالسلاح للمراقبة والمحافظة، المعجم الوسيط، ج١، ص٤٢٢.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٥. الأزدي، فتوح الشام، ص٢٦٤. اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٢٧.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٥. يحي بن آدم القرشي، الخراج، ص٧٥.

(٥) البلاذري، فتوح ،ص١٣٦.

(٦) بدوي، عبد المجيد، سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة في الشام والعراق في عهد الراشدين وبني أمية. دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة. عدد ٨، مايو ١٩٨٨، ص١٢٨.

يتولى واحدٌ من أهل الذمة أمراً حيوياً من أمور المسلمين فحين علم أن لأبي موسى الأشعري كاتباً نصرانياً ضرب فخذه وقال له: هلا اتخذت رجلاً حنيفياً[١]. ومع ذلك فإنه في مناسبة أخرى كتب إلى عامله بالشام يقول له: ابعث لنا برومي يقيم لنا حساب فرائضنا. [٢]

أما بالنسبة لقضية الزي واللباس لأهل الذمة فقد جاء في العهد الذي كتبه عبد الرحمن بن غنم لعمر على لسان نصارى الشام عند فتح مدينة دمشق سنة ١٤هـ/٦٣٥م. "... بأن لا نتشبه بالمسلمين في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ... ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ... وأن نجز مقادم رؤوسنا. وأن نشد الزنانير على أوساطنا.."[٣]. فمن المرجح ان هذا التمييز في اللباس حدث فيما بعد وفي عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز إذ تخلو عهود الصلح الأخرى التي عقدت مع سكان المدن في بلاد الشام من مثل هذه الشروط. كما أن تمييز الذمي عن المسلم في اللباس في هذه المرحلة المبكرة لم يكن ضروريا فكان لكل منهما لباسه الخاص به، وعندما أخذت الدولة الإسلامية بالاستقرار والتحضر راح الذميون يتشبهون بالمسلمين في لباسهم فكان على الخلفاء اتخاذ بعض الإجراءات التنظيمية كتمييزهم في اللباس وخاصة في المناطق الحدودية وذلك لغايات الأمن.

كما تشير الروايات إلى أن المسلمين كانوا على صلة مع أهل الذمة في حياتهم اليومية ولم يعيشوا منعزلين عنهم، فقد سكن المسلمون مع النصارى في دور واحدة. وعندما تولى سمرة بن فاتك[٤] الصحابي قسمة المساكن في دمشق بين أهلها بعد الفتح كان يترك الرومي في العلو

---

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م)، عيون الأخبار، ج١، القاهرة، الدار المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص٤٣. الأبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور، (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م) المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق إبراهيم صالح، ج١، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩. ص٣٥٣. متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي ريده، ج١، القاهرة، مكتبة الخانجي. بيروت، دار الكتاب. ط٤، ١٩٦٧، ص١٠٥.

(٢) الحيدر آبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص٥٢٠.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٧٧. ابن الأخوة، معالم القربة ص ص٤٠-٤١. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج٢، ص ص٦٥٩-٦٦٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٥٧. آل تقي الدين، محمد أديب بن محمد، منتخبات التواريخ لدمشق، ج١، تقديم كمال الصليبي، بيروت، منشورات دار الأفاق الحديثة، ١٩٧٩، ص٥٩. قلعجي، موسوعة فقه عمر، ص٤٠٨. ترتون، أ.س أهل الذمة في الإسلام ترجمه حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧، ص ص٢-٤. أرنولد، سيرتوماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، القاهرة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠، ص ص٧٥-٧٦.

(٤) سمرة بن فاتك يقال سبرة بن فاتك أخو خريم بن فاتك، شهد فتح دمشق، روى عن النبي ﷺ. ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٦، ص٦٤-٦٥.

والمسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي. [١] كما كانت لهم أسواق واحدة شريطة أن لا يبيعوا الخمر والخنزير فيها. [٢] وفي بيت لحم وفي الحنية التي اتخذها عمر بن الخطاب مسجداً ل لمسلمين جعل على النصارى أسراجها وعمارتها وتنظيفها. [٣]

- أهل الذمة في العصر الأموي:

حظي أهل الذمة في العصر الأموي بقدر كبير من الحرية والتسامح مما مكنهم من ممارسة حياتهم الخاصة بحرية تامة وتولي الكثير منهم من الوظائف في الدولة. واسندت إليهم المناصب العديدة فقد توسع معاوية ٤٠-٦٠هـ/٦٦٠-٦٨٠م في إلحاق النصارى بخدمته وكان يكتب له على ديوان الخراج بالشام كاتبٌ نصراني هو سرجون بن منصور الرومي الذي كان صاحب أمره. واحتكر سرجون وابنه منصور من بعده هذا المنصب سنين طويلة في الدولة الأموية[٤]. كما كان أطباء معاوية أيضاً من النصارى كابن آثال الذي اصطفاه لنفسه وأحسن إليه وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلاً ونهاراً فكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة .. وكان يقربه معاوية لذلك كثيراً[٥]. ويقال أنه ولاه جباة خراج حمص[٦]. كذلك استطب معاوية أبا الحكم النصراني واعتمد عليه في تركيبات الأدوية. ولما ولي ابنه يزيد إمارة الحج في بعض السنوات أرسل معه أبا الحكم مطبباً له[٧].

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٦، ص٦٤. خريسات، محمد عبدالقادر، التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي في بلاد الشام، المؤتمر الدولي الخامس لبلاد الشام، ١٩٩٠، ص٦.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٤٩.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٢٥.

(٤) المسعودي، علي بن الحسين (ت٣٤٥هـ/٩٥٦م)، التنبيه والإشراف، طبعة منقحة بإشراف لجنة التأليف والإشراف، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨١. ص٢٦١. ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف دقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ج٤، ص٣٧٢. المقريزي، أحمد بن علي (ت٨٥٤هـ/١١٤٥م)، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨، ج١، ص٣٨٣.

(٥) ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم، (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٦٥، ص١٧١.

(٦) الجهشياري، محمد بن عبدوس، (ت٣٣١هـ/٩٤٢م)، كتاب الوزراء والكتاب، تقديم حسن الزين، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨، ص٢٣. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥، ص٨٠. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧١. ترتون، أهل الذمة، ص١٤.

(٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٥.

وسار يزيد بن معاوية ٦٠-٦٣هـ/٦٨٠-٦٨٤م على سياسة أبيه نفسها فاصطفى لمنادمته سرجون الرومي كاتب أبيه[١]. وكان ماسرجويه اليهودي طبيبا لمروان بن الحكم ٦٤-٦٥هـ/٦٨٤-٦٨٥م وترجم له كتابا في الطب من السريانية إلى العربية للقس أهرن بن أعين وله كتاب في الأطعمة وكتاب العقاقير[٢]. وكان يكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصراني[٣]. وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان ٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م يناس بن خمايا من أهل الرها وكان غالبا عليه[٤]. ولم يكن تعريب الدواوين يعني عدم استخدام الكتاب النصارى فقد أورد ابن العبري في كتابه أن عبد الملك منع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية[٥]. وهذا دليل على أن الذين يجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم فكان سرجون ابن منصور الرومي كاتبا له[٦]. كما أوكل سليمان بن عبد الملك ٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م، عندما أخذ في إنشاء مدينة الرملة أثناء ولايته على فلسطين أمر الإنفاق على مرافقها من شق القنوات وحفر الآبار وبناء المسجد الجامع بها إلى كاتبة النصراني وهو البطريق ابن النكا من أهل فلسطين[٧]. وكان القديس يوحنا الدمشقي (ت١٣٨هـ/٧٥٦م)، الذي كان يجيد اليونانية والآرامية والعربية ملازما ليزيد بن عبد الملك ١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م. وعمل بالإدارة زمنا طويلا اعتزلها في بداية حكم هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م[٨]. وكان من كتاب هشام بن عبد الملك تاذري بن أسطين فقلده ديوان حمص[٩].

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٥.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢١٢-٢١٣. ابن العبري، غريغوريوس الملطي، (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، د.م، د.ن. ص١١١.

(٣) الجهشياري، الوزراء، ص٢٧. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٩.

(٤) الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٨.

(٥) ابن العبري، المصدر السابق، ص١٩٤.

(٦) المسعودي، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٧) البلاذري، فتوح، ص١٤٩. الجهشياري، المصدر السابق، ص٣٥. المسعودي، المصدر السابق، ص٢٧٥. ترتون، أهل الذمة، ص١٨.

(٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٨٠. حتي، تاريخ سورية ، ج٢، ص١٦٦. الدبس، المطران يوسف إلياس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٥، بيروت، المطبعة العمومية، ١٨٩٣-١٩٠٥م. ص٢٦٦.

(٩) الجهشياري، الوزراء، ص٤٣.

فالأمويون استعانوا بالذميين في الوظائف المالية والكتابية للإفادة من خبرتهم الإدارية في بداية الأمر(١). إذ ظلت الرومية هي اللغة السائدة في الدواوين في بلاد الشام حتى فترة ولاية عبد الملك بن مروان(٢). ويبدو أن كثرة استخدام أهل الذمة في الوظائف مع خبرة العرب الإدارية وتعريب الدواوين ولدت بعض النقد كما أن العلاقة مع البيزنطيين أدت أحياناً إلى محاذير سياسية هذا بالإضافة إلى وجود النظرة بأن لا يتسلط غير المسلمين على المسلمين ولعل ذلك كله يفسر البدايات في وضع الحدود(٣). وهذا ما نراه في إجراءات عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٨-٧٢٠م). إذ بعث برسالة إلى ولاته طلب فيها أن لا يولوا أمور المسلمين أحداً من أهل الذمة منعاً لاستطالتهم عليهم وأبدى بعض القلق من آثار ذلك(٤). لكن أثر ذلك كان مؤقتاً وظل استخدام أهل الذمة واسعاً من بعده.

كما حافظ خلفاء بني أمية على دور عبادة الذميين وفقاً لما ورد في العهود المختلفة فعندما هدمت الزلازل جانباً من بيعة الرها الكبرى أمر معاوية بترميمها وإعادتها إلى سابق عهدها(٥). وعندما ضاق الجامع بدمشق بالمسلمين رأى معاوية زيادة كنيسة يوحنا إليه لكن النصارى أبو فأمسك عن ذلك. وبذل لهم الخليفة عبد الملك ٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م. مالاً كثيراً لكي يتخلوا عنها فرفضوا(٦). فلما كان عهد الوليد بن عبد الملك ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م عرض عليهم أن يبني لهم كنيسة حيث شاءوا بدمشق وإن شاءوا دفع ثمناً لهم وضاعف لهم الثمن وعندما رفضوا هددهم بأن يهدم كنيسة توما لأنها لم تكن داخلة في عهد الصلح. فقبلوا ما عرض عليهم الوليد من إبقاء الكنائس التي لم يشملها الصلح بأيديهم مضافة إليها كنيسة توما على أن يطيبوا له نفساً بالتنازل عن الجزء الذي يخصهم في كنيسة يوحنا(٧). وفي رواية ابن شداد أن الوليد أخذ كنيسة

---

(١) حتي، تاريخ سورية ، ج٢، ص٢٢.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٩٦. ابن العبري، مختصر الدول، ص١٩٤.

(٣) الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، بحث منشور في القضية الفلسطينية، الأمانة العامة لاتحاد الجامعات العربية، ١٩٨٣، ج٢، ص٨٦.

(٤) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن (ت٢٥٧هـ/٨٧٠م)، سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٧، ص١٥٩.

(٥) ترتون، أهل الذمة، ص٤١. Theophanes, The chronicle, P. 54.

(٦) البلاذري، فتوح، ص١٣١. قدامة، الخراج، ص٢٩٤. ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٢، ق١، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٦، ص٥١.

(٧) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٢٠١.

يوحنا وأعطاهم مقابل ذلك أربع كنائس[١]. وعندما أبى الفعلة النصارى هدمها لم يجبرهم على ذلك وإنما طلب من اليهود هدمها بعد أن بدأ هو ومن معه من وجوه البلد ذلك.[٢]

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما فعله الوليد بكنيستهم فكتب إلى عامله يأمره بالاستفسار عن هذا الأمر فأقبل الفقهاء على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فسرّه وأرضاه[٣]. كما استرد لهم عدة بيع كان الخليفة معاوية أقطعها لبني النصر في مدينة دمشق[٤]. وأمر عماله بألا يقدموا على هدم شيء من الكنائس وبيوت النار وأن لا يأذنوا بإقامة أخريات جديدة.[٥]

وتشير المصادر إلى أن بعض الأديرة في بلاد الشام كانت في العصر الأموي متنزهات جميلة تجذب إليها الزوار وعابري السبيل لا سيما من الخلفاء والأمراء وحاشيتهم، كدير مران بظاهر دمشق الذي كان الخليفة يزيد بن معاوية قد اتخذه متنزهاً له[٦]. ودير البخت (الإبل الخراسانية) وقد سمي بذلك لوجود بخت لعبد الملك بن مروان كانت هناك[٧]. ودير يونا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق الذي أقام به الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦هـ / ٧٤٢ - ٧٤٣م) يوماً[٨].

أما بالنسبة إلى ما ذكره ثيوفانس في أن الخليفة يزيد بن عبد الملك ١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م أمر بكسر الأصنام والتماثيل ومحو الصور والأيقونات من الكنائس. وكان ذلك بسبب

---

(١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق١، ص٥٥.

(٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٢٠٢.

(٣) البلاذري، فتوح، ص١٣٢. قدامة، الخراج، ص٢٩٥.

(٤) البلاذري، المصدر السابق، ص١٣٠.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص٥٧٢.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٣٣-٥٣٤. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله، (ت٧٥٩هـ/١٣٤٨م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، تحقيق أحمد زكي باشا القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٤، ص٣٥٣.

(٧) الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ/٩٩٨م) كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٥١. ص١٣٧.

(٨) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة. ج٢، ق١، ص٢٧٩، ٢٨١. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص٥٠٢.

إقناع أحد السحرة اليهود للخليفة[١]. فأن عالم الآثار غازي بيشه ينفي هذا القول ويقول أن تخريب الصور والتماثيل داخل الكنائس تم بواسطة المسيحيين أنفسهم لإنتشار حركة اللايقونية (Iconoclasm) بينهم، وذلك بناء على ما اكتشف في كنيسة أم الرصاص في مآدبا عام ١٩٨٦. إذ تم تحوير الصور الأدمية الموجودة فيها بطريقة فنية ومتقنة، وبالإضافة إلى ما تحتويه الرواية من سذاجة واضحة، فإن المصادر العربية المبكرة كمؤلفات البلاذري والطبري واليعقوبي والمسعودي لم تشر إلى مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك ولو كان مرسوم الخليفة يزيد صحيحاً كان بالأحرى به أن يقوم بتدمير وإزالة مناظر الصيد والاستحمام التي تزين جدران قصير عمره المكان الذي نشأ فيه يزيد وقضى فيه جل حياته[٢].

كما أصدر الخليفة عمر بن عبد العزيز مرسوماً يأمر فيه بعدم السماح لأهل الذمة بإظهار الصلبان. وعدم الركوب على السروج وعدم السماح لهم بلبس قباء أو ثوب خز، وأمرهم بشد المناطق (الزنانير) على أوساطهم، وقص شعورهم وعدم إطالته، ومنعهم من حمل السلاح ومن وجد في بيته سلاحاً أخذ أو (انتهب). [٣] ومن المرجح انه اتخذ مثل هذه الإجراءات التمييزية في المناطق المجاورة للدولة البيزنطية وذلك لتمييزهم عن المسلمين هناك خوفا من وجود الجواسيس بينهم، بينما سمح الوليد بن عبدالملك للنصارى الجراجمة بارتداء ملابس المسلمين[٤].

---

(1) Theophenes, The chronicle, P.93

بدأت حركة " اللايقونية (Iconoclasm) في الدولة البيزنطية ففي سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م أمر الأمبراطور ليو الأيسوري ٧١٧-٧٤١م بإزالة صورة السيد المسيح من فوق البوابة الرئيسية للقصر الأمبراطوري وفي سنة ٧٣٠م أصدر مرسوماً رسمياً يقضي باتباع سياسة مناوئة للصور المقدسة.

Theophanes, Ibid. P. 98.

عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١. ص١٠١. بيشه، غازي، مناهضة الصورة وتشويهها في الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في أم الرصاص وماعين. المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ١٣٢-٤٥١هـ/٧٥٠-١٠٥٩م، ١٩٩٠، ص٢.

(٢) بيشة، المرجع السابق، ص٣.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧-١٢٨. ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، (ت٥٩٧ هـ/١٢٠٠م)، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز. ضبط وشرح نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٤. ص ١٦٩. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز. ص١٣٦. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٨٥.

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٦٥.

وقد اتخذ بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين من هذه الإجراءات التنظيمية هدفاً للهجوم على عمر بن عبدالعزيز ووصفه بالخليفة المتعصب[١]. ومنهم من اتهمه بإجبار المسيحيين للتحول إلى الإسلام ومن كان يرفض منهم يأمر بقتله[٢].

لكن الواقع ورغم هذه الإجراءات الشكلية التي اتخذها عمر تجاهم فقد امتاز عهده القصير بالتسامح مع أهل الذمة وحسن المعاملة ويكفي أنه أمر بإسقاط الجزية عمن أسلم منهم عندما اشتكى عماله بأن أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام وكسروا الجزية فقال قولته الشهيرة "إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً..."[٣] فأصدر مرسوماً إلى جميع عماله "بأنه لا خراج على من أسلم من أهل الأرض"[٤]. كما أمر عماله بألا يقدموا على هدم شيء من كنائسهم ولا بيعهم ولا من بيوت النار وعدم إلحاق الضرر بهم. وأكد العدل في المعاملة، وحاول إيقاف تجاوزات بعض العمال[٥].

ومن ذلك أيضاً أن عمر جعل صدقات بني تغلب في النصارى من فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال[٦].

---

(١) جولد تسهير، أجناس، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمه محمد يوسف موسى وآخرون. القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٤٦. ص٣٨

Ye'or, Bat, The Dhimmi: Jews and Christian under Islam, translated from French by David Maisl and others, Rutherford: Fairleigh Dickinson University Press, 1985. P. 169.

Hirschler Pal, The Social Isolation of Ahl Adh-Dimma, Memorial Book, Budepest, 1949. P. 82. In Eliyahu Ashtor, (ed.), The Medieval Near East: Social and Economic History, London: Variorum Press, 1948.

Shorter Ency ... of Islam, P440.

(2) Theophenes, The chronicle, P. 91.

(٣) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، مج٥، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠، ص٣٨٤.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك. ج٦، ص٥٦٩.

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ج٦، ص٥٧٢. ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص١٣٧، ١٦١. الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٣٤.

(٦) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص١٠٦.

كما حافظ على ممتلكات أهل الذمة ودفع الظلم عنهم إذا ما وقع عليهم من أحد من المسلمين، فقد استرد لذمي من أهل حمص أرضه بعد أن غصبها منه العباس بن الوليد بن عبد الملك[١]. كما استرد لهم بيعاً كان الخليفة معاوية اقتطعها لبني النصر في دمشق[٢].

فعمر بن عبد العزيز كان مسلماً متحمساً يحاول أن يضع إجراءاته التنظيمية في إطار المفاهيم الإسلامية للحفاظ على النظام العام للدولة. حين رفع الجزية عن المسلمين، وحين اعتبر الخراج إيجاراً لأرض موقوفة على الأمة لا يجوز التجاوز عليه[٣]. وأيضاً حين ألزم أهل الذمة بلباس خاص بهم لتمييزهم عن المسلمين وذلك حفاظا على أمن ونظام الدولة.

أما بالنسبة لموقف الخلفاء الأمويين من رؤساء الطوائف الدينية، فمن المعروف أنه عندما فتح المسلمون بلاد الشام كان النصارى اليعاقبة[٤] واليهود أكبر الأعوان لهم وأسرعهم إلى مساعدتهم ودلالاتهم على عورات العدو لتمكينهم من فتح المدن والأمصار للانتقام من مظالم الروم[٥]. فمن البديهي في مثل هذه الحال أن ينظر المسلمون إلى اليعاقبة بعين غير التي كانوا ينظرون بها إلى الملكيين[٦] أتباع أعدائهم الروم. واستقر هذا الاعتقاد في نفوس المسلمين ورسخ في أذهانهم لكثرة الحروب واتصالها بينهم وبين البيزنطيين[٧]. فقد أطلق الخلفاء الأمويون لليعاقبة الحرية في اختيار بطاركتهم ورجال كنيستهم واختص هؤلاء البطاركة بالكرامة والحظوة

---

(١) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبدالعزيز، ص١٢٦.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٣٠.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٧٦، ٣٨٤. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص٥٦٩. الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٣٤.

(٤) اليعاقبة: هم القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح أي أن المسيح هو الله بشكل إنسان. وعرفوا بالمونوفيزتين (Monophsite) ودعاهم خصومهم باليعاقبة نسبة إلى يعقوب بطرك كنيسة الاسكندرية. القلقشندي، احمد بن علي، (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ج١٣، ص٢٨١. وانظر أيضاً الفصل الثاني من هذا البحث.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٩. البلاذري، فتوح، ص١٣٧، ١٤٣.

(٦) الملكيون أو الملكية أو الملكانية، وهم القائلون بأن للمسيح طبيعتين وجوهرين ومشيئين اتحدت في اقنوم واحد وقوام إلهي واحد أي ان المسيح هو الله وإنسان في آن واحد. وقد لقبهم مخالفوهم بالملكيين من كلمة ملكا السريانية وتعني الملك لوقوفهم إلى جانب الملك البيزنطي مرقيان ٤٥٠-٤٥٧م . القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٩. وانظر أيضاً الفصل الثاني من هذا البحث.

(٧) الزيات، حبيب، الروم الملكيون في الإسلام، ج١، لبنان، المطبعة البوليسية، ١٩٥٣، ص٢٦.

في حين كان الملكيون محرومين من هذا الحق حذراً من قيام الغرباء بينهم[١]. إلى أن تمكن الراهب اسطفان في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك من توليه منصب البطريركية الأنطاكية ١٢٤-١٢٥هـ/٧٤٢-٧٤٣م. بعد شغورها مدة تزيد على أربعين سنة وقد فرض عليهم اسطفان لأنه كان عزيزاً على الخليفة هشام[٢]. ويظهر أن بطاركة بيت المقدس (الملكيين) عادوا إلى كراسيهم واستقر أولهم بعد صفرونيوس (Sophronious) ٦٣٤-٦٣٨م في زمن الوليد بن عبد الملك وهو البطرك أناستاسيوس الثاني (Anastasius) ٦٩١-٧٠٦م[٣] وبالرغم من ذلك الشك الذي كان يساور نفوس الخلفاء من الملكيين فإن اليعاقبة ظلوا منقسمين أحزاباً في داخلهم ولولا هذا الانقسام لحصلوا على امتيازات أكبر. [٤]

هذا وقد استمر السماح في العصر الأموي في اشتراك بعض العناصر من الذميين في جيوشها، فقد صالح حبيب بن مسلمة الفهري عندما وجهه أبو عبيدة لاستكمال حركة الفتوح في شمال الشام الجرجومة على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام شريطة ألا يؤخذوا بالجزية وأن يكون لهم في حال اشتراكهم في الغزو أسلاب من يقتلونهم من أعداء المسلمين[٥]. وقد جدد معهم هذا الاتفاق مسلمة بعد أن نقضوه في عهد الخليفة عبد الملك عندما غزا ديارهم في سنة ٨٩هـ/٧٠٨م فاستسلموا له على أن يجلوا عن ديارهم وينزلوا حيث أحبوا من بلاد الشام. وأن يجري على كل واحد منهم ثمانية دنانير وعلى عيالاتهم مدان من القمح وقسطان من الزيت وعلى أن لا يكرهوا أحد من أولادهم أو نسائهم على ترك النصرانية وأن يلبسوا لباس المسلمين. ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية وعلى أن يغزو مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة ولا يؤخذ من تجارتهم إلا قدر ما يؤخذ من

---

(١) الزيات، الروم الملكيون، ص٢٩.

(2) Theophanes, The Chronicle, P. 107.

(3) Moshe,Gil, A history of Palestine 634-1099, Translated from the Hebrew by Ethel Broid, Cambridge: Cambridge University Press, 1992. P. 455.

(٤) المخلصي، الأب يوسف الشماس، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، صيدا، المطبعة المخلصية، ١٩٤٩، ج٢، ص٢٢.

(٥) البلاذري، فتوح، ص١٦٤.

المسـلمين.(١) كذلك استخدم هشام بن عبد الملك جماعة من الجراجمة مع المسلمين في المرابطـة بحصن الموره(٢) في مناطق الثغور بينه وبين الدولة البيزنطية(٣).

كما يذكر ثيوفانس أنه في العـام ٤٥هـ/٦٦٥م. نشـب صـراع بيـن الأمويين والبـيزنطيين كانت نتيجته انتقال المقاتلين الصقالبة الذين كانوا يحاربون ضمن القـوات البيزنطيـة إلـى الجـانب العربي. وذهاب خمسة آلاف منهم مع الجيش الأموي إلى بلاد الشـام حيث أقرهم الأمويـون فـي منطقة سليوكوبولوس (Selukobolos) وهي سلوقية قرب أفامية(٤). كما ويذكر أيضاً أنه في العـام ٧٤هـ/٦٩٤م هاجم المسلمون رومانيا وكان الصقالبة معهم في المعركة وبسبب درايتـهم بـأرض البيزنطيين تحقق النصر للعرب(٥).

وقد مارس أهل الذمة كافة نشاطاتهم الحياتية في شتى المجالات الرسمية وغير الرسـمية. فقد ظلت المدارس السريانية مفتوحة كما كانت في السابق وكان أولاد المسـلمين يتعلمـون العلـوم اليونانية على أيدي رجال الدين من النصـارى فقد آثر عـن يعقـوب الرهـاوي ٢٠-٩٠هـ/٦٤٠-٧٠٨م أنه أفتى لرجال الدين النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم العالي وهذه الفتوى تدل من غير شك على إقبال بعض المسلمين في ذلك العصر على التعليم والدراسة وتـردد النصارى أولاً في تعليمهم(٦). فقد كان خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ/٧٠٤م) من أعلم قريش بفنون العلم. وله كلام في صنعة الكيمياء والطب والنجوم وأخذ الصنعة من أحد الرهبان يقـال لـه مريانس(٧). أضف إلى ذلك أن المجادلات اللاهوتية بين الكنائس اختفت تقريباً فـي بدايـة العصـر الأموي وحلت محلها دراسات فلسفية وتاريخية وأخذت الأدبيات تهدف إلى الدفاع بشكل ظاهر أو

---

(١) البلاذري، فتوح، ص١٦٤-١٦٥.

(٢) الموره: ذكره ياقوت باسم مَوْزار وقال عنه إنه حصن ببلاد الروم استجد عمارتـه هشـام بـن عبـد الملـك. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٢١.

(٣) البلاذري، المصدر السابق، ص١٧١.

(4) Theophanes, The Chronicle, P. 48.

عبد الوهاب، لطفي، حولية ثيوفانس، مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأمـوي. المؤتمـر الدولـي الرابـع لتاريخ بلاد الشام، ١٩٨٧. ص٢٣.

(5) Theophanes, Op.Cit, P. 65.

(٦) أمين، أحمد، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١٠، ١٩٦٩، ص١٣٢. وسيشار لـه فيمـا بعـد هكذا. أمين، فجر الإسلام.

(٧) النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقـوب، (ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م)، الفهرست، تحقيق رضـا تجـدد، طـهران، ١٩٧١، ص٤١٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٢٤.

خفي عن الديانة المسيحية أمام الديانة الإسلامية[١]. وكان أبرز من دافع عن المسيحية القديس يوحنا الدمشقي وقد ألف رسالة على هذا النحو. "إذا قال لك العربي كذا فأجبه بكذا"[٢]، وكان يوحنا هذا من أشهر الذين أسهموا في حركة الترجمة في العصر الأموي وكان يجيد اليونانية والآرامية والعربية وألف عدد من الروائع الأدبية من أهمها كتاب "ينبوع الحكمة" ولعل مادته مستوحاة من المناظرات التي كانت تجري في قصر الخليفة[٣].

وبرز في العصر الأموي عدد من شعراء النصارى مثل الشاعر غياث بن غوث)الأخطل) [٤]، الذي كان شاعراً لبني أمية وقال عنه عبد الملك بن مروان أن لكل قوم شاعراً وأن شاعر بني أمية الأخطل. وتميز الأخطل بجودة شعره ومتانته وغزارته واتخذه الأمويون كبير شعرائهم. (توفي سنة ٩٠هـ/٧٠٥م) [٥]. وكذلك أعشى بني تغلب وهو ربيعة بن يحيى بن معاوية الذي عاش في عهد الوليد بن عبد الملك ولعلو مرتبته حظي عند خلفاء بني أمية وكان من أعيان زمانه. (توفي سنة ٩٢هـ /٧١٠م) ومات على النصرانية[٦]

وأول إشارة إلى تعديل الجزية في العصر الأموي تعود إلى زمن معاوية إذ يذكر البلاذري أن معاوية نظر في جزية أهل الرقة وكانت كبقية مدن الجزيرة ديناراً ومقادير من القمح والزيت والخل والعسل فجعلها جزية عليهم[٧]. أي بمعنى أنه جعلها نقداً ولم تذكر الرواية مقدار الجزية ولا حقيقة كونها متدرجة أو موحدة. إلى أن جاء عبد الملك وأعاد النظر في الضرائب في الجزيرة والشام، بعد أن أجرى مسحاً شاملاً للمنطقة، وتقرر جعل الجزية أربعة

---

(١) عطية، جورج، الجدل الديني المسيحي في العصر الأموي وأثره في نشوء علم الكلام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مج١، عمان، ١٩٨٩، ص٤٠٩.

(٢) أمين، فجر الإسلام، ص١٣٤.

(٣) حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٦٦. الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٥، ص٢٦٦-٢٦٧. عطية. الجدل الديني، ص٤١٠.

(٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٥، ص٢٨٠-٢٨٢. ، الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٧٩، ص١٢٣. قنواتي، جورج، المسيحية والحضارة الإسلامية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٤، ١٩٨٤، ص١٣٣.

(٥) الأصفهاني، الأغاني، ج٨، ص٢٩٤.

(٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١١، بيروت، دار المستشرق، ص١٣٢. الزركلي، الأعلام، ج٣، ص١٧. قنواتي، المسيحية، ص١٣١.

(٧) البلاذري، المصدر السابق ، ص١٧٨.

دنانير، وأضيفت إلى الضريبة النوعية على الأرض ضريبة نقدية. ويوضح أبو يوسف حقيقة هذا الإجراء خلال حديثه عن الإجراءات الضريبية التي اتبعت في الجزيرة والتي طبقت بالشام أيضاً. فيقول: "فلما ولي عبد الملك بن مروان، بعث الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري[١]، فاستقل ما يؤخذ منهم فأحصى الجماجم وجعل الناس (أي اعتبرهم) كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما كان يكسب العامل سنته كلها ثم طرح من ذلك نفقته في طعامه وأدمه وكسوته وحذائه، وطرح أيام الأعياد في السنة كلها فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم جميعاً وجعلهم طبقة واحدة. وكان قبل ذلك الوقت على كل جمجمة ديناراً ومدين قمحاً وقسطين زيتاً وقسطين خلاً. ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل ألف أصل كرم مما قرب ديناراً. وعلى كل ألفي أصل مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً. وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم أو اليومين وأكثر من ذلك وما دون اليوم فهو في القرب"[٢].

وقد اعتبر الدوري التقدير الجديد ليس هي ضريبة الخراج لأنها متواضعة بل هي إضافة نقدية على أرض الخراج وعلى الغلات الرئيسية الثلاث الكرمة والزيتون والحنطة بالاستناد إلى عبارة "أبو يوسف "وحمل الأموال" وذلك من أجل زيادة كمية الخراج بعد تراجعه نتيجة اختفاء الصوافي وشراء الأرض الخراجية. [٣]

ويعتبر ديونسيوس التلمحري هذا التعديل هو أصل الجزية فيقول "في سنة ٦٩١-٦٩٢م قام عبد الملك بالتعديل، وأصدر مرسوماً قاسياً يأمر كل رجل أن يرجع إلى بلده وإلى قريته الأصلية ويسجل هناك اسمه واسم أبيه وكرمه وأشجار الزيتون لديه وأمواله وأولاده وكل ما يملك، وهذا أصل الجزية ومصدر كل الشرور التي عمت المسيحيين، فحتى ذلك الوقت اخذ

---

(١) الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري: الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب ويقال عرزم: من أهل الأردن، استعمله عمر بن عبد العزيز على دمشق، روى عن أبي موسى وأبي هريرة وعبد الرحمن بن غنم. وروى عنه مكحول والأوزاعي. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٤، ص٢٧٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م) كتاب الوافي بالوفيات ج١٦، باعتناء وداد القاضي، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٨٢، ص٣٥٥.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص٤١. الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٣٢.

(٣) الدوري، نظام الضرائب في صدر الإسلام، ملاحظات وتقييم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، السنة ٤٩، ج٢، نيسان، إبريل، ١٣٤٩هـ/١٩٧٤م. ص٥٤.

الملوك الضريبة من الأرض لا من الرجال وفي هذا التاريخ بدأ أبناء هاجر يفرضون العبودية على أبناء آدم وكان هذا أول تعديل قام به العرب"(١).

ثم جاء عمر بن عبد العزيز فحاول إعادة تنظيم الضرائب وتحديد مفاهيمها، فأكد أن الإسلام يعفي من الجزية مهما يكن أثر ذلك على الوارد. وأكد أن الأرض الخراجية ملك للأمة ووقف عليها. فقال "فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم فخالط عم المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه. غير أن أرضه وداره إنما هي فيء الله على المسلمين كافة(٢). وحدد سنة ١٠٠هـ/١٨٧م نقطة البدء في تطبيق قراره (٣).

ونجح عمر بن عبد العزيز في إجراءاته لأنه وضعها في إطار المفاهيم الإسلامية حين رفع الجزية عن المسلمين وحين اعتبر الخراج إيجاراً لأرض موقوفة عن الأمة لا يجوز تجاوزه . هذا وقد ثبتت الخطوط التي رسمها اسس تحديد الضرائب ووضحت مفاهيمها(٤) فقد شكا إليه أهل نجران فناءهم ونقصانهم فأمر بإحصائهم فوجدوا على العشر من عدتهم الأولى فخفف عنهم لأنه لا جزيه على ميت أو مسلم فألزمهم مائتي حله قيمتها ثمانية الآف درهم(٥) ولكن في عهد الوليد بن يزيد ردهم إلى أمرهم الأول الف حلة في صفر وألف حله في رجب كل حله أوقية فضة (الأوقية ٤٠ درهم) (٦)

---

(١) التلمحري، ديونوسيوس، (القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي)، التاريخ المنحول، ترجمة اسحق يوسف متى،بيروت الجامعة الأميركية، ١٩٧٩، ص٢٣.. والجدير بالذكر أن هذا التعديل لم يكن أول تعديل قام به العرب فقد ذكر ثيوفانس أن عمر قام في سنة ٦٣٩-٦٤٠م بإجراء إحصاء شمل الرجال والحيوانات والمنتوجات الزراعية.

Theophanes, The Chronicle, P. 40.

(٢) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٧٩. ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٧٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٨.

(٤) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٣٤.

(٥) البلاذري، فتوح، ص٧٨. بالنسبة لأهل نجران، فإنه لما استخلف عمر أجلاهم عن نجران اليمن، وتفرقوا فنزل بعضهم الشام ونزل بعضهم بناحية الكوفة واشترى عمر عقاراتهم وأموالهم وكان صاحب النجرانية في الكوفة يرسل رسله إلى جميع من بالشام فيجبي منهم الأموال على ما صالحهم عليه الرسول صلى الله عليه وسلم . البلاذري، المصدر السابق ، ص٧٨.

(٦) البلاذري، فتوح، ص٧٨.

ومن جهة أخرى أكدّ عمر العدل في المعاملة وحاول إيقاف تجاوزات بعض العمال وإلغاء بعض الضرائب الإضافية التي شاعت في الأقطار. فقد كتب كتاباً على عماله يقرأ على الناس جاء فيه: "أما بعد فاقرأ كتابي هذا على أهل الأرض بما دفع الله عنهم على لسان أمير المؤمنين من المظالم والتوابع التي كانت تؤخذ منهم في النيروز والمهرجان وثمن الصحف وأجر الفيوج وجوائز الرسل وأجور الجهابذة وهم القساطرة (اللفظ الشامي[١]) وأرزاق العمال وإنزالهم وصرف الدنانير التي كانت تؤخذ منهم من فضل ما بين السعرين في الطعام الذي يؤخذ منهم فقل ما بين الكيلين، وليحمدوا الله عز وجل"[٢].

وهذا التعميم يشير إلى المظالم التي كانت منتشرة في البلاد ودعا الخليفة إلى إلغائها نهائياً دون تعديل كهدايا النيروز والمهرجان. إذ يحدد المهرجان والنيروز بداية فصلين في السنة، فالمهرجان عند الفرس دخول الشتاء وبداية فصل البرد، والنيروز دخول فصل الحر وفي النيروز أحوال ليست في المهرجان كاستقبال السنة وافتتاح الخراج وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت النار وصب الماء وتقريب القربان[٣]. وجرت العادة أن تقدم الهدايا في النيروز والمهرجان والعادة عندهم أن يُهدي الرجل ما يحب فإذا كان يحب المسك أهدى مسكاً وإذا كان من أهل الحرب والشجاعة أهدى فرساً أو رمحاً[٤]. وقيل عنه و"هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العبيد للسادة"[٥]. واستمر تقديم هدايا النيروز والمهرجان في العصور الإسلامية، وقد نهى سيدنا عثمان عنها إثر تذمر الناس منها[٦]. وقدمت الهدايا إلى معاوية في تلك الأعياد فكان مجموع ما قدم إليه عشرة آلاف ألف درهم. وجعلها إلزامية على أهل الخراج[٧]. ومن هنا جاءت الإشارات باعتبار معاوية أول من أعاد النيروز والمهرجان في الإسلام. وجاءت الخطوة الثانية على يد الحجاج بن

---

(١) القساطرة: من قسطر والقسطري والقسطار، منتقد الدراهم، الجهبذ بلغة أهل الشام وهم القساطرة. ابن منظور، لسان العرب، مج٥، ص٩٣.

(٢) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٦١، ١٣٧. الدوري، الضرائب في السواد في العصر الأموي، في بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين، عمان، ١٩٨٨، ص٥١.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)، التاج في أخلاق الملوك (منسوب إليه)، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٤، ص١٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٦.

(٥) الأبشيهي، المستطرف، ج٢، ص٣١١.

(٦) الصولي، أدب الكاتب، ص٢٢٠.

(٧) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٢١٨.

يوسف الثقفي الذي اعتبرها ضريبة على الناس[١]. فلما جاء عمر بن عبد العزيز لم يكن له موقف خاص منها في البداية، ثم حدد موقفه من الهدايا فرأى إلغاءها وأمر بها معونة لأهل الخراج[٢]. ثم أعيدت زمن يزيد بن عبد الملك. دون تحديد طبيعتها أو طرق جبايتها ويقول اليعقوبي "وأعاد السخر والهدايا وما كان يؤخذ في النوروز"[٣].

ومن الرسوم الإضافية ثمن الصحف والقراطيس ويقصد بها ثمن الرقوق التي تستعمل للكتابة لقضاء مصالح الناس وقد كانت ثمينة، فمن يعطى رقاً مكتوباً لفائدته فعليه دفع ثمنه ولهذا دعا عمر بن عبد العزيز إلى الاقتصاد في استعمالها. وكتب إلى أحد ولاته "أدق قلمك وأقل كلامك تكتفي بما قبلك من القراطيس"[٤].

ويقصد بأجور الفيوج (جمع فيج وهي كلمة فارسية معربة) [٥] رسل العمال الذين ينقلون الكتب والرسائل من بلد إلى آخر[٦]. وكانت أجورهم تؤخذ من بيت المال[٧].

وتضمن التعميم الإشارة إلى رسوم أخرى إضافية فمنها جوائز الرسل وأجور الجهابذة وأرزاق العمال وإنزالهم وفضل ما بين السعرين والكيلين. وتعتبر جوائز الرسل قريبة من أجور الفيوج. إلا أنها ذات طابع اختياري بعكس الأجور التي تبدو مفروضة على دافعي الخراج[٨]. أما أجور الجهابذة فهي ما يأخذه الجهبذ بحق جهبذته ككاتب خراج وكان هذا الجهبذ معروفاً منذ زمن الساسانيين ويبدو أنه يرجع إلى عصر أقدم [٩]وكان آل أبو دلف العباديين جهابذة في الحيرة.[١٠]

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، كتاب الأوائل. ق٢، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٥، ص٣٣-٣٤.

(٢) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٨٨. اليعقوبي، المصدر السابق ، ج٢، ص٣٠٦.

(٣) اليعقوبي، المصدر السابق ، ج٢، ص٣١٣.

(٤) ابن الجوزي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص١١٩. الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، نثر الدر، ج٢، تحقيق محمد قرنة، مركز تحقيق التراث، ١٩٨١. ص١١٤.

(٥) الرحبي، عبد العزيز محمد (ت١١٨٤هـ/١٧٧٠م)، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، تحقيق أحمد الكبيسي، ج١، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٣، ص٥٨٥.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، ج٦، ص٥٦٩ هامش رقم (٧).

(٧) الرحبي، فقه الملوك، ص٥٨٥.

(٨) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٧. كاتبي، الخراج، ص١٧٨.

(٩) ابن رسته، الأعلاق النفسية، ص١٩٦. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري. مركز دراسات الوحدة العربية ط٢، ١٩٧٤، ص١٨٤-١٨٥.

(١٠) ابن رسته، المصدر السابق، ص٢٠٧

وفي العصر الأموي اتخذ الحجاج بن يوسف جهابذة لـه[١]. والمقصود برزق العامل هو عامل الخراج الذي أوكلت إليه الدولة مهمة الجباية ورزقه عادة من بيت المال[٢]. وإن طلب أهل الخراج تحمل هذا العبء وحدهم فلا يقبل منهم ذلك.[٣] والمقصود بكلمة إنزالهم ضيافة عمال الخراج وإطعامهم. سواء كان عن طريق تقديم الطعام وأشياء عينية أم المقصود بها الرسم النقدي الذي يستوفى من دافعي الضريبة وفي كلا الحالين فهي تشكل عبئاً إضافياً على دافعي الضريبة يتصرف بها عمال الجباية وأعوانهم فيجحفون بأهلها[٤].

وأشار التعميم إلى رسوم إضافية يدفعها المكلفون بدفع ضريبة الخراج بعضها نقدي، وهو فضل ما بين السعرين، وبعضها عيني، وهو فضل ما بين الكيلين. أما فضل ما بين السعرين فهو الصرف أيضاً أو ما يعرف بفضل الدرهم على الدرهم. وهو ما يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها في الخراج ذكرها أبو يوسف وقال: "فإنه بلغني أن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في خراجه فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وهذا صرفها"[٥]. تحوطاً من الخطأ في حساب الصرف وقريب من ذلك الطعام الذي يؤخذ من دافعي الضريبة. فضل ما بين الكيلين وقد أوضح أبو يوسف أيضاً هذه الزيادة أو الفضل تؤخذ احتساب حصول نقص ما بين الكيل الأول بعد الدياس، والكيل الثاني بعد الخزن. "وإذا ديس الطعام وذري قاسمهم ولا يكيله عليهم كيل بزيهاب ثم يدعه في البيادر الشهر والشهرين ثم يقاسمهم فيكيله ثانية فإن نقص عن الكيل الأول قال: أوفوني وأخذ منهم ما ليس له[٦].

ويظهر أن هذه الرسوم لم تلغ جمعيها. لكن ربما توقف التعامل ببعضها لفترة قصيرة، ثم عادت للظهور ثانية بعد وفاة عمر بن عبد العزيز.

وعلى أي حال فإن أهل الذمة عاشوا في العصر الأموي ينعمون بالتسامح ومراعاة حفظ الحقوق وإقرار العدل بينهم ويعترف ذلك بعض المستشرقين بذلك فيذكر رنسيمان "أن عهد الأمويين كان فترة رخاء لسورية وأن الخلفاء الأمويين اشتهروا بالكفاءة النادرة والتسامح الديني

---

(١) الصابي، أبو الحسن هلال بن محسن الصابي (ت٤٤٨هـ/١٠٩١م) الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء تحقيق عبد الستار فراج. دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨، ص١٧٨.

(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٩٣.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٧-١٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٩.

الشديد وأنه قد دخل إدارة القدس مسيحيون يتحدثون اليونانية .. ويتابع كلامه قائلاً : إن المسيحيين لم يكن لديهم ما يأسفون عليه نتيجة انتصار الإسلام. فعلى الرغم من المضايقات التي كانت تجري لفترة قصيرة. من حين إلى آخر فقد أصابوا من الثراء ما يزيد على ما كانوا عليه أيام الأباطرة المسيحيين الذين كانوا مهرطقين ظالمين للأرثوذوكس ولذلك ازدادت سعادة المسيحيين الأتقياء في ظل الحكم الإسلامي[١].

أما ول ديورانت فيقول: "لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزردشتيون واليهود والصابئون ينعمون في ظل الحكم الأموي بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم ولم يفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة عن كل شخص تختلف باختلاف دخله ..."[٢]

---

(١) رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨١، ج١، ص٤٤.

(٢) ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة التأليف والنشر، ط٢، ١٩٦٤، ج١٣، ص١٣٠.

الفصل الثاني

الدولة وأهل الذمـــة

الالتزامات المالية

رؤساء الطوائف الدينية

دور العبادة

الالتزامات المالية

- الجزية:

سادت جباية الضرائب في بلاد الشام في العصر العباسي على سنة عمر بن الخطاب. وقد أولى الخليفة هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م مسألة تنظيم الضرائب عناية خاصة. وأوكل إلى ابي يوسف قاضي القضاة أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك من الأمور الواجب النظر فيها والعمل بها لإصلاح أمر الرعية ورفع الظلم عنها[١]. فوضع له كتاباً في الخراج وأحكامه، اجتهد أبو يوسف في إخراجها بما يتوافق وأحكام الشرع الإسلامي مع بعض الاجتهادات التي اقتضتها ظروف العصر وتطوراته.

تضمن كتاب الخراج بنوداً عدة كان من أبرزها ضريبتي الجزية والخراج. فقد حدد فيه على من تجب الجزية ومقدارها. فقال: "الجزية واجبة على جميع أهل الذمة في السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران خاصة "[٢]. وتجب الجزية على الرجال منهم دون النساء والصبيان: على الموسر ثمانية وأربعين درهماً مثل الصيرفي والبزاز وصاحب الضيعة والتاجر والمعالج الطبيب وكل من كان بيده صناعة وتجارة يحترف بها أخذ من أهل كل صناعة وتجارة على قدر صناعتهم وتجارتهم فمن احتملت صناعته ثمانية وأربعين درهماً أخذ منه ذلك ومن احتملت أربعة وعشرون درهماً أخذ ذلك منه. واثنا عشر درهماً على المحتاج الحراث والعامل بيده مثل الخياط والصباغ والإسكاف والخراز[٣]. يؤخذ ذلك منهم في كل سنة وإن جاءوا بعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ويؤخذ منهم بالقيمة. ولا يؤخذ منهم في الجزية ميتة ولا خنزير[٤].

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٢، ١٢٣، ١٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢٢.

هذا النص لأبي يوسف يدل على أن الجزية كانت في العصر العباسي على قدر دخل الفرد وكسبه، وكان يدفعها الرجل القادر على العمل والكسب كما كان يسمح بدفع الجزية عيناً. كما كان يعفى من الجزية الشيوخ والأطفال والنساء والعجزة ورجال الدين المساكين الذين ليسوا من أهل اليسار[١]. وإذا أسلم الذمي بعد خروج السنة وجبت عليه الجزية وإن أسلم قبل تمام السنة بيوم أو يومين أو شهر او شهرين أو أكثر أو أقل لم يؤخذ بشيء من الجزية وإذا مات الذمي قبل أن تؤخذ منه لم يؤخذ بذلك ورثته ولم تؤخذ من تركته[٢].

كما حذر أبو يوسف الخليفة هارون الرشيد من عمال السوء ونصحه بأن يختار الجباة من المعروفين بالنزاهة والأمانة فقال له: "فإني أرى أن يصيره الإمام إلى رجل من أهل الصلاح في كل مصر ومن أهل الخير والثقة ممن يوثق بدينه وأمانته ويصير معه أعواناً يجمعون إليه أهل الأديان من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس فيأخذ منهم الجزية بالنسبة إلى طبقاتهم ثم يحملها الولاة مع الخراج إلى بيت المال لأنه فيء للمسلمين[٣].

وعلى الخليفة أن لا يدع واحداً من أهل الذمة ممن وجبت عليه الجزية إلا أخذها منه[٤]. كما كانت جزية القرية أحياناً تضمن من قبل أحد مترفيها أو رؤسائها بأن يدفع مقداراً معيناً للخزينة وله أن يجبي الجزية بعد ذلك، وقد نهى أبو يوسف عنها بقوله: "وإن قال صاحب القرية أنا أصالحكم عنهم وأعطيكم ذلك لم يجيبوه إلى ما سأل"[٥]. ويعلل ذلك بقوله " لعل صاحب القرية يصالحهم على خمسمائة درهم وفيها من أهل الذمة من إذا أخذت منهم الجزية بلغت ألف درهم أو أكثر، وهذا مما لا يحل ولا يسع مع ما ينال الخراج (الجزية) منه من النقصان لعله أن يجبي من بضيعته أهل الذمة فيصيب الواحد منهم أقل من أثني عشر درهماً ولا يحل أن ينقص من ذلك بل لعل فيهم من المياسير من تلزمة ثمانية واربعون درهماً ويحملها ولاة الخراج مع الخراج إلى بيت المال لأنه فيء للمسلمين"[٦].

---

(١) ابو يوسف، الخراج، ص١٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٢، ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٣، ١٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٥) المصدر نفسه، ص١٢٤.

(٦) المصدر نفسه، ص١٢٤.

وكان موعد جباية الجزية عادة في شهر محرم من كل سنة، حيث يأتي الشخص ويقف بين يدي صاحب الجوالي إلى أن توزن جزيته ويكتب له على الورق بذلك[١]. وترسل إلى ديوان الخراج إذ كانت الجزية من بين واردات ديوان الخراج، وكان هناك ديوان خراج مركزي في العاصمة ودواوين خراج محلية في أقاليم الدولة العباسية[٢].

كما كان على رئيس اليهود وبطريرك النصارى أن يكتبوا سنوياً إلى صاحب الجوالي قوائم عرفت بإسم الرقاع بأسماء المقيمين في البلاد من ابناء طوائفهم وقد عرفوا باسم "الرواتب"، وعرف الوافدون باسم "الطوارئ"، وكانت هذه الرقاع تحوي أيضا اسماء الصبية الذين لم يبلغوا الحلم وسموا " بالنوابت" ويتحدد في آخر الرقاع أسماء من اهتدى إلى الإسلام أو مات أو سافر واسم البلد الذي سافر إليه، وكانت تلك الرقاع بمثابة اقرار ممن صدرت عنه بصحة مضمونها[٣] .

وكان للشاميين في مصر وغيرها مكاتب خاصة يدفعون الجزية فيها ففي أحدى وثائق الجنيزة إشارة إلى معلم شامي كان يدرس في احدى قرى مصر فكان عليه أن يذهب كل عام إلى القاهرة لدفع ما عليه من ضريبة في مكتب الشاميين[٤] وفي حالة سفر الشخص لمدة طويلة كان أهله يتعهدون بدفع ما عليه من الجزية[٥].

ويبدو أن الخلفاء العباسيين حافظوا على عهود الخلفاء السابقين لأهل الذمة. فلما استخلف الخليفة السفاح ١٣٢هـ -١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٤م ظهر نصارى نجران في طريقه بالكوفة وألقوا

---

(١) ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، (ت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي)، الحوادث الجامعة والتجارب الناصعة في المائة السابعة، بيروت، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٩٨٧. ص١٣.

(٢) السامرائي، حسام الدين، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧-٣٣٤هـ/ ٨٦١-٩٤٥م. تقديم عبد العزيز الدوري، مكة المكرمة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م. ص١٩٥، ٢٠٦،٢٢٥.

(٣) النويري، الشهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٨، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت. ص٢٤١.

(4) Goitein , S.d, Amediterranean Society, Berkeley: University of California Press, 1976-1978. Vol 2. P385

Goitein , Studies In Islamic History and Institutions, Leiden : E.J. Brill, 2nd ed, 1968, P189.

(5) Goitein, Amediterraean Society, Vo2, P383.

عليه الريحان ونثروه وشكوا له ضعفهم وقلتهم فردهم أبو العباس إلى ما أقرهم عليه عمر بن عبد العزيز وهو مائتي حلة قيمتها ثمانية ألف درهم. وفي عهد الخليفة الرشيد أيضاً رفعوا إليه أمرهم وشكوا تعنت العمال إياهم، فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة، وأمر أن يعفوا من معاملة العمال وأن يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة[1].كما حافظ نصارى تغلب على امتيازاتهم الضريبية القديمة (الصدقة مضاعفة). فقد أورد ابن الأثير أن الخليفة هارون الرشيد، استعمل على صدقات تغلب روح بن صالح الهمداني[2].

كما اشتكى الجراجمة في أنطاكية للخليفة الواثق ٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤١-٨٤٦م من بعض عماله حيث ألزمهم بدفع جزية رؤوسهم فأمر الواثق بإسقاطها عنهم. ثم جاء الخليفة المتوكل وأمر بأخذ الجزية من هؤلاء الجراجمة وأن يجري عليهم الأرزاق إذ كانوا ممن يستعان بهم في المسالح وغير ذلك[3].

وقد بقيت الجزية على السامرة موحدة يدفع كل فرد منهم خمسة دنانير حتى عهد الخليفة المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م حين تظلم أهل قرية بيت ماما من كورة نابلس ويشكون ضعفهم وعجزهم فأمر بردهم إلى ثلاثة دنانير[4].

أما مسألة ختم رقاب أهل الذمة فقد أشار إليها أيضاً أبو يوسف بقوله: "وينبغي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها"[5].

---

(١) البلاذري، فتوح، ص٧٨-٧٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٢٨١.

(٣) البلاذري، المصدر السابق، ص١٦٦.

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٨٧.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧. قال حدثني كامل بن العلاء عن حبيب بن أبي ثابت أن عمر بن الخطاب عندما أرسل عثمان بن حنيف على مساحة أرض السواد ختم أعناق علوج السواد وكانوا خمسمائة ألف علج على الطبقات ثمانية وأربعون وأربع وعشرون، واثني عشر فلما فرغ من عرضهم دفعهم إلى الدهاقين وكسر الخواتيم. أبو يوسف. ص١٢٨. يفهم من هذا ان عملية الختم كانت عبارة عن تعليق حلقة معدنية تعلق في عنق الذمي أو يده ويكتب عليها اسم الشخص أثناء عملية جمع الجزية.

وقد أورد البلاذري أيضاً عن هذا وقال: حدثنا الوليد بن صالح عن الواقدي عن عبد الله بن عبد العزيز عن أيوب بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه أنه ختم عثمان بن حنيف في رقاب أعناق علوج السواد خمسمائة ألف وخمسين ألف علج. البلاذري، فتوح، ص٢٧٠.

ويعلق آدم متز على ما يعيبه بعض المستشرقين على المسلمين من أنهم كانوا يختمون على رقاب أهل الذمة عند دفع الجزية فيقول: "ويظهر أن هذا الأمر نادراً ما كان يقع، وهذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الأشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من القماش اسطوانية مكتوب عليها اسم العبد وسيده، كما أن اليهود في عهد التلموذ كانوا يعلمون عبيدهم بالختم على الرقبة والثوب[١].

كما يشير ترتون إلى ذلك بقوله: "إن ختم رقاب الذميين أمر مبالغ فيه تمام المبالغة ولم يكن يستعمل إلا عند جمع الجزية فحسب ومن الحق ألا نحمل العرب وزر هذا العيب إذ لم يكونوا فيه البادئين ولا المبتدعين بل كانوا مقلدين لما اصطنعه البيزنطيون قبلهم. ففي سنة ٥١٠م ذهب حاكم الرها دموستنس (Demosthnes) إلى الإمبراطور البيزنطي أنسطسيوس الأول ٤٩١-٥١٨م وأخبره بنكبته بسبب القحط، فوصله الإمبراطور بمبلغ غير قليل من المال لتوزيعه على الفقراء، فلما عاد إلى الرها كان يعلق إلى رقبة الفقراء الذين يأخذون رطل خبز كل يوم قطعة من الرصاص مختومة[٢].

وقد ذكر ثيوفانس بأن المنصور عند زيارته للقدس سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م أمر اليهود والنصارى بكتابة أسمائهم وشماً على أيديهم لأغراض الجزية وهاجر عدد من النصارى عن طريق البحر إلى رومانيا[٣].

أما ما تحدث عنه التلمحري عن ختم الرقاب في الجزيرة الفراتية في عهد الخليفة المنصور[٤] قال: "إنه كان من التجارب المؤلمة لحصر أهل الذمة ومعرفة عددهم أن يرسل مع عمال الضرائب ختامون يختمون كل واحد باسم بلده واسم قريته وكانوا يطبعون على يده اليمنى اسم البلد وعلى اليسرى اسم العراق. ويعلقون على رقبة كل رجل حلقتين أحدهما اسم البلد وعلى الأخرى اسم القسم. وكانوا يقيدون اسم الشخص وأوصافه الجسمية ومسكنه وكان ينشأ عن هذا اضطراب كبير لأنهم كانوا يقبضون على كثير من الغرباء فيذكرون أسماء مساكن لهم فتسجل ولا تكون لهم هذه المساكن في الحقيقة وكان العامل الذي أقامه الخليفة في هذه التخوم مجوسياً لا يخشى الله .. وجعل يطوف مدن الجزيرة مدينة مدينة و إذا وجد العامل أن ما لديه من العمل لا يكفيه فإنه يذهب إلى أي جهة تصادفه ويقبض على الغادين والرائحين وقد يطوف بالمكان الواحد

---

(١) متز، الحضارة العربية الإسلامية مج١، ص٩٩.

(٢) ترتون، أهل الذمة، ص١٣٩. ابن قيم الجوزية، قسم١، ص٣٠.

(3) Theophanes, The Chronicle, P. 133.

(٤) كانت منطقة الجزيرة الفراتية تدار من قبل والي الشام طيلة العصر العباسي وأحيانا كانت تفرد الجزيرة والثغور إلى والٍ واحد. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق ١، ص ص ١٧-٣٧.

أكثر من عشرين مرة ولا يهدأ له بال حتى يصل إلى تقييد جميع السكان بحيث لا يفلت منه أحد[١]. فبعث بقية عمال الجزية إلى أمير الجزيرة الذي خلف العباس[٢] يسألونه وقف هذا الرجل عند حده لأنه إن لم يرحل عن البلاد فلن يبقَ من يؤدي الجزية، ولما تحقق الأمير من صحة كلامهم بعث إلى الواسم كتاباً يأمره بالعودة على عجل فارتاح السكان من أذاه زماناً يسيراً وتعطل جمع الجزية هذه السنة"[٣].

وكان هذا الأسلوب في إحصاء أهل الذمة يدفع بهم إلى هجران مناطقهم ولهذا بادرت الدولة إلى إرجاع "كل هارب إلى قريته وكان العمال بعد الوشم إن قبضوا على آبق ترك قريته، يذيقونه من العذاب ويغرمونه مالاً كثيراً كما يغرمون من أواه في داره أو قريته وقبض على رؤسائهم وكبدوهم عذاباً شديداً دون رأفة وعين المشرف على أمور الجلاء رجلاً فارسياً اسمه كليل بن زادان وكان عندما يؤتى إليه بأحدهم يحلق رأسه ولحيته ويضع على رأسه طوقاً من عجين ويقعده بالشمس ويسكب فوق رأسه زيتاً فيسيل الزيت شيئاً فشيئاً على عينيه وعلى هذا أذاق العامل الفارسي رؤساء البلاد مر العذاب وفر من بقي منهم على قيد الحياة إلى مواقع أخرى"[٤].

يستشف من هذه الروايات أن الاضطهادات التي كانت تقع على دافعي الجزية كانت غالباً من عمال السوء وجباة الضرائب وكانوا يحدثونها دون علم الدولة، وقد راعى الخلفاء هذه الناحية فكانوا يضمنون كتب التولية الالتزام بالعدل وحسن السيرة وعدم ظلم الرعية وتطبيق القواعد المرعية في جباية الضرائب[٥]. وعندما يصل إلى مسامع الخليفة سوء تصرف العامل أو الوالي سرعان ما يصدر أوامره بعزله، وهذا ما أشار إليه التلمحري عندما تبين للخليفة المنصور حقيقة

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥.

(٢) بعد عزل العباس بن محمد عن إمارة الجزيرة وكان قد وليها عام ١٤٢هـ/٧٥٩م، استعمل المنصور على ضربها وخراجها موسى بن مصعب وكان ذلك سنة ١٥٥هـ/٧٧١م. الطبري، تاريخ الرسل، ج٧، ص٥١٤، ج٨، ص٤٧.

(٣) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٨٥-١٨٦.

بالنسبة إلى صب الزيت على الرأس، فقد مر عمر بطريق الشام وهو راجع في مسيره من الشام على قوم قد أقيموا في الشمس يصب على رؤوسهم الزيت فقال: ما بال هؤلاء؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدوها، فهم يعذبون حتى يؤدوها ... فقال: دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون. أبو يوسف، الخراج، ص١٢٥.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ج٨، ص٦٧، ٧١، ٦٤٦.

ما يجري في الجزيرة فأمر بإرجاع الواسم وأوقفه عند حده[١]. كما أمر بعزل والي دمشق وفلسطين عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام عندما شكا أهل فلسطين للخليفة عسفه وتسلطه[٢].

كما أوصى الفقهاء الخلفاء بالرفق بأهل الذمة وعدم إيذائهم عند جباية الأموال منهم فقال أبو يوسف: "أن لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها ولا يحصل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ولا يخرجوا من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية"[٣].

هذا وقد كان يفرض أحيانا على أهل الذمة ضرائب إضافية إلى جانب الجزية، إذ يذكر ثيوفانس أن المنصور في سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م زاد الضرائب على النصارى بما فيهم الرهبان[٤]. وفي سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م أمر الخليفة المتوكل بأخذ العشر من منازل الذمة علاوة على الجزية[٥].

كما يبدو أن جباية الجزية استمرت تجبى على الطبقات طيلة العصر العباسي فقد جاء في عهد الخليفة الطائع ٣٦٣-٣٨١هـ/٧٤٩-٩٩١م " ... وإلى جباة.جماجم أهل الذمة أن يأخذوا منهم الجزية بحسب منازلهم في الأموال وذات أيديهم في الأعمال. وعلى الطبقات المطبقة فيها والحدود المحدودة المعهودة لها. ولا يأخذوها من النساء ولا ممن لم يبلغ الحلم من الرجال ولا من ذي سن عالية ولا ذي عاهة بادية ولا فقير معدم ولا مترهب متبتل..."[٦].

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٨٥.

(٢) الجهيشاري، الوزراء، ص٨٨.

عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ولي أمره دمشق وفلسطين من قبل الخليفة المنصور (ت١٥٧هـ/٧٧٣م) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٧، ص٢٩٩.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٣.

(4) Theophanes, The Chroniocle, P 119.

أجاز الفقهاء أخذ الضريبة من الرهبان إذا كانوا ذوي يسار. أبو يوسف، الخراج، ص١٢٢. أبن سلام، الأموال، ص٢٧

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص١١٨.

(٦) الصابي، إبراهيم بن هلال بن هرون الحراني، (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) المختار من رسائل أبي إسحق إبراهيم الصابئ، نقحه وعلق حواشيه الأمير شكيب أرسلان، بيروت، دار النهضة الحديثة، د.ت. ص١٦٣، الدوري، العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨، ص٢١٤.

- الخراج:

كانت ضريبة الخراج أثقل الضرائب الزراعية على الفلاحين من العرب وأهل الذمة وكثيراً ما قامت الثورات نتيجة تعدي عمال الخراج. ويبدو أنه كان لدى المنصور توجه واضح منذ البداية إلى منع التجاوزات على حقوق بيت المال وتثبيت وضع الأراضي الخراجية كما أرادها عمر بن عبد العزيز والتمييز بين أرض الخراج وأرض العشر ويوضح ابن عساكر هذا الأمر فيشير إلى أن المنصور أرسل المعدلين إلى كور الشام في سنة ١٤٠-١٤١هـ/٧٥٧-٧٥٨م لتعديل الأشرية التي تمت في عهد عبد الملك والوليد وسليمان والتي أصبحت تؤدي العشر ولا جزية عليها (المقصود الخراج) فأرسل عبد الله بن يزيد[١] لتعديل أرض حمص وإسماعيل بن عياش[٢] لتعديل أرض بعلبك فعدلا الأشرية التي وصلت إلى أيدي أصحابها بالشراء أو الميراث أو المهور وعدلا الأراضي التي بقيت في أيدي الأنباط الفلاحين الأصليين على تعديل مسمى ولم تعدل الغوطة في تلك السنة بل استمر أهلها يؤدون العشر على ما كان في أيديهم من الأرض[٣].

ويبدو أن إجراءات المنصور هذه كانت وراء الثورة التي قامت بجبل لبنان سنة ١٤٢هـ/٧٦٠م أو ٧٦٦م فطلب صالح بن علي بن عبد الله بن العباس إلى رياح بن عثمان وكان قد استخلفه على دمشق أن يتولى أمر تأديبهم[٤]. ويوجز البلاذري نقلاً عن الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٣م) خبر هذه الثورة بقوله: "خرج بلبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك فوجه صالح

---

(١) عبد الله بن يزيد بن آدم القرشي من أهل دمشق، قال عنه ابن حنبل أحاديثه موضوعة، الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، ج١٠، ص١٩٦. وسيشار له فيما بعد هكذا، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٣٦٧.

(٢) إسماعيل بن عياش بن سليم أبو عتبة العنسي الحمصي (ت ١٨١هـ/٧٩٧م)، محدث الشام وثقتها حتى قيل ليس لأحد أروى لحديث الشاميين من إسماعيل بن عياش والوليد من مسلم. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٩، ص٣٥. وتهذيب تاريخ دمشق، ج٣، ص٤٢-٤٣. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، سير أعلام النبلاء، ج٨، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه، شعيب الأرناؤوط، حقق هذا الجزء، نذير حمدان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥، ص٣١٢-٣١٧. وسيشار له فيما بعد هكذا، الذهبي، سير أعلام النبلاء. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج٥، حققه وقدم له سهيل زكار، دمشق، د.ن، ١٩٨٨. ص٢١٨٥. وسيشار له فيما بعد هكذا، ابن العديم، بغية الطلب.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ، ج١٨، ص٢٦٧. رياح بن عثمان بن حيان بن قيس المري ولي أمرة دمشق لصالح بن علي ثم ولي أمرة المدينة للمنصور. (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م)، ابن عساكر، المصدر نفسه، ج١٨، ص٢٦٥، ٢٧١.

بن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم وأجلى قوماً من أهل لبنان. واعترض الأوزاعي إمام أهل الشام على إخراج الناس من ديارهم وكتب رسالة طويلة إلى صالح بن علي جاء فيها: "وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج ضروبه فممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة. حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى: "ان لا تزر وازرة وزر أخرى"[1] ، وهو أحق ما وقف عنده واقتدي به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ. فإنه قال: "من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه..."[2].

ولدى ابن عساكر تفصيلات مهمة منها أن الثورة شغلت عامي ١٤٢هـ، ١٤٣هـ/٧٥٩-٧٦٠م. وأن قائد الثورة اسمه بندار وأن القائمين بالثورة هم الجراجمة وأن بندار تجاوز أهداف الثورة المعلنة حين توج نفسه وتسمى بالملك وأظهر الصليب وأن الثورة بعد أن كانت تعبر عن غضب بعض أهل القرى في بعلبك امتدت إلى ساحة أوسع والتف حول القائد نبط لبنان وغيرهم وقاموا بالغارات على قرى بعلبك نفسها فسبوا وقتلوا وأخذوا ما وجدوا من غنائم وكتب بندار إلى أهل بعلبك يتوعدهم وزحف إلى المدينة فخرج جماعة من أهل بعلبك ولقوا المغيرين ثم استطردوا لهم وأطمعوهم باللحاق بهم فلما لحقوا بهم كثر عليهم أهل بعلبك وقتلوا منهم مقتلة كبيرة ثم سار بهم قائدهم (الملك) إلى قلعة أخرى وتحصن بها فكتب صالح بن علي إلى رياح بن عثمان أمير دمشق بتوجيه جيش لمقاتلة بندار فأرسل إليه رياح جمعاً غفيراً من أهل الديوان، ومن التجار، والمطوعين، واستنفر أهل بعلبك كما أرسل أيضاً جنداً من الساحل، واجتمعت هذه الجموع حول القلعة فلم يثبت الثائرون لهؤلاء المقاتلة الذين يحاصرونهم من جهتين وتسلل بعضهم مع قائدهم هاربين إلى أرض الروم ومن أجل أن يشتت صالح قوى نصارى لبنان فلا يظل تجمعهم باعثاً على إحساسهم بالقدرة على العودة إلى الثورة، فرق قسماً من أهل القرى اللبنانية في بلاد الشام وكفورها[3].

وفي فترة تالية طلب المنصور إجراء تعديل في أراضي الغوطة على أساس كل ثلاثين مداً[4] بدينار وكان أداء الناس على ذلك ثم قال بعض الولاة نجعل على الدينار نصف دينار للكتب

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٦٤.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٦٦-١٦٧.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٨، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٤) المد الشرعي، في فجر الإسلام وخاصة في المدينة يساوي ¼ صاع ويساوي ٨١٢,٥غم . هنتس، المكاييل الإسلامية، ص٩٤.

والرسل ثم قال غيره بعده، نجعل على الدينار دانقاً فكان ذلك إلى أن تعدى من تعدى[١]. إذ جاء في تاريخ ابن عساكر "... بقي من كان بيده شيء من تلك الأشرية من أهل الغوطة يؤدي العشر، حتى بعث أمير المؤمنين عبد الله بن هضاب بن طوق ومحرز بن زريق[٢]، فعدلوا الأشرية وأمرهم أن لا يضعوا على شيء من القطائع القديمة ولا الأشرية خراجاً. وأن يمضوها لأهلها عشرية ويضعوا الخراج على ما بقي منها بأيدي الأنباط وعلى الأشرية المحدثة بعد سنة مائة إلى السنة التي عدل فيها"[٣].

والملاحظ في تعديل الغوطة هو تقدير أبي جعفر مبلغاً نقدياً للخراج (دينار لكل ثلاثين مداً) يدل على أن الدولة كانت تفضل أن تتقاضى الخراج والجزية والعشر نقداً لا عيناً. وهذا كان يسبب عنتاً للمزارعين لقلة النقد في أيدي الناس. ولدى الجاحظ عبارة موجزة يتحدث فيها عن جانب من الأوضاع الاقتصادية في بلاد الشام لعله لا يعدو ما كانت عليه الحال في أيامه وهذه العبارة تؤكد قلة النقد المتداول في أيدي الناس، يقول الجاحظ: "فالشامات وأشباهها: الدينار والدرهم فيها عزيزان والأشياء بها رخيصة لبعد المنقل وقلة عدد من يبتاع ففيما يخرج من أرضهم أبداً فضل عن حاجتهم"[٤]. كما يوضح الوضع أيضاً في الشام ابن المقفع (ت١٤٢هـ/٧٥٩م) في كتابه رسالة الصحابة التي يخاطب فيها الخليفة المنصور يقترح فيها ترك جزء من واردات الشام لمتطلبات أهلها وإرسال الباقي إلى بيت المال[٥]. فقال يذكر أمر أهل الشام: "ولكن أخذ في أمر أهل الشام على القصاص: حرموا كما كانوا يحرمون الناس، وجعل فيئهم إلى غيرهم كما كان فيء غيرهم إليهم ... فإن رغب أمير المؤمنين لنفسه عن هذه السيرة

---

(١) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص٢٩٩-٣٠٠. الدانق: بالفارسية دانغ وهو يعني عموماً سدساً وهو خصوصاً كوحدة وزن ونقد يساوي ١/٦درهم وفي كثير من الأحيان ١/٦دينار. هنس، المرجع السابق، ص٢٩.

(٢) محرز بن زريق بن حامد الفزاري مولى بني فزارة، ولي خراج دمشق وتعديلها مع هضاب بن طوق، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها. مج١٦، صورة عن نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واستانبول وضع لكل جزء منها فهرساً للتراجم والموضوعات الشيخ محمد الطرهوني. دار البشير للنشر والتوزيع ص٢٧٦.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٢٠٨.

(٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، رسائل الجاحظ، ج٤، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩، ص١٤٤.

(٥) ابن المقفع، عبد الله (ت ١٤٢هـ/٧٥٩م)، رسائل البلغاء، اختيار وتصنيف محمد كرد علي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط٤، ١٩٥٤. ص١٢٨.

وأشبهها .. كان العدل أن يقتصر بهم على فيئهم فيجعل ما يخرج من كور الشام فضلاً من النفقات، وما خرج من مصر فضلاً من حقوق أهل المدينة ومكة، بأن يجعل أمير المؤمنين ديوان مقاتلتهم ديوانهم أو يزيد أو ينقص غير أنه يأخذ أهل القوة والغناء بخفة المؤنة والخفة في الطاعة ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة"[١].

ويشير التلمحري إلى إجراءات التعديل أيضاً في مدن الجزيرة الفراتية ومدينة القدس سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م، وما رافقها من تعسف العمال ويقول: "لم يكن في نيته (المنصور) من وراء هذا التعديل إنصاف الناس أو إقرار السلام بل كان يسعى إلى إخضاع أكبر عدد ممكن من السكان للجزية وإرهاق الأرض بمزيد من الخراج"[٢]. ولعل ذلك راجع إلى استغلال عمال الجباية لوظائفهم فيما بعد ومبالغتهم في التقدير. إذ يقول فأصدر الملك (الخليفة المنصور) مرسوماً قبل دخول الجزيرة يقضي بأن لا يقدم السريان العرب على حصاد حقولهم أو درسها ليتسنى له رؤية كافة المحاصيل في مواضعها، وكانت الغلال في تلك السنة وفيرة جداً. ولما دخل المنطقة وعاين ما فيها من غلال، عزل أخاه العباس عن ولايته وأقام عمالاً على جمع الضريبة وأنفذهم إلى سائر النواحي، ولما تسلم هؤلاء العمال أوامر تعيينهم تصرفوا بقسوة وجعلوا يدخلون حقول العرب والسريان ويحصون كل ما وجدوا من كوم التفاح وحزم الحنطة والشجر ويدونونه في سجلاتهم الخاصة. ولم يكن تسجيلهم هذا يتفق مع حقيقة ما كان للناس فإن كان مساحة الحقل مئة جريباً كتبوا في سجلاتهم ثلثمائة. ولم يغفلوا شيئاً مما وقعت عليه عيونهم ... وكان الكثيرون لا يقوون على دفع ما طلب إليه دفعه حتى باعوا غلالهم وأفدنتهم وحميرهم لأن الجباة كانوا يسجلون على الفلاح الواحد كذا أفدنة وكذا جريب قمح مع أن الفلاح لا يكون بذر في حقله أكثر من خمسة أجربة من القمح .. وعلى هذا الغرار فقد أصاب العرب أنفسهم في بعض الأحيان ضيقات أشد مرارة من الضيقات التي أصابت السريان. وأمر عامل الجزية فاجتمع إليه السريان قاطبة فأقام عليهم ضامنين من قراهم، وصرفهم لدرس غلالهم[٣]. ... ثم سار الملك من نصيبين إلى مدينة الرقة ثم رحل إلى أورشليم فأفزع المدينة جعلها تفر من أمامه خربها أكثر من

---

(١) ابن المقفع،رسائل البلغاء، ص١٢٨.

(٢) التلمحري، التاريخ المنحول ، ص١٨٠.

(٣) التلمحري، المصدر نفسه ، ص١٨٨-١٨٩.

خرابه في الجزيرة. وأساء إلى بعض الناس، فصادر أمتعتهم ومواشيهم ولا سيما ما كان في حوزتهم من الجاموس. ولم يترك شيئاً إلا وارتكبه في حق السكان"[١].

وقد أدى هذا الإجراء إلى شيوع نظام الضمان، وتأثيراته السيئة على دافعي الضرائب ولما طولب كل امرئ بدفع الجزية ولم يقو على دفعها كاملة، قبض الأمير على الضامنين وفرض عليهم مقداراً معيناً من المال بالتساوي. فعاد هؤلاء بدورهم وفرضوا تلك الكمية من المال على القرى الواقعة ضمن دوائر جبايتهم[٢].

واعتمد المنصور في تقدير الضرائب أيضاً في الجزيرة الفراتية على القضاة، لإضفاء مزيد من الشرعية على أمور الجباية ولغاية الدقة والعدل. فيشير التلمحري إلى أنه انتدب لكل قرية اثنين أو ثلاثة من القضاة. وعين القضاة على كل عشرة رجال رجلاً. واختاروا رئيسين لكل إقليم. يعاونهما رهط من المساعدين. ويرى ديونسيوس أن هؤلاء العمال ساهموا في زيادة العبء على دافعي الضرائب إذ جعل يهبط القرية ما لا يقل عن عشرين رجلاً لغايات متفرقة وكثيراً ما أخفوا من أموال الجزية والخراج لذواتهم وفرضوا على السكان مبالغ إضافية وفق رغباتهم الخاصة من دون أن يقوى أحد على محاسبتهم فسلبوا الأرامل والأيتام أمتعتهم وباعوها[٣].

ويبدو أن عودة موسى بن مصعب إلى الولاية ثانية بعد ان رضي عنه المنصور[٤]، تعني في الحقيقة أن يتحمل الفلاحون أعباء إضافية أخرى. وهذا ما حصل بالفعل، فقد اختار موسى بن مصعب عمالاً من أهل المنطقة مع مساعدين له من رؤساء البلاد وأعيان المدن للإشراف على جمع الخراج من الأهالي. ففرض عليهم دفع ثلث الضريبة، وأحياناً ثلثي الضريبة مقدماً. كما فرضوا عليهم إعباء إضافية أخرى كمبالغ من المال لنفقاتهم الخاصة. فيقول ديونيسيوس: "وأصدر العامل أمرا يقضي بإلغاء ثلث الخراج وقبل ان يلغى تماما اتى عامل آخر ليحل مكان الأول ويقوم بتحصيل الثلث الأوسط من الخراج. وطالب العامل الأول مبلغاً من المال لنفقاته الخاصة وكان ما آخذه العامل الأول وما سرقه بقية العمال ورؤساء الأقاليم والقضاة كان يوازي

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول ، ص١٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٩٧

(٣) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(٤) في سنة ١٥٥هـ/٧٧١م، أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بالقبض على موسى بن مصعب. ثم أعاده مرة أخرى للولاية. الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، (ت٣٣٤هـ/٩٤٥م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧، ص٢٢٤.

الثلث الذي ألغي من الخراج"[١]. وكانت بعض الأقاليم تدفع أتاوة محددة، تدفع سنوياً وعدوها تسوية (صلح). فإن قصرت قرية في ذلك الإقليم عن دفع حصتها بسبب الجفاف أو الآفات الزراعية كان على بقية القرى أن تساهم في أداء ما نقص وقد أخذت طرق تحصيل هذا "الصلح" أو الأتاوة أشكالاً مختلفة من الظلم دون مراعاة ظروفهم، وأحياناً كانت تجبى الأتاوة أكثر من مرة[٢].

كما أن العمال فرضوا على الفلاحين وعلى غيرهم من العاملين تقديم مواد عينية فكتبوا على من لم يكن يقتني حبة واحدة من حنطة أو شعير ألف جريب من القمح. وعلى غيره ألفين وعلى البعض الآخر خمسة آلاف جريب. وكان منهم من سجل عليه عشرة آلاف وآخرون قرابة أربعين أو خمسين ألف جريب[٣]. هذا بالإضافة إلى تكليفهم بدفع نفقات الجيوش المرابطة وتزويدهم بالدواب لنقل المؤن والعتاد الحربي[٤].

ونتيجة ما عاناه الناس من الشدة عليهم حاول الوالي موسى بن مصعب أن يجري نوعاً من التعديل على وثيقة اتفاق مزعوم مع الشعب في العام السابق. ففرض على من لم يكن اسمه مدوناً في الوثيقة أو لا يحمل وسماً على يديه غرامة مالية مقدارها ثمانية وأربعون درهماً بدلاً من ستين درهماً، واستوفى من آخرين مبالغ تراوحت بين خمسة وثلاثين درهماً وخمسة وعشرين درهماً وخمسة عشر درهماً وفرض على وجوه البلاد المسجلين بالوثيقة أو غير المسجلين، غرامات نقدية باهظة. وحاول أعيان البلاد ووجوهها إقناع الوالي موسى تخفيض الضرائب المترتبة فرفض ذلك[٥].

ويلخص المنبجي ما حدث في الجزيرة وفلسطين في أيام المنصور بما يلي "ثم أن المنصور مضى بجيوشه كلها وسار إلى الجزيرة وأقام أياماً ثم عبر الفرات وسار إلى فلسطين فعسف الناس جميعاً (في الجزيرة والشام). وألزمهم نوائب وكلفاً لم يتقدمه فيها أحد من الملوك وضيق عليهم تضييقاً شديداً حتى لم يبق إنسان من صانع ولا طواف ولا حمال ولا حفار القبور ولا فلاح ولا متصدق ولا صنف من صنوف الناس حتى ألزمهم الخراج وأخذ أموالهم واشتد

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول ، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٣، ٢٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٢٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٢٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٢٣، ٣٢٥.

بالناس البلاء وفنيت الدراهم من أيدي الناس ولحقهم من البلاء ما لا يوصف .. وبينما هم في هذا الجهد إذ توفي المنصور بعد أن ملك إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر ونصف[١].

كما أشار ثيوفانس إلى هذا بقوله أنه في سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م سار المنصور إلى القدس بعد انتهاء شهر الصيام وختم على أيدي النصارى واليهود من أجل أغراض الضرائب، وهاجر عدد كبير من النصارى إلى رومانيا عن طريق البحر من جراء هذه الإجراءات[٢]. كما أشار المؤرخ ابن العبري إلى الخبر نفسه بقوله: في سنة ١٥٦هـ/٧٧٢م ارتحل أبو جعفر من بابل إلى ما بين النهرين وسورية واشتد على الأهالي بضرائب باهظة، وحشد كل الفضة والذهب بخزانته. فقد ضايق الناس وجعلوا ينبشون القبور علهم يعثرون على حلي مصوغة دفنت مع الموتى[٣].

ويبدو أن الجور والعسف الذي لحق بالفلاحين كان وليد جشع الولاة وعمال الخراج وليس كما وصفت المصادر المسيحية الخليفة المنصور. إذ يشيد جميع المؤرخين المسلمين بحسن سياسة المنصور وعدله فعندما توالت الضائقة بأهل الجزيرة سنتين متتاليتين أرسل أبو جعفر مولى له اسمه "رزين" لاستطلاع الأحوال. واكتشف رزين مساوئ كثيرة للأوضاع الخراجية في تلك الزيارة وأدرك أن الفساد لم يكن مقصوراً على عمال الخراج بل أن بعض الأغنياء كانوا يفيدون من تردي الأحوال في الجزيرة، فقد اتفق هؤلاء فيما بينهم على أن يجمعوا مالاً مقداره سبعون ألف دينار (جبوها ليملأوا جيوبهم ثلاث مرات) وعدوها "تسوية صلح "يدفعونها لرزين، على أن يرحل عنهم ويعفيهم من رقابته. وتضامنوا مع الوالي الظالم موسى بن مصعب وسألوه أن يحول دون بقاء رزين في البلاد وحين وقف رزين على ما يختلسه العمال أمر بالقبض عليهم وعذبهم واسترد منهم ما اختلسوه[٤].

وهناك مثل آخر يدل على سياسة المنصور في مراقبة الولاة والعمال وأن كانوا من أهل بيته وهذا المثل متصل بفلسطين أيام واليها عبد الوهاب بن إبراهيم وكان عسف بأهلها. وكان

---

(١) المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين (توفي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه عمر عبد السلام تدمري. طرابلس، دار المنصور، ١٩٨٦، ص١٣٠.

(2) Theophanes, The Chronicle, P. 133.

(٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة السرياني وصدر تباعاً في مجلة المشرق ١٩٤٩-١٩٥٦، قدم له الأب الدكتور جان موريس فييه، صدر لمناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف. بيروت، دار المشرق ش.م.م، ١٩٨٦، ص٩.

(٤) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٣٠٣، ٣٠٤.

إبراهيم بن أبي عبلة(١). كاتب هشام، مقيماً بها فاستحضره المنصور فلما وصل إليه قال لـه: ابـن أبي عبلة؟ ما وراءك؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأت عـهود الخلفاء الذيـن مـن ولـد عبـد الملك إليك فما سمعت عهداً قط أجمع من عهد قرأه علينا عبد الوهاب منك، ثم عهد إلى جميع ما أمرتـه به فاجتنبه، وما نهيته من شيء فارتكبه. وكان ابن مجير من أهل فلسطين قد حضر مع ابن عبلـة ورحل إلى المنصور فقال: ما وراءك يا ابن مجير ؟ فاخرج له طائراً من كمه قد نتفه حتـى لـم يبق عليه ريشة واحدة فقال له: فارقت البلد يا أمير المؤمنين وقد نتفه ابن أخيك حتـى تركـه كمـا تركت هذا الطائر. فأظهر الخليفة إنكاراً شديداً وعزله(٢). كما اعتمد المنصور في تقدير الضرائب في الشام والجزيرة على القضاة وذلك لغايات الدقة والعدل وهو ما أشار إليه التلمحري نفسه.(٣)

وقد اشار معظم المؤرخين بحسن سياسة المنصور وتدبيره في سبيل مصلحة الدولـة فقال المسعودي: "وكان المنصور من الحـزم وصـواب الـراي وحسن السياسـة علـى مـا تجـاوز كل وصف" (٤) وقد وصف صاحب الفخري المنصور بهذه العبارة فقال: " كان المنصور من عظماء الملوك وعقلائهم وعلمائهم وذوي الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة... وأعلم أن المنصـور هو الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس"(٥)

ومن إجراءات الإصلاح التي حدثت زمن الخليفة المهدي ١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م أنـه أصدر أمراً بمنع تعذيب الناس من أجل استيفاء أموال الخراج المتأخرة عليـهم. فإنـه عندمـا تقلد الخلافة وجد أهل الخراج يعذبون فشاور أحد خواصه فقال له: يا أمير المؤمنين هذا موقف له مـا بعده وهم غرماء المسلمين فالواجب ان يطالبوا مطالبة الغرماء فتقدم المهدي إلى وزيره عبيـد الله بن معاوية بن عبد الله (ت ١٧٠هـ/٧٨٦م) (٦). بالكتاب إلى جميع العمال برفـع العـذاب عـن أهـل

---

(١) ابراهيم بن ابي عبله بن يقظان روى عن أبيه وعن ابن عمر وانس بن مـالك وغيرهم وروى عنـه مـالك وخلق كثير في مصر والشام (ت ١٥١هـ أو ١٥٢هـ أو ١٥٣هـ/ ٧٦٨ أو ٧٦٩ أو ٧٧٠م. المقريـزي، أحمد بـن علـي ، ت ١٥٤هـ/ ١٤٠٥م كتـاب المقفى الكبير، ج١، تحقيـق محمـد اليعـلاوي، بـيروت، دار العرب الإسلامي ، ١٩٩١، ج١ ص ١٧٤.

(٢) الجهشياري، الوزراء، ص٨٨.

(٣) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٢٣٤.

(٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهـر ج٣، تحقيـق محمد محي الدين، بيروت، المكتبة المصرية، ١٩٨٨، ص٣١٨.

(٥) ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقا (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، الفخري فـي الآداب السـلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، د.ت، ص١٥٩-١٦٠.

(٦) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٣٢٢.

الخراج وكان أهل الخراج يعذبون بصنوف العذاب من السباع والزنابير والسنانير[١]، وكان المهدي محبباً إلى الخاص والعامة لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم والكف عن القتل وأمن الخائف وإنصاف المظلوم وبسط يده في العطاء[٢].

وواجه الرشيد في بداية خلافته أن جلا بعض الناس عن أراضيهم في فلسطين ويبدو أن ذلك كان ناشئاً عن ثقل الضرائب فوجه الرشيد هرثمة بن أعين[٣]، لعمارة تلك الأرض المهجورة فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها إلى الرجوع ووعدهم بتخفيف الخراج عنهم ولين معاملتهم فعادوا إلى أرضهم وسموا "أصحاب التخافيف" وهناك فريق آخر من الفلاحين طلبوا أن يعودوا إلى فلاحة أرضهم دون شروط على أن يدفعوا عنها قيمة الخراج السابق فأذن لهم بذلك وردت عليهم أرضهم وسموا "أصحاب الردود"[٤].

وفي سنة ١٧٥هـ/٧٩١ م فرض هارون الرشيد على منطقة الجزيرة الفراتية ضريبة نقدية ثابتة. قدّرها بربع قيمة جريب الحنطة وجريب الشعير آنذاك. يقول الأزدي في روايته: "وكانت الخوارج تخرج ولا يصل أصحاب السلطان إلى شيء إلا دون الربع. فإذا طولبوا احتجوا بالخوارج، فحدّر هارون جماعة من أهل الموصل فناظرهم في ذلك. ودعاهم إلى أن يجعل عليهم دراهم معلومة فامتنعوا من ذلك فاضطرهم. وكان المناظر لهم يحيى بن خالد البرمكي .. وسألهم الجريب البذر في كم يقع من المساحة؟ فأعلموه أن الجريب يقع في أربعة أجربة مساحة، وثمن الجريب الحنطة في وقته فبلغ ثلاثين درهماً، وأخذ ربع الثلاثين فإذا هو سبعة دراهم ونصف فألزمها الجريب. وسألهم عن جريب الشعير .. فعلم أنه يدخل أربعة مثل الحنطة لأنهم عرفوه أن

---

(١) الجهيشاري، الوزراء، ص٩١. السنانير: جمع سنور وهو حيوان أليف من الفصيلة السنورية، ورتبة اللواحم، من خير مآكله الفأر، ومنه أهلي وبري، المعجم الوسيط، ج١، ص٤٥٤.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٣٢٢.

(٣) هرثمة بن أعين: أحد قواد المهدي ومن أمراء الرشيد وخواص قواده ولاه أمرة مصر. اتهمه المأمون بممالأة إبراهيم بن المهدي. فطلبه وشتمه وضربه وحبسه وكان الفضل بن سهل الوزير يبغضه فقتله في الحبس سراً وذلك عام ٢٠٠هـ/٨١٦م. ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب. (ت٢٤٥هـ/٨٥٩م)، كتاب المحبر، رواية أبي سعيد حسن بن حسين السكري، تصحيح إيلزه ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ص٤٨٨. ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ج٢، ص١١٥. العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي. (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، ص٣٥٨.

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٤٩-١٥٠.

دخل الجريب (أربعة أجربة)، وقوم الشعير فبلغ الجريب في ذلك الوقت عشرين درهماً فأخذ ربعها فصار لكل جريب خمسة دراهم"(١).

وهذا معناه أنه فرض ضريبة ثابتة على الإنتاج وهذا قد يلحق بالمزارعين الضرر لأن الأوضاع عرضة للتغيير في أغلب الأحيان لأن الأسعار قد ترتفع أو تنخفض والناتج الزراعي قد يزيد أو يقل تبعاً لعوامل كثيرة.

ومن الثورات التي قامت في عهد الرشيد أيضاً، بسبب الضرائب كانت ثورة في مصر سنة (١٩٠هـ / ٨٠٥م) وكان ذلك بسبب تشدد والي مصر في الخراج فخرج عليه أهل الحوف من الوجه البحري وامتنعوا عن أداء الخراج. وامتدت آثارها إلى بلاد الشام بزعامة أبي النداء في أيلة (العقبة) حيث خرج عليهم في نحو ألف رجل وقطع الطريق وأخاف السبل وأغار على بعض نواحي قرى الشام وانضم إليه الأعراب وجماعة من جذام. فأرسل إليه الرشيد في السنة التالية عبد العزيز الجروي من مصر وألقى القبض على أبي النداء وأحضروه إلى الرقة(٢).

وتسكت المصادر عن أخبار التعديل إلى عهد المأمون ١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣ فبعد أن استقر له الأمر في العراق أرسل المأمون بعد قدومه إلى دمشق سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م إلى المعدلين والمساح في الجزيرة والموصل والرقة لتعديل أجناد الشام ومساحتها. فكان منهم حرب بن محمد بن علي بن حيان الموصلي الطائي (ت٢٢٦هـ/٨٤٠م) وسفيان بن عبد الملك الخولاني. الذي استقدمه المأمون من الموصل إلى دمشق لتعديل أرض الشام ومساحتها. فاستعفوه من التعديل فأعفاهم، وعندئذ استقدم المساح من العراق والأهواز والري وأقام بدمشق تلك الشتوة على التعديل(٣).

وبعد القضاء على ثورة نصر بن شبث في سنة ٢١٠هـ/ ٨٧٥م وما خلفته تلك الثورة من اضطرابات في بلاد الشام. (٤) عمد عبدالله بن طاهر إلى تهدئة الأحوال في البلاد، وكان المأمون قد ولاه الجزيرة والشام ومصر والمغرب وصير إليه جميع أعمالها(٥). وتحدث اليعقوبي عن تلك

---

(١) الأزدي، تاريخ الموصل، ص٢٧٥-٢٧٦.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٧٠.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٢، ص٣١٨، وتهذيب تاريخ دمشق، ج٤، ص١١٠-١١١. ابن العديم، بغية الطلب ج٥، ص٢١٨٥.

(٤) للمزيد عن ثورة نصر بن شبث، انظر الفصل الثالث، العلاقات الإجتماعية

(٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٦٠.

الاضطرابات ودور عبد الله بن طاهر فيها فيذكر أنه سار "يستقري الشام بلداً بلداً لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل (اللصوص) وهدم الحصون وحيطان المدن وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً. ونظر في مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا مانع إلا خرج من قلعته وحصنه"(١).

وفي سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م، ورد كتاب من المأمون إلى عامله إسحق بن يحيى بن معاذ عامله على جند دمشق ذكر فيه: "...أما بعد فإن أمير المؤمنين أمر بالكتاب إليك في التقدم إلى عمالك في حسن السيرة وتخفيف المئونة وكف الأذى من أهل عملك. فتقدم إلى عمالك في ذلك أشد التقدمة واكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك" وكتب إلى جميع عماله في أجناد الشام جند حمص والأردن وفلسطين بمثل ذلك(٢). كما أصدر المأمون أمراً بأن يرفع عن كواهل المسيحيين واجب إيواء العساكر في منازلهم، وألا يضرهم أحد من الفرس أو العرب فصار المسيحيون في هذا الزمان ينعمون برخاء ويصلون دوماً لأجل حياه المأمون(٣) بينما يذكر ميخائيل السرياني أن المأمون كان يلعنه الجميع لما أنزل بالناس من صنوف البلاء. (٤) ولعل السبب في هذا الحكم هو شدة المأمون في القضاء على ثورة الأقباط البشرود (البيما) في حوف مصر سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م بسبب الضرائب فأرسل إليهم قائده الأفشين ثم سار بنفسه فقتليهم وسباهم وأخرج رؤساءهم إلى بغداد(٥) وهذا العنف في المعاملة قد يعكس نظرة المأمون إلى الثوار فهم في نظره كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلموا للإمام وليس لهم ان يستنصروا ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم(٦).

وتوالت الاضطرابات في بلاد الشام بسبب استمرار العمال في الإساءة إلى الأهالي ففي سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤م ثار أهل حمص على عامل المعونة فأخرجوه وصاحب الخراج من

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٦٠.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٦٤٦.

(٣) مجهول ، تاريخ الرهاوي، ج٢ ص٢٩

(4) Michel, Le Syrien, Vol 3, P 75

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٦٦.

(٦) اليعقوبي، تاريخ ، ج٢، ص٤٦٦.

مدينتهم. فوجه إليهم المتوكل عتّاب بن عتّاب ومعه محمد بن عبدويه لتقييم الموقف واستبدال واليهم بوالٍ آخر، فرضي أهل حمص بمحمد بن عبدويه والياً عليهم "ففعل فيهم الأعاجيب"[(١)].

ونتيجة لاستمرار سياسة الولاة في إجبار الأهالي على أداء ما عليهم من ضرائب ثاروا ثانية في سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م على عامل المعونة، ومعهم مجموعة من نصارى حمص، وقد جاء رد فعل الدولة عنيفاً هذه المرة، فقد ضربت مجموعة من رؤسائهم ووجوههم بالسياط حتى الموت، وصلبهم على أبواب منازلهم. ثم تتبعت بقية رجال الثورة فقضت عليهم جميعاً[(٢)].

وبعد القضاء على الثورة بدأت الدولة إجراءات التعديل في الشام. إذ يذكر ساويروس ابن المقفع ان الخليفة المتوكل أخرج احمد ابن المدبر[(٣)] إلى الشام للتعديل سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٥م وأقام في فلسطين وأذاق أهل تلك البلاد صعوبة وبلايا وطالب الرهبان بالجزية والخراج[(٤)]. كما أشار ابن عساكر إلى ذلك بقوله: أن المتوكل أرسل أحمد بن محمد المدبر الكاتب إلى دمشق وغيرها في سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م لمساحة الأراضي فيها[(٥)]. وجمع ابن المدبر المشيخة العارفين بشؤون الأرض تاريخياً وأحكامها فقهياً، وفيهم أبو زرعة عبد الرحمن بن عمرو (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م) وسألهم عن مدائن الساحل، هل يرون في مستغلها حقاً للفيء؟ فنفوا ذلك لأنها تتبع دمشق ودمشق فتحت صلحاً، وأعلمه أبو زرعة يومئذ أن بعلبك صلح. وأمن المشيخة على قوله. وسأل أبو زرعة أيضاً عن سيرة هشام بن عبد الملك في مسلم اشترى أرضاً خراجية من نبطي وكيف أن هشاماً قضى بفسخ البيع ورد الأرض إلى صاحبها الأول. لأن الأرض الخراجية لا تباع

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٧. ابن الأثير، الكامل ، ج٦، ص١٢٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٢٣. عامل المعونة: يعني صاحب الشرطة المكلف بتوطيد الأمن. خماش، نجدة، التنظيم الإداري في الشام، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ١٩٩٠، ص١٨.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٩٠. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٩.

(٣) أحمد بن المدبر هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله الكاتب، تقلد ديوان الخراج والضياع مجموعين للخليفة المتوكل وتمالأ عليه الكتاب فأخرجه الخليفة للشام للتعديل سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م فكسب مالاً كثيراً ثم حبسه أحمد بن طولون ومات في الحبس (٢٧٠هـ أو ٢٧١هـ/٨٨٣ أو ٨٨٤م) التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م)، كتاب الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، بيروت دار صادر، ١٩٧٨، ج١، ص٢٤٧. ابن شاكر الكتبي، محمد بن أحمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣، ج٨، ص٣٨

(٤) ابن المقفع، ساويروس، (ت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة، مج ٢، ج١، قام على نشره مسى عبدالمسيح وأسولد برمستر، القاهرة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، ١٩٤٣. مج ٢، ج١، ص٢٤.

(٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥، ص٣٩٠. التنوخي، الفرج بعد الشدة. ص٢٤٧.

للمسلمين، فهي أمانة في أيدي أهل الذمة يأكلون منها ويؤدون خراجها وأكد له أن عمل هشام هذا تطبيقاً لما قرره عمربن عبدالعزيز(١).

وبعد أن استوعب ابن المدبر أبعاد أحكام الأرض من المشيخة قام بالتعديل في جنوب الشام والأردن وكان المتوقع من رجل مدقق مثله أن يصل بالناس إلى جادة الحق، ولكن بعد انتهاء المسح تظلم أصحاب الأرض مما أجراه. على الرغم من اجتهاده وسعيه للإنصاف ولكن يبدو أن معاونيه أجروا بعض المسامحة والتساهل. أو جرى عليهم بعض السهو فحفظ الناس له ولهم ذلك. حتى إذا قدم المتوكل إلى دمشق سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧ اجتمع الناس من أرجاء الجنديين وشكوا له ابن المدبر فأمر المتوكل عبد الله بن يحيى بن خاقان أن يعقد اجتماعاً بين المشتكين وابن المدبر في المسجد الجامع بدمشق للنظر فيما يتظلم منه الناس. وحضر الاجتماع أبو الحسن موسى بن عبد الله صاحب ديوان الخراج ونجاح بن مسلمة صاحب ديوان التوقيع وهواه مع ابن المدبر، وكان في الحضور أيضاً عدد من أصحاب الدواوين الأخرى، وتقدم القوم بظلاماتهم، وسئلوا أن ينيبوا عنهم رجلاً ينطق باسمهم ويكون مرجعاً فوقع اختيارهم على محمد بن عمرو بن حويّ السكسكي، وهو أحد الأثرياء وأصحاب الزروع والعقود الكثيرة وكان من يقدم من بغداد أو من مصر من رجال الدولة ينزل عنده. وسئل ابن المدبر عما تقدم به القوم من ظلامات فاعتذر بأنه بذل جهده ودقق في اختيار العمال والمساح. واقترح على أبي الحسن بن مخلد صاحب ديوان الضياع أن يعيد المساحة إذا شاء. فكان جواب الحسن: "أن المسح إذا أعيد وجب على ابن المدبر ومن عمل معه أن يردوا ما ارتزقوه وأنفقوه. وتبين ان الجدل بين الرجلين لن يؤدي إلى نتيجة، فتدخل ابن حوي السكسكي واقترح أن يحصى مبلغ ما يخص القوم المتظلمين ويعرض على أمير المؤمنين، فيسامحهم ببعضه ويكون ما يسامحهم به من مال العقد(٢). ونقل عبيد الله بن خاقان إلى المتوكل نتائج الاجتماع، واقترح عليه إسقاط بعض الأبواب التي تظلم منها الناس. فوافق على ذلك. وكان مجموع ما وجب إسقاطه عن أهل جند الأردن ومن بعض الأبواب التي أسقطت عن أهل دمشق ٣٩٥٣٦ ديناراً(٣).

وفي نفس السنة ايضاً ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م أمر المتوكل بتحويل شميشاط من الخراج إلى العشر أسوة بغيرها من الثغور(٤)، وذلك من باب التخفيف على منطقة الثغور حيث تعرضت تلك

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٣٥، ص١٤٥.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٥٥، ص٢٠-٢٢.

(٣) المصدر نفسه، والجزء نفسه، ص٢٢.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٨

المناطق في سنة ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م إلى زلزال عميق[١] وبعد عزل ابن المدبر وفي ايام احمد بن طولون تقلد خراج الشام، الحسين بن احمد بن الحسين أبو علي الماذراني (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، المعروف بأبي زنبور وضبط الأمور وبان أثره وتوفيره ولم يزل فيها حتى عام ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م وتحول إلى مصر[٢]

ثم تلاشت بالتدريج طرق الجباية بواسطة موظفين خاصين وخلفها طريقة الضمان[٣]. فقد اخذ علي بن عيسى الوزير خطة في مجلسه بما عقده للحسين بن أحمد من ضمان أعمال الخراج والضياع بمصر والشام بعد النفقات الراتبة وإعطاء الجيش في تلك النواحي[٤]. كما أن ابن الفرات في وزارته الثالثة سنة ٣١١هـ/٩٢٣م كتب باستحضار محمد بن علي الماذراني فناظرة أبن الفرات على المال الباقي عليه وعلى الحسين بن احمد من ضمان أجناد الشام ومصر. وعن حق بيت المال في ضمانه[٥]. وكان الوزير الخصيبي قد أقر علي بن عيسى على ما كان إليه من الإشراف على مصر والشام ولذلك ورد الخبر سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م بمسير علي بن عيسى إلى مكة حاجاً من مصر ومجيء سلامة حاجبة بغداد ومعه سفاتج بـ ١٤٧,٠٠٠دينار وبأثار واستدراكات أثرها[٦].

وأدرك ابن حوقل العقود التي عقدها أبو المسك كافور لمن يضمن أجناد فلسطين والأردن ودمشق ما بين سني ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩هـ إلى سني ٣٤٨، ٣٤٩هـ ويذكر أسماء الأشخاص الذين عقد لهم الضمان فيقول: "... وقد عقدت على خزرون فلسطين والأردن وكذلك جند دمشق عقد على خزرون، وعلي بن الحسن علي بن محمد، وعلي بن مالك، فكانت تكون في يد كل واحد منهم سنين بخمسمائة ألف دينار"[٧]، كما ذكر أن الجزيرة الفراتية كانت تتضمن إلى سنة ٣٣٠هـ/٩٤٠م بمائة ألف دينار[٨] .

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٧ ، ص٣٨٠

(٢) المقريزي ، المقفى ، ج١٣، ص ٤٦٦-٤٦٧

(٣) الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، بغداد، مطبعة السريان، ١٩٤٥، ص١٩١.

(٤) مسكوية، أبو علي احمد بن محمد، (ت٤٢٠هـ/١٠٣٠م)، كتاب تجارب، الأمم، أعتنى بالنسخ والتصحيح هـ.ف. أمد روز، مصر، مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٩٩١٤،ج١، ص١٠٧

(٥) مسكوية، تجارب الأمم، ج١، ص١١٥.

(٦) مسكوية، المصدر السابق ، ج١، ص١٤٦.

(٧) أبن حوقل صورة الأرض، ص١٥٩.

(٨) أبو حوقل، المصدر السابق، ص١٩٣

وكان البعض من هؤلاء العمال يدفع مبلغ الضمان في السنة الأولى مقدماً عند إصدار تعيينه ثم يوالي إرسال المبلغ الذي قوطع عليه سنوياً عن ولايته حيث يتابع ابن حوقل ويقول وكان من عادة كافور أنه " إذا عقد على بعض عماله أو الجأ عليه شيئاً من أعماله، طالبه قبل وجوب المال عليه بشيء منه على طريق القرض منه، وكانوا بحسن نظره أغنياء، ويحتسب بذلك لهم مما تحت أيديهم ويجب عليهم ولم يعقد في وقته على أحد من أوليائه عقد تدبير غلا وربح فيه مثلهم من حيث يعلمه ويتقرره ويقول: " إذا لم يختص الأولياء بالنعم صارت إلى الأعداء بالكظم، فهم صنائعي وأولادي"[١].

وهذا يعني أنه لم يكن يحاسبهم على الأسلوب الذي يتبعونه في الجباية أو على المبالغ الإضافية التي يجبونها، طالما أنهم يقدمون له مبلغاً من المال على سبيل القرض أولاً ثم بقية المبلغ المقرر عليهم

يلاحظ من كل ما تقدم كيف أن الدولة في البداية لجأت إلى نظام التعديل ظناً منها أنه يقرب المسافة بين تطلعات الدولة وآمال الفلاحين ولكن التعديل ظل مرهوناً بالتطبيق. فإما أن يشتط العمال فيه فيميل إلى ناحية الجور وأما أن يقتصدوا فيه فيميلوا إلى ناحية الإنصاف.

والحقيقة أن الخراج أصبح يمثل قضية منذ بداية الدولة العباسية يحاول المنظرون اقتراح الحلول لها. وكان أول من حاول ذلك ابن المقفع في رسالة الصحابة[٢]. وحين عرض للخراج رأى أن الفساد فيه قد يصلح بوضع مرجع مكتوب تفسر به مقادير الخراج ويكون مرجعاً للجباة. وهذا يستدعي وضع مقادير معلومة تفرض على البساتين والقرى والأرضين فيعرف الجابي كما يعرف المزارع مقدار ما يطلب منه. ولا بد أيضاً من الفصل بين السلطة العسكرية والسلطة المالية. لأن جمع المال يفسد روحهم العسكرية. وهم يمثلون القوة والغالب عليهم اللجوء إلى القوة في التحصيل وربما تجاوزوا ذلك إلى الابتزاز والخيانة[٣].

ووضع ضريبة محددة قد تلحق الضرر بالفلاح نظراً لتغير الظروف والأحوال، وهذا مما دعا المنصور إلى تعديل نظام الخراج في السواد من نظام المساحة إلى نظام المقاسمة إذ يورد الماوردي مايلي" ولم يزل السواد على المساحة والخراج إلى ان عدل بهم المنصور إلى المقاسمة لأن السعر ينقص فلم تف الغلات بخراجها وضرب السواد فجعله مقاسمة واشار أبو عبيد الله

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٠

(٢) ابن المقفع، رسائل البلغاء، ص١٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٢.

على المهدي بأن يجعل أرض الخراج مقاسمة بالنصف أن سقي سيحاً وفي الدوالي على الثلث وفي الدواليب على الربع لا شيء عليهم سواه وأن يعمل في النخل والكرم والشجر مساحة خراج تقدر بحسب قربة من الأسواق(١). كما اقترح أبو يوسف على الخليفة هارون الرشيد أن يجعل السواد أيضاً على المقاسمة وأن يكون مقدار الخراج على ارض السيح خمسين وعلى ارض الدوالي خمساً ونصف واما النخل والكروم والرطاب فعلى الثلث وأما غلات الصيف فعلى الربع ويقترح أيضاً أن يقبل الخراج عيناً أو على شكل نسبة من ثمن البيع(٢).

والناظر إلى واقع الخراج في العصر العباسي في بلاد الشام يجد أن الدولة لم تتنازل عن خراج الوظيفة" وهو الوظيفة المقدرة على المساحة وأن التعديل يعني ضبط المساحة، فإذا بلغت مساحة الأرض مثلاً مئة جريب فمعنى ذلك إلزام الجريب نسبة معينة من الضرائب وهذا يتطلب بيع الريع بسرعة للحصول على الدراهم فتلعب المضاربة دورها وتؤثر على الأسعار وإذا جاء حساب الخراج باهظاً صعب التسديد فالجباية تصبح صعبة وكانت جباية الضرائب موكولة إلى القائمين على أمور الخزينة المحلية، ويرأسهم "العامل" مساعد والي الإقليم. وعندما كانت الخزينة "بيت المال" تعاني المصاعب كان يتم اللجوء إلى "الضامن" الذي يدفع إلى الديوان مسبقاً مبلغاً محدداً يقل قليلاً عن الضريبة التي يستوفيها لقاء السلفة والفارق هو ربحه. ولأنه عادة من الأغنياء وذوي النفوذ فالمجال كان يتسع له لظلم السكان وابتزاز الأرباح الكبيرة منهم وتلك بدايات دخلت بين العوامل التي أدت إلى خراب البلاد(٣).

ولا بد من الملاحظة هنا أن الخزينة (بيت المال) كانت دائمة التعرض لمصاعب جادة ومن ذلك عدم التطابق بين تقويم السنة الهلالية وتقويم السنة الشمسية الوحيد المأخوذ به في الزراعة. فالجزية ظلت تجبى حسب التقويم الهلالي في حين أن كل ما له صلة بالأرض ارتبط بالتقويم الشمسي وهو أيضاً عرضة للخلل. ففي زمن الرشيد اجتمعوا إلى يحيى بن خالد وسألوه أن يؤخر النوروز نحو الشهرين فعزم على ذلك فتكلم أعداؤه فيه وقالوا: "إنه يتعصب للمجوسية فأضرب عن ذلك .. وبقي الحال حتى زمن المتوكل حين أخبر "أن هذا قد أضرّ بالناس فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم وكثرت شكاياتهم وظلمهم. عندئذٍ أمر المتوكل جليسه فقال له "فاعمل لهذا عملاً ترد النوروز فيه إلى وقته، الذي كان فيه في أيام الفرس وعرف بذلك

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٢٩. قدامة، الخراج، ص٢٢٢-٢٢٣.

(٢) أبو يوسف الخراج، ص١٠٩.

(٣) ايليسيف، نيكيتا، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، بيروت، مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦، ص٢٧٨.

عبيد الله بن يحيى واد إليه رسالة مني في أن يجعل استفتاح الخراج فيه "وعندما أخبر الجليس الوزير بالأمر فقال الوزير "يا أبا الحسن قد والله فرجت عني وعن الناس وعملت عملاً كثيراً يعظم ثوابك عليه وكسبت لأمير المؤمنين أجراً وشكراً" فعمل إحصاء لمقدار الكبس فأخر وقت جباية الخراج من نيسان إلى خمس من حزيران. أو سبعة عشرة منه[١]. وأنشئ كتاب إلى النواحي بالأمر بذلك في محرم سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م[٢]. ولكن المتوكل قتل ولم يتم ما دبر حتى قام الخليفة المعتضد ٢٧٩-٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠٢م سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م، بإنشاء الكتب في النواحي بترك افتتاح الخراج في النيروز وتأخيره إلى الحادي عشر من حزيران وسمي ذلك النيروز المعتضدي ترفيهاً لأهل الخراج ونظراً لهم[٣].

أما المساوئ المتعلقة بطرق الجباية فكانت عديدة وقد أكثر أبو يوسف من التنبيه على عسف الجباة فمن هذه المساوئ حزر ما في البيادر فتقدر بأكثر من كمياتها الحقيقية. عندئذٍ يؤخذ بنقائض الحزر" ونبه أبو يوسف إلى أن في ذلك إهلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد[٤]. وكان العامل أحياناً يكيل الحاصل بعد الدوس "ثم يدعه في البيادر الشهر والشهرين ثم يقاسمهم (أهل الخراج) فيكيله ثانية فإن نقص عن الكيل الأول قال: "أوفوني وأخذ منهم ما ليس له.."[٥]. ويشير أبو يوسف إلى سوء تصرف أعوان جباة الخراج الذين قد يكونون "ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم (العامل) ويوجههم في أعماله يقتضي بذلك الذمامات. فليسوا يحفظون ما يوكلون بحفظه، ولا ينصفون من يعاملونه إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج أو من أموال الرعية ثم أنهم يأخذون ذلك بالعسف والظلم والتعدي"[٦].

وكان أعوان العمال يطالبون أحياناً بأجور خاصة "فإن لم يعطه (المزارع) ضربه وعسفه وساق البقر والغنم ومن أمكنه من ضعفاء المزارعين حتى يأخذ ذلك ظلماً وعدواناً"[٧] ومن

---

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص٧٦٢.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٢١٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٣٩. ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢. ج١٢، ص٣٤٣. المقريزي، الخطط، ج١، ص٧٥٨. أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص٩٩.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٨.

المساوئ أيضاً ضمان الخراج في منطقة من قبل أفراد يدفعون قدراً معيناً من المال وتطلق أيديهم في الجباية وقد حذر أبو يوسف من هذا وشرح أثره قائلاً: "ورأيت أن لا تُقبّل شيئاً من السواد ولا غير السواد من البلاد فإن المتقبل إذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما دخل فيه وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية. والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته، ولعله أن يستفضل بعد ما يتقبل به فضلاً كثيراً وليس يمكنه ذلك إلا بشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد، وإقامته لهم في الشمس، وتعليق الحجارة في الأعناق، وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذي نهى الله عنه.[١] .

وهناك نوع ثان من الضمان وهو أن يضمن رجل موسر عن أهل المنطقة خراجها برضى منهم، فذلك يستحسنه أبو يوسف على أن يعين الخليفة مع الضامن أمين من بيت المال يوثق بدينه وأمانته ويجري عليه من بيت المال[٢]. وهذا الضمان يطلق عليه لفظ الإيغار[٣].

ويبدو أن الفلاحين استمروا في المعاناة من هذه المساوئ التي أشار إليها أبو يوسف، ففي أيام الخليفة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م، وفي وزارة ابي الحسن علي بن الفرات الثانية[٤] ورد الحضرة قوم من أهل ديار ربيعة يتظلمون من حيف لحقهم في معاملاتهم كتاباً نسخته "... وقد ورد الحضرة جماعة من وجوه التناء والمزارعين بديار ربيعة متظلمين مما عوملوا به في سني إحدى واثنين وثلاث عشرة وثلثمائة من إكراههم على تضمن غلات بيادرهم بالحَزْر والتقدير وإلزامهم حق الأعشار في ضياعهم على التربيع واستخراج الخراج منهم على أوفر

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٥. وقد حذر غالبية الفقهاء من نظام القبالة. روى عن عبد الرحمن بن زياد قال أنى قلت لابن عمر أنا نتقبل الأرض فنصيب من ثمارها يعني الفضل فقال ذلك الربا العجلان. وقال ابن عياش القبالات حرام وقال سعيد بن جبير (ت٩٥هـ/٧١٣م)، لا خير في القبالة وإنما كرهوها لأنها بيع ثمر لم يخلق بعد ولم يبد صلاحه وزرع نابت لم يحصد ومن قبل أن يزرع فهذا هو الغرر المنهي عنه: الصولي، أدب الكاتب، ص٢٢١-٢٢٢.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٦.

(٣) قدامة، الخراج، ص٢١٨.

(٤) كانت وزارة علي بن الفرات الثانية في ٨ ذي الحجة سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م. الصابئ، أبو الحسن هلال بن محسن الصابئ، (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي وشركاه، ١٩٥٨، ص٣٦.

عبره[١] قبل إدراك غلاتهم وثمارهم وإكراه وجوههم وتجارهم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة .. ووجدته عائداً بخراب الضياع ونقصان الارتفاع"[٢].

وفي سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م، عاد سيف الدولة من ميافارقين إلى حران لأنه جرى من عماله على أهل حران جور شديد وظلم وتعسف[٣].

الضرائب الإضافية:

أشار أبو يوسف في كتابه إلى الأعباء الإضافية التي كان أهل الخراج يتحملونها والتي كانت سائدة في تلك الفترة فقال: "ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى[٤] ولا احتفان[٥]، ولا نزوله، ولا حمولة طعام السلطان، ولا يدعي عليهم بنقيصة فتؤخذ منهم، ولا يؤخذ منهم ثمن صحف وقراطيس، ولا أجور الفيوج، ولا أجور الكيالين ولا مؤنة لأحد عليهم في شيء من ذلك ولا قسمة ولا نائبة سوى الذي وصفنا من المقاسمة. ولا يؤخذوا باثمان الاتبان، ويقاسموا الاتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلاً، أو تباع فيقسم ثمنها على ما وصفت من القطيعة في المقاسمة[٦]. ولا يؤخذ منهم ما قد يسمونه رواجاً لدراهم يؤدونها في الخراج، فإنه بلغني أن الرجل منهم يأتي بالدراهم ليؤديها في خراجه فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها[٧].

من خلال نص أبي يوسف هذا فإنه يفهم بأن هناك ضرائب إضافية جديدة كان يعاني منها الفلاح في العصر العباسي إضافة إلى ما كان سائداً عليه قبل هذه الفترة واستمرت قائمة في عصره وهي رزق العامل، وثمن الصحف والقراطيس وأجور الفيوج. ومن الأعباء التي أشير

---

(١) العُبْرة: الكثير من الشيء: المعجم الوسيط، ج٢، ص٥٨٠، ويراد هنا على أوفر ما يكون المحصول.

(٢) الصابئ، الوزراء، ص٣٦٣.

(٣) ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف قزأغولي بن عبد الله البغدادي، (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دراسة وتحقيق جنان الهموندي، بغداد، الدار الوطنية، ١٩٩٠، ص٣٥٥.

(٤) المدى: مكيال في الشام ويساوي ست كيالج والكيلجة نحو صاع ونصف. المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٨١.

(٥) الاحتفان: وهي من الحفن بمعنى أخذ الشيء في راحة الكف والأصابع مضمومة . ابن منظور، لسان العرب، مج١٣، ص١٢٥.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٩.

إليها لأول مرة في هذا النص هي أجر المدى والاحتفان وتعني أجرة العمال الذين يقدمون الغلة إلى الكيال عند الكيل وكانت تستوفى من حصة المزارعين[١].

كما أشار أبو يوسف أيضاً إلى أثمان الأتبان فدعا إلى مقاسمة الأتبان أسوة بالحاصلات الزراعية الأخرى كالحنطة والشعير. ونصح بأن لا يؤخذ أهل الخراج بدفع ثمن نصيب السلطان من الاتبان[٢]. ربما لصعوبة النقد مما قد يضطرهم إلى بيع ما يملكون بأسعار رخيصة تكلف اهل الخراج عبئاً إضافياً فوق طاقتهم[٣]. قال أبو يوسف: "ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوّم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر ثم يؤخذ منهم ما يلزمهم من ذلك، أي ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم، وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك"[٤].

كما يرى أبو يوسف أن لا يكلف الفلاح بحمولة طعام السلطان. ويفترض أن تكون رسوم نقل طعام السلطان، ومن الأعباء الأخرى هي أجور الكيالين وكانت تؤخذ من أهل الغلة قبل القسمة[٥]. أما قدامة فقد برر بجعل أجور الكيل على الفلاح فيقول: "وكذلك الحكم في أجور الكيالين وهو أن تؤخذ من أهل الغلة قبل القسمة، وإن كان حكماً كتابياً فأصله مردود إلى الفقه. لأنه إذا كان بالكيل تتحصل حصص الجميع كانت أجور الكيالين مأخوذة من أهل الكيل"[٦]. أما القسمة فهي من الرسوم التي دعا إليها أبو يوسف إلى إلغائها، وقد وردت في نص قدامة أيضاً ويبدو أنها تعني أجور فرز الحصص بعد الكيل وتدفع نقداً[٧].

أما النائبة فهي مفرد نوائب وهي ما ينزل بالإنسان من المهمات والحوادث وفي حديث خيبر قسمها نصفين نصفاً لنوائبه وحاجاته ونصفاً بين المسلمين[٨]. فالنائبة رسم إضافي طارئ كانت تتكرر الدعوة إلى إلغائها في فترات مختلفة من العصر العباسي فقد اقترح أبو عبيد الله

---

(١) مكاحلة، نهى، الضرائب في المغرب الإسلامي في العصر الأموي، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية ، ١٩٩٩، ص١١٧.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٩.

(٣) كاتبي، الخراج، ص٢٢٧.

(٤) أبو يوسف، الخراج ، ص٥٠.

(٥) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٩.

(٦) قدامة، الخراج، ص٢٠٣.

(٧) قدامة، الخراج، ص٢٠٣. كاتبي، الخراج، ص٢٢٧.

(٨) ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٧٧٤.

على المهدي إلغاءها عند اقتراحة بتطبيق نظام المقاسمة في السواد فقال: "ولا يلزموا بعد ذلك كلفة ولا نائبة بوجه ولا بتعب إلا الحصاد والرفاع"[١]. كما دعا أبو يوسف أيضاً الى إلغائها[٢].

هذا بالإضافة إلى الضرائب الإضافية التي كانت سائدة في السابق مثل هدايا النيروز والمهرجان فقد استمر الخلفاء العباسيون في تقبل الهدايا في النيروز والمهرجان كهدية أبو العتاهية إسماعيل القاسم (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م) للخليفة المهدي فأهدى في إحداهما برنية ضخمة فيها ثوب معطر ناعم[٣].

كما يذكر مسكويه أن قيمة هدايا النيروز والمهرجان بلغت في عام (٣١٥هـ/٩٢٧م)التي قدمت للخليفة وحاشيته حوالي خمسة وثلاثين ألف دينار[٤]. بالإضافة إلى ضرائب أخرى أشارت إليها المصادر الأخرى فقد أشار ابن حوقل إلى عشور اللطف في نصيبين وهي ضرائب على الخمور وكان دخل بيت المال منها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨ خمسة آلاف دينار [٥]. كما ذكر المقريزي أن أول من وضع الخراج على الحوانيت أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور (المهدي) وكان ذلك سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م[٦]. وفي سنة ٢١٤هـ/٨٢٩م اشتكى النصارى في الرها إلى الخليفة المأمون من كثرة الضرائب عليهم فأمر بالأ تؤخذ ضريبة على الفنادق والحوانيت والحمامات والأرحاء وقال أن كل شيء له سقف ليس ملزماً بدفع الجزية (الخراج).[٧] ويبدو أن ضريبة الفنادق عادت فيما بعد إذ أشار إليها المقدسي فقال: أن في القدس ضرائب ثقال على الأرحاء والفنادق. وأن سيف الدولة غلب على شمال البلاد والضرائب فيه هينه إلا ما يكون على الفنادق فإنه منكر[٨].

---

(١) قدامة، الخراج، ص٢٢٣. الرفاع: هو رفع الزرع بعد الحصاد بمعنى نقله من الموضع الذي يحصد فيه إلى البيدر. ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٣١.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٠٩.

(٣) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م)، الكامل في اللغة والأدب، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر. د.ت. ج٢، ص٣٠٢.

(٤) مسكويه، تجارب تجارب الأمم، ج١، ص١٥٦.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٣.

(٦) المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٩٧.

(٧) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص٣٧

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٧، ١٨٩

وهكذا فقد حصلت انحرافات في أمور الجباية وتوسع في جباية الرسوم الإضافية لفترات طويلة، أعيت الخلفاء في أمرها رغم تشديد المراقبة على الجباة ومحاسبة العمال وعزلهم [١].

رؤساء الطوائف الدينية

كان لكل طائفة دينية في بلاد الشام رئيس ديني يقوم بالإشراف على أمور طائفته ويكون صلة الوصل بينها وبين الدولة. وتختار الطائفة هذا الرئيس إما عن طريق الإنتخاب أو عن طريق الوراثة. وكان يعتبر موظفاً رسمياً من موظفي الدولة لا يتم تعيينه إلا بعد موافقة الخليفة.

البطريركية النسطورية

كان بطريرك النساطره (الجاثليق) [٢] الرئيس الأكبر للنصرانية وتسند إليه الزعامة الرسمية على نصارى الدولة الإسلامية كلها وكانت الكنيسة تنتخبه ويصادق الخليفة على انتخابه ويكتب له عهداً بذلك.

وقد حفظت نسخة كتاب صادر من الخليفة الراضي ٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م إلى عبد يشوع الجاثليق البطرك[٣] ابتداه بحمد الله تعالى وذكر صفاته ودلائل وحدانيته ثم أتى فيه إلى ذكر الرسول ﷺ وصفاته ومعجزاته وعلو دينه على الأديان كلها ونسخ الملل السالفة لملته، كما يشير الكتاب إلى سلطات أمير المؤمنين وسياسته العادلة وحرصه على تفقد أمور الرعية المسلم والمعاهد وطوائف الملل الثلاث .. ثم يذكر الأسباب التي أدت إلى اختيار أبناء طائفته له لتولي كرسي البطريركية وتفرده بصفات وشروط الجثلقة كحسن السيره والأخلاق كما تضمن أيضاً شمول سلطات (الجاثليق) على جميع النصارى الموجودين في البلاد التي تضمها الخلافة العباسية [٤] ".. بترتيبك جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام ومن تضمه منهم ديار الإسلام وزعيماً لهم ولمن عداهم من الروم واليعاقبة والملكية في جميع البلاد وكل حاضر من هذه

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ج٨، ص٦٧، ص٦٤٦.

(٢) الجاثليق : هو رئيس أساقفة بلد ما والأعلى مقاماً بينهم وهو صاحب الصلاة أي الأمام. وأطلقت هذه اللفظة على رئيس نصارى النساطرة في بغداد في العصر العباسي. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، وبغداد، مكتبة النهضة، ط٢، ١٩٧٨، ج٦، ص٢٤٢.

(٣) انظر نص المرسوم في صفحة الملاحق.

(٤) ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان وبكر عباس، بيروت، دار صادر، د.ت. مج٣، ص٣٦٠ .

الطوائف وباد .." [١]. كما تضمن أيضاً سلطات الجاثليق على جميع رجال الدين لدى طائفته مثل المطران[٢] والأسقف[٣] والشماس[٤] وعليهم طاعته وتنفيذ أوامره. وإذا أبى واحد منهم النزول على حكمه كانت العقوبة وعلى شقانقه حانقة به حتى تعتدل قناته، كما أورد أهم واجبات البطرك، كاستيفاء الجزية من الشبان مرة واحدة في السنة، واتباع العادة المستمرة في موارة أمواتهم وحماية البيع والكنائس حسب الشرع الإسلامي، والقضاء بينهم والإشراف على وقوفهم والدعاء للخليفة هو وجميع رجال دينهم[٥].

ويقول الجاحظ: "ولا بد للجاثليق من قناع ومن مظلة وبرطلة[٦] ومن عكاز ومن عصا"[٧].

كما نال بطريركهم حق السكنى في مدينة بغداد، وجعلها مقراً لكرسيه وهو امتياز سعت إليه الطوائف الأخرى ولم تفلح ففي سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م وفي زمن الخليفة المقتدر ازداد عدد الملكيين في بغداد فأرسلوا إلى بطريرك أنطاكية الملكي أيليا الأول ٢٩٥-٣٢٣هـ/ ٩٠٧-٩٣٤م يطلبون مطراناً فأوفد إليهم المطران ياني فاتجه نحو بغداد وأقام في إحدى كنائس الملكيين مما أثار ضيق جاثليق النساطرة أبراهام الثالث فاحتج إلى الوزير علي بن عيسى بأن النساطرة موالون للمسلمين بخلاف يأني الأسقف الغريب وبناء عليه فهو لا يحق له أن يزاحمه في مقامه، فردّ عليه الوزير بقوله أننا نعتبركم أيها النصارى على حد سواء في بغضتكم لنا، فأطرق الجاثليق صامتاً ثم قصد أحد الكتبة الكبار ووعده بثلاثين ألف دينار إن ساعده في تنفيذ دعواه وبالفعل جاء الكاتب إلى الوزير وبحث معه مسألة المطران ياني وقال له حاشا لنا أن نساوي بين النساطرة الذين لا ملك لهم سوى ملك المسلمين وبين اليونان الذين لا يكف ملوكهم عن قتالنا. وأيد الحضور حجة الكاتب واقتنع الوزير بكلامه فأستدعى بطريرك الملكيين ايليا الأول إلى بغداد وطلب منه التوقيع على كتاب بأنه لا يحق له أن يرسل جاثليقاً أو مطراناً إلى بغداد سوى

---

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مج٣، ص٣٦٥.

(٢) المطران، وهو القاضي الذي يفصل بين النصارى في الخصومات وتأتي رتبته بين البطرك والأسقف. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٧.

(٣) الأسقف، نائب البطرك وقيل الأسقف بمنزله المفتى، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٧.

(٤) الشماس، هو الذي يكون مسؤولاً عن الكنيسة (قيم الكنيسة) ويساعد القسيس في أداء واجباته الدينية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٧.

(٥) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مج٣، ص٣٦٥-٣٦٨.

(٦) البُرطلة، المظلة الصيفية، والبرطل، القلنسوة. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٥١.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، مج٣، ص٩٠.

أن يرسل رجلاً يتفقد أحوال رعيته ويعود إلى وطنه. فسر بذلك جاثليق النساطرة وأدى للكاتب ثلاثين ألف دينار[١].

وقد بلغ النساطرة هذا المبلغ من النفوذ والتسلط لكثرة من كان منهم في العراق وبلاد فارس وكان معظم كتاب الخلفاء العباسيين وأطبائهم من النساطرة[٢].

البطريركية اليعقوبية:

كان مقر بطريرك اليعاقبة في مدينة أنطاكية[٣]، وكان يكتب للبطريرك اليعقوبي نسخة توقيع من الخليفة بعد أن تنتخبه الكنيسة يحدد فيه مهام البطريرك. وقد أورد القلقشندي نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقبة في سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م[٤] افتتح الكتاب بحمد الله وشكره على نعمه وذكر دلائل وحدانيته وذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم(وآله وصحبه ثم يذكر سلطة أمير المؤمنين على جميع الملل ومنها اليعقوبية وأنه من واجب الدولة أن تعين بطريركاً عليهم يقوم على أمورهم بعد السماح لطائفته بانتخابه ثم يذكر ألقاب البطريرك مثل القديس المبجل الجليل المكرم الموقر الكبير الديان الرئيس الروحاني الفاضل الكافي المؤتمن فلان عماد بني المعمودية، كنز الأمة المسيحية..، ركن الطائفة النصرانية، اختيار الملوك والسلاطين، وبعد ذكر الألقاب يذكر صفاته وفضائله التي أعطته الترقي على أبناء جنسه كالتقشف والعبادة وعلمه ومعرفته في أحكام طائفته وشريعتهم وأوامرهم ونواهيهم. ثم يحدد في الكتاب واجبات البطريرك نحو أبناء طائفته وهي الفصل بينهم حسب أحكامهم الدينية ومسؤوليته عن رجال كنيسته مثل القسيسين والرهبان والشمامسة. زاجراً من يخرج منهم عن اتباع طريق الشريعة المطهرة التي يصح بها عقد الذمة؟ آمراً من في الديرة من الرهبان بمعاملة المارين بهم والنازلين عليهم بمزيد من الإحسان والقيام بالضيافة المشروطة من الشراب والطعام. والتحدث في قسمة مواريثهم إذا

---

(١) الزيات، الروم الملكيون ، ج١، ص٢٨. أرملة السرياني، اسحق، الملكيون بطريركتهم الأنطاكية ولغتهم الوطنية والطقسية، مجلة المشرق، مج ٣٤، ١٩٣٦. ص٢٢١. حتي، فيليب، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، ط٥، ١٩٧٤، ص٢٢٤. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج١، ص٥٠.

(٢) الزيات، الروم الملكيون، ج١، ص٢٩.

(٣) المسعودي، التبنية والأشراف، ص ١٤٦.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٩٣. لم أعثر في المصادر الأولى التي تعود للفترة العباسية على نسخة توقيع لبطريرك اليعاقبة والملكيين وبمقارنة هذه التواقيع بتوقيع بطريرك النساطره الصادر من الخليفة الراضي ٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠م فإنها تتشابه في المضمون من حيث الوصايا والواجبات.

ترافعوا إليه، والفصل بينهم. ثم يوصيه بالشفقة على الكبير والصغير، والتنزه عن متاع الدنيا والنظر والاطلاع على أحكام دينه مما يرفعه بين أبناء جنسه في الحياة الدنيا[١].

وكثيراً ما كان الخليفة يتدخل في اختيار البطريك[٢]. ففي سنة ١٣٨هـ أو ١٣٩هـ/٧٥٥، ٧٥٦م. أمر الخليفة المنصور بتعيين الراهب إسحاق الحراني بطريركاً على الكنيسة اليعقوبية في أنطاكية بالرغم من أن الكنيسة لم تكن راضية عليه وذلك لأنه كان أثيراً عند الخليفة لعلمه في الكيمياء وقدرته على تحويل الفضة إلى الذهب وخلع عليه المنصور ثوباً من الخزانة الشريفة واستلم منصب البطريركية، ومضى في دراسة الكيمياء ولكن أمره اكتشف فقتل ورميت جثته في الفرات. ويعلق التلمحري على هذا بقوله: "لا خير في الرتب التي تنال جزافاً" فالذي رفعه ورقاه كان هو الذي حطه وهلكه[٣].

حينئذٍ طلب المنصور من الأساقفة اختيار اثناسيوس بطريركاً وأعطاه مرسوماً يقره على ذلك وأعانه بالجند اللازم لتأييد مركزه إلا أن اثناسيوس لم يلبث في كرسي البطريركية غير عامين وتوفي سنة ١٤١هـ/٧٥٨م [٤]. وكثيراً ما كان يقع الخلاف بين رجال الدين بسبب العداوة والحسد والوشاية على بعضهم لدى الخلفاء من أجل تولي كرسي البطريركية. ففي سنة ١٤١هـ/٧٥٨م وبعد وفاة اثناسيوس تولى البطريركية لليعاقبة جرجي الأول أو جورجيوس ١٤١-١٧٤هـ/٥٨٧-٧٩٠م من قرية بعلتان. وقد تربى في صباه بدير قنسرين فضغن عليه كلاً من أسقف)الرقة) يوحنا وأسقف دارا (داود) ولم يرغبا به لأن كلاً منهما كان يرغب بالبطريركية ونصب أهل الجزيرة أسقف الرقة بطريركاً فوقع انشقاق في الكنيسة[٥]. وفي سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م توفي يوحنا وبقي جيورجيس فذهب داود أسقف دارا إلى بغداد ووشى للخليفة

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٩٣-٣٩٤.

(2) Runciman, Sir Steven, The Historic Role of the Christian Arabs of Palestine. Britain: Longman for the University of Essex, 1970. P.9.

(٣) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١١٠، ٩٢.

تواريخ سريانية من القرن ٧-٩م، نقل وتحقيق يوسف حبي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، الهيئة السريانية، ١٩٨٢. ص٨. وسيشار له فيما بعد هكذا، تواريخ سريانية. ترتون، اهل الذمة، ص٨٧. أرملة السرياني، في البطريركية الأنطاكية، مجلة المشرق. السنة ٢١، ١٩٢٣، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، للآباء اليسوعيين، ص٥٠٤.

(٤) تواريخ سريانية، ص١٠، ترتون، أهل الذمة، ص٨٦.

(٥) التلمحري، التاريخ المنحول، ص ١١-١١٥. أرملة السرياني، في البطريركية الأنطاكية، ص٥٠٤. بعلتان: قرية مندثرة كانت جنوبي حمص من عمل جوسيه. التلمحري، المصدر السابق، ص١١٢.

المنصور من أن البطريرك جورجيوس لم يحصل على تأييد رسمي من الخليفة بحجة أنه لا يقبل بأن يدخل اسم النبي ﷺ على مدينتهم فاستدعاه المنصور وسأله عن ذلك فاحتج على هذه التهم ونفاها، وقال: "انه يحمل اشياء كثيرة عليها اسم النبي مثل النقود والدنانير. وبرر سبب عدم حمله تأييد رسمي بأنه لا يريد أن يفرض نفسه على طائفته فرضا[١]. فأمر الخليفة بخلعه وضربه ثم زجه بالسجن مع جاثليق النساطرة وبطريرك أنطاكية الملكي[٢]. وانتخب داود لكرسي البطريركية في سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م، استجابة لرغبة الخليفة المنصور وزوده ببراءة تخوله سلطاناً يستطيع بموجبه أن يزج بالسجن ويقتل من يخاصمه أو يتصدى لأوامره، ولما بلغ داود مدينة أنطاكية تجمع الناس ونعته معارضوه بالسفاح لأنه كان له ضلع في سجن جورجيوس وابتدأ النزاع داخل كنيسة القسيان وغصت ساحتها بالجنود والفرسان بدل القسوس ورجال الدين إلا أن داود كان معتدلاً في موقفه ولم يتخذ أي موقف ضد من يخالفه، بينما وقف البعض على الحياد ولحق الرهبان والأساقفة صنوفاً من السخرية والعار بسبب ذلك ولم يعد أحدهم يقوى على السير وحده في أسواق المدن. وصار الناس ينعتوهم بقتلة وسفاحين واستمر الشغب يمزق الكنائس حتى وافى الأجل داود. وعودة جورجيوس للبطريركية وذلك بعد وفاة الخليفة المنصور[٣].

ولم تنته هذه الأحداث عند هذا الحد بل استمر التنافس والحسد فيما بينهم ففي سنة ـ/٨٠٧م حدثت فتنة كبرى في أنطاكيا بسبب النزاع الذي حصل بين البطريرك الأنطاكي قرياقس ١٧٧-٢٠٢هـ/٧٩٣-٨١٧م وأسقف قورس،[٤] ورفضوا المناداة باسم قرياقس البطريرك وكتبوا إلى الخليفة هارون الرشيد بذلك واتهموا البطريرك بمكاتبة الروم وبقتل أسقف يدعى شمعون لكن الخليفة وقف إلى جانب البطريرك وأيده. بعد أن تحقق من بطلان تلك الإفتراءات[٥].

---

(١) التلمحري، تاريخ المنحول، ص١٥٠-١٥٧. تواريخ سريانية، ص١١-١٢.

(٢) التلمحري، المصدر السابق، ص ١٥٧. أرملة السرياني، في البطريركية الأنطاكية، ص٥٠٤، الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٣، مج٥، ص٢٥٥.

(٣) التلمحري، التاريخ المنحول، ص ١٥٧، ١٥٩. ترتون، أهل الذمة، ص٨٧. أرملة السرياني، في البطريركية الأنطاكية، ص٥٠٤. صكبان علي، جاسم، التاريخ العربي والإسلامي من خلال المصادر السريانية العراقية، الكويت، عالم الفكر، ص٦٩٢. تواريخ سريانية، ص١٣.

(٤) قورس: بالضم ثم السكون، مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤١٢.

(٥) تواريخ سريانية، ص١٩. فييه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسني زينه، بيروت، دار المشرق، ش م م. ١٩٩٠، ص٩٠.

وفي عهد الوالي عبد الله بن طاهر وقع نزاع بين البطريرك ديونيسيوس ٢٠٣-٢٣١هـ/٨١٨-٨٤٥م وبين الأسقف أبراهام ورجاله الذي كان يطمع في البطريركية، فأذن الأمير للبطريرك بالدخول قبل الشاكين والسماح إليه فسأله عن خبرهم فأنبأه البطريرك بكل ما فعلوه وكيف كانت معارضتهم لأسلافه وأنهم لا يبغون إلا إثارة الاضطرابات في البلاد، عندها أمر الوالي الجند بأن يذهبوا ويسألوا آلاف النصارى المجتمعين في الخارج عمن يكون بطريركهم الشرعي فصاحوا لا بطريرك لنا سوى ديونيسيوس، فلما رأى عبد الله بن طاهر ذلك نظر إلى ابراهام نظرة تعنيف وقال له: "يا لك من منافق هذا هو البطريرك الحقيقي" وسرعان ما أخذ لباس البطريرك أبراهام وقال له "لا تدعني مرة أخرى أسمع أنك لبست البيرن[١] أو أمسكت عصاالرعوية أو نوديت بأنك البطريرك . وإذا سمعت بعد الآن أنك سافرت في البلاد فدمك مهدور فعاد ديونيسيوس إلى أنطاكية وكان عبد الله شفيعاً به ومبجلاً له[٢]. وفي سنة ٢١٦هـ/٨٣١ استصحب الخليفة المأمون البطريرك ديونسيوس إلى مصر لتهدئة ثورة الأقباط هناك ولم يقيض لوساطته النجاح[٣] وبعد وفاة الخليفة المأمون سار البطريك ديونسيوس إلى بغداد لتهنئة عقدهم والسلام عليه[٤]

وأحياناً كثيرة كان كرسي البطريركية يخلو لعدم وجود من يصلح للبطريركية أو عدم اتفاقهم على تعيين بطريركاً عليهم. كما حدث للبطريركية اليعقوبية في الأعوام ما بين ٢٣١-٢٣٣هـ/٨٤٥-٨٤٧م ومن ٢٧٠-٢٧٤هـ/٨٨٣-٨٨٧م ومن ٣٥٢-٣٥٥هـ/٩٦٣-٩٦٥م[٥].

وفيما يلي قائمة ببطاركة الكنيسة اليعقوبية في العصر العباسي ما بين ١٣٢-٣٥٩هـ/٧٤٩-٩٦٩م[٦]:

يوحنا الرابع	١٢٣-١٣٨هـ/٧٤٠-٧٥٥م
اسحق الأول	١٣٨-١٣٩هـ/٧٥٥-٧٥٦م.

---

(١) البيرن: ترجمة لكلمة Pallium الإفرنجية وتعني البرنس والبرنس لفظ فارسي وقيل أن البيرن اشتق منه وهو ثوب يطرح على الرأس وينزل على الكتفين وكان جاثليق المدائن ينفرد بلبسه. ترتون، أهل الذمة، ص٨٩. هامش رقم (١).

(٢) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢ ص ٣٠٣ - ٣٠٤. ترتون، أهل الذمة، ص٨٨-٨٩.

(٣) ابن العبري، تاريخ الزمان ص٢٨. فييه، أحوال النصارى، ص١١٧.

(٤) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص ٣٠٧

(٥) ارملة السرياني، في البطريركية الأنطاكية، ص٥٠٦.

(٦) ارملة السرياني، في البطريركية الأنطاكية، ص٥٠٠-٥٠٧.

اثناسيوس الرابع	١٣٩-١٤١هـ/٧٥٦-٧٥٨م.
جرجي أو جرجس الأول	١٤١-١٧٤هـ/٧٥٨-٧٩٢م.
يوسف	١٧٤-١٧٦هـ/٧٩٠-٧٩٢م.
قرياقس	١٧٦-٢٠٢هـ/٧٩٣-٨١٧م.
ديونيسيوس الأول المعروف بالتلمحري	٢٠٣-٢٣١هـ/٨١٨-٨٤٥م.
يوحنا الخامس	٢٣٢-٢٦١هـ/٨٤٧-٨٧٤م.
اغناطيوس الثاني	٢٦١-٢٧٠هـ/٨٧٤-٨٨٣م.
ثاودوسيوس	٢٧٤-٢٨٢هـ/٨٨٧-٨٩٥م.
ديونوسيوس الثاني	٣٢٨-٢٩٧هـ/٨٩٦-٩٠٩م.
يوحنا السادس	٢٩٨-٣١٠هـ/٩١٠-٩٢٢م.
باسيل الأول	٣١١-٣٢٤هـ/٩٢٣-٩٣٥م.
يوحنا السابع	٣٢٥-٣٤٢هـ/٩٣٦-٩٥٣م.
يوحنا الثامن	٣٤٣-٣٤٦هـ/٩٥٤-٩٥٣م.
ديونوسيوس الثالث	٣٤٧-٣٥٠هـ/٩٥٨-٩٦١م.
ابراهيم الأول	٣٥١-٣٥٢هـ/٩٦٢-٩٦٣م.
يوحنا التاسع	٣٥٤-٣٧٦هـ/٩٦٥-٩٨٦م.

البطريركية الملكية في انطاكيا

يذكر المسعودي أنه كان للملكيين أربعة بطاركة أولهم صاحب رومية والثاني صاحب مدينة القسطنطينية ثم الثالث صاحب الاسكندرية والرابع صاحب انطاكية وقد أحدثوا كرسياً خامساً في بيت المقدس ولم يكن هذا متقدماً وإنما هو محدث فصارت البطاركة خمسة إلى هذا الوقت المؤرخ به كتابنا وهي سنة ٣٤٥هـ/٦٩٥م جميعها للملكيين[١].

فمقر البطاركة الملكيين في بلاد الشام كان مدينة أنطاكية ومدينة القدس. وبطريركية أنطاكيا هي الأقدم. ويقول عنها المسعودي "مدينة أنطاكية فيها كرسي البطرك العظيم عندهم في ديانتهم وأن النصرانية تسمي أنطاكية مدينة الله ويسمونها أيضاً مدينة الملك وأم المدن لأن بدء ظهور النصرانية كان فيها[٢].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٩٩.

(٢) المصدر نفسه ج٢، ص١٩٩.

وبقي بطريرك أنطاكية مقيماً في بطريركيته في العصر العباسي منذ أن سمح له الخليفة هشام بن عبد الملك بالعودة إلى الإقامة في أراضي الدولة وذلك سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م[١]. ولكن هذا الحق الذي أقر به الخلفاء أخيراً للملكيين لم يدفع عنهم عادية الظنون في استمرار ميلهم للبيزنطيين وبقيت هذه التهمة شاملة متلبسة بهم إلى سقوط دولة المماليك[٢]. فكانت تسجل عليهم في نسخ التواقيع التي كانت تسلم لكل بطريرك منهم جملة من الوصايا، فبعد أن يفتتح الكتاب كبقية الكتب التي كانت تكتب لبقية البطاركة كحمد الله وذكر صفاته ووحدانيته وذكر الرسول ﷺ والتشديد على أن الدين الذي جاء به فوق الأديان كلها ونسخه لكل الملل السابقة لملته وذكر سلطان الخليفة على كل أصحاب الطوائف في دولته وسيطرتها عليهم ومعاملته لهم بالعدل والإنصاف. وذكر اسباب اختيار الطائفة لهذا البطريرك وتميزه بصفات عنهم كحسن السيرة والخلق والمعرفة والعلم بأحكام دينهم. ثم يقدم له جملة من الوصايا كالتأدب بالصفات الحسنة مثل المسامحة والاحتمال والصبر على الأذى وعدم الاستكثار من متاع الدنيا والعمل على الصلح بين المتحاكمين وأن ينقي صدور إخوانه من الغل لأنه رأس جماعته والكل تابع له وأن يتنزه عن أموال جماعته وإياه أن يتخذها تجارة مربحة، وأن لا يقدم منهم إلى رتبة إلا من استصلحه وإليه أمر الكنائس والبيع وعليه تفقدها في كل وقت ويرفع حاجتها من الشبهات ويحذر رهبان الديارات من جعلها مصيدة للمال وأن يتجنبوا الخلوة فيها بالنساء. وأن لا يؤوي إليه أحداً من الغرباء القادمين بما يريب ولا يخفي كتاباً يرد عليه من أحد الملوك أو يكتب جواباً ويتجنب البحر وما يرد منه من مظان الريب[٣].

فهذه التحذيرات الأخيرة تدل على عدم الثقة بهم والظن بهم أنهم عيون للأباطرة البيزنطيين في ديار الإسلام على حين كانت كتب بطاركة اليعاقبة والنساطرة خالية من هذا التعريض.

وفي بداية الدولة العباسية كان بطريرك أنطاكية الملكي ثاودريط ١٧١-١٩٨هـ/٧٨٧-٨١٣م. ابن عامل ارمينية الصغرى، قد درس اليونانية فسببت له معرفته باليونانية وأصله

(١) يتيم، الأب ميشيل، تاريخ الكنيسة الشرقية، حلب، المطبعة المارونية، د.ت، ص٧٩. وسيشار له فيما بعد هكذا، يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية.

(٢) أرملة السرياني، الملكيون، ص٣٣٢. Runciman, The Historic Role P.8

(٣) ابن فضل الله العمري، لتعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، ١٣١٢هـ/١٨٩٤م. ص١٤٥ (وصية بطرك الملكيين). القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٠٠.

الشكوك والاتهام بأن له علاقات مع الدولة البيزنطية فنفي إلى أرض مآب [١]، وفي سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م غزا الروم زبطرة وملطية وأحرقوا وقتلوا وسبوا النساء مما أثار غضب الخليفة المعتصم ٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م فسار إلى بلاد الروم غازيا[٢]، وحمل معه البطريرك أيوب فحاصر مدينة أنقرة وكان البطريرك يكلم الروم بالرومية ويقول لهم: أطيعوا السلطان وأدوا الجزية خيرٌ من أن تقتلوا وتسبوا " وكان الروم يشتمونه ويرمونه بالحجارة، وفتح المعتصم مدينة أنقرة وأحرقها ثم سار إلى عمورية فحاصرها مدة ستة أشهر وكان في كل يوم يتقدم البطريرك إلى الحصن ويخاطب الروم ويخوفهم ويسألهم إعطاء الجزية لينصرف عنهم المعتصم فكانوا يشتمونه ويرمونه بالحجارة[٣]. فلم تزل هذه حالهم حتى فتح المعتصم عمورية[٤].

وكثيراً ما كان الولاة والحكام يتدخلون لفض النزاع بين رجال الدين حول تولي كرسي البطريركية، فقد ظل الكرسي الأنطاكي فارغاً سنتين بعد أيوب ثم التأم الملكيون للانتخاب البطريركي فانتخب نيقولا الأول ٢٣٢-٢٢٥هـ/٨٤٧-٨٦٦م الدمشقي الأصل وقام انسطاثيوس مطران صور يزاحمه في تولي كرسي البطريركية. ومنع مشايعو انسطاثيوس نيقولا وجماعته من دخول مدينة أنطاكية وظلوا شهرين كاملين خارج المدينة حتى كتب والي سورية إلى عامل انطاكية بالتدخل لفك الخلاف فأدخلوهم إلى المدينة يحف بهم شرذمة من الجنود مدججين بالسلاح ويضربون المعارضين واستمر المعارضون بالشغب ومنعوا البطريرك من دخول الكنيسة وأغلقوا الأبواب في وجوههم. فاضطر الجند لكسر أبوابها والقبض على المعارضين وزجهم بالسجن فدخل البطريرك نيقولا كنيسة القسيان ووزع على العامل وجنوده الأواني الفضية والذهبية ثم عين العامل رجلاً يقبض منهم كل شهر ثلاثين ديناراً يجلس عند المذبح ليحافظ على الهدوء والسكينة ويكفهم عن النزاع والضرب واستمر الخلاف نحو عشر سنوات حتى توفي

---

(١) ارملة السرياني، الملكيون بطريركيتهم الأنطاكية، ص٢١٦. الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٣، مج٥، ص٢٥٧.

Theophens, The Chronicle, P. 119.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٩٦. الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص٥٦. ابن العبري، مختصر الدول، ص١٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٣.

(٣) ابن البطريق، البطريرك افتيشيوس المكنى سعيد ابن البطريق، (ت٣٢٨هـ/٩٤٠م)، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩، ص٦٠. ارملة السرياني، الملكيون، ص٢١٨-٢١٩. المخلصي، الأب يوسف شماس، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، لبنان، المطبعة المخلصية، ١٩٤٩، ج٢، ص٤٧.

(٤) البلاذري، فتوح، ص١٩٦. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٥٦. ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٦٠. ابن العبري، مختصر الدول، ص١٤٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص١٩٣.

أنسطاثيوس ٢٤٤هـ/٨٥٨م وساس نيقولا الكرسي مدة تسع سنوات من بعده حتى عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م(١). وبعد وفاة نيقولا الأول عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م. ظل الكرسي البطريرك شاغراً حتى ٢٥٦هـ/٨٧٠م. (٢)

ولعب البطارقة الملكيين في العصر العباسي دور الوسيط بين العباسيين والبيزنطيين ففي خلافة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م روى الوزير علي بن عيسى أن عامل الخليفة في الثغور كتب إليه يخبره بأحوال أسارى المسلمين وأنهم في بلاء وجهد فأشار إليه القاضي مكرم ابن بكر بن عمر ابو يحيى بن مكرم بأن يوسط بطريرك القدس الملكي (الجاثليق) وبطريرك انطاكيا في أمور هؤلاء الأسارى لدى ملك الروم لأن لهؤلاء البطاركة سلطة وحرمة عليه والرجلان في ذمتنا وتحت سلطاننا، وبالفعل أرسلا إلى القسطنطينية فهددا ملك البيزنطيين وحرمانه والبراءة منه إذا استمر في معاملته القاسية للأسرى. وإكراههم على التنصر فخفف عنهم وأحسن إليهم(٣).

ونتيجة لاستمرار الحروب بين المسلمين والروم فرغ الكرسي الأنطاكي زهاء اثني عشرة سنة ٣٣٧-٣٤٩هـ/٩٤٨-٩٦٠م. وفي سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م تولى الكرسي البطريركي خرسطفور ٣٤٩-٣٥٦هـ/٩٦٠-٩٦٧م. الذي كان صديقاً لسيف الدولة الحمداني ٣٣٣-٣٥٦هـ/٩٤٤-٩٦٦م وكانت الحروب بين البيزنطيين والمسلمين سجالاً(٤). ولما ثارت الفتنة على سيف الدولة في أنطاكية سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م(٥). خرج البطريرك من أنطاكية لئلا تقع عليه الشكوك وسار إلى دير

---

(١) ارملة السرياني، الملكيون بطريركيتهم الأنطاكية، ص٢١٩-٢٢٠.

(٢) أنظر جدول أسماء البطاركة الملكيين.

(٣) الصابيء، الوزراء، ص ٣٥٤-٣٥٦. التنوخي، نشوار المحاضرة، ج١، ص٥٢-٥٣.

(٤) أرملة السرياني، الملكيون بطريركيتهم الأنطاكية، ص٢١٥. عن حروب سيف الدولة والبيزنطيين، انظر كتاب ذيول تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، د.ت. مسكويه، أبو تجارب الأمم، ج١، ص١٤، ١٢٥، ١٤٣، ١٨٠. ابن ظافر الأزدي، الشيخ جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين (ت٦١٣هـ/١٢١٦م)، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، إربد، مؤسسة حمادة ودار الكندي للنشر، ابن الأثير، الكامل ، ج٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٨٤.

(٥) في سنة ٣٥٤هـ/٩٦٤م كان سيف الدولة الحمداني في ميافارقين وتغلب على أنطاكية رشيق النسيمي بمساعدة ابن الأهوازي ثم سار إلى حلب وقاتله نائب سيف الدولة قرعويه حتى قتل. وبقي ابن الأهوازي في أنطاكية إلى أن عاد إليها سيف الدولة وألقى القبض عليه وقتله. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٨٨، وفي نفس السنة هاجم البيزنطيون الجزيرة الفراتيه وساروا إلى الشام ونازلوا أنطاكية ثم ساروا عنها إلى طرسوس. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٨٨، ٢٩٥.

القديس سمعان العمودي[١] وبقي هناك إلى أن عاد سيف الدولة فقصده البطريرك إلى حلب فأحسن استقباله وشكر له ما فعل. وبعد وفاة سيف الدولة ٣٥٦هـ/٩٦٦م. اتفق شيوخ أنطاكية على البطريرك واتهموه بمكاتبة البيزنطيين وقتلوه وألقيت جثته في النهر، وساروا وقبضوا على ما وجدوه في منزل البطريرك وفي خزانة الكنيسة من آنية وفضة وقماش وأخذوا معهم كرسي ماربطرس وهو كرسي من خشب النخل مصفح بالفضه وحفظوه في أحد بيوت شيوخهم. وبعد ثمانية أيام ظهرت جثة البطريرك على جزيرة في النهر فخرج قوم من النصارى وأخذوها سراً ودفنوها في دير خارج المدينة، ولبث كرسي أنطاكية بعد مقتل البطريرك شاغراً سنتين وتسعة أشهر[٢].

وفيما يلي جدول بأسماء البطاركة الملكيين ما بين ١٣٢-٣٥٩هـ/٧٤٩-٩٦٩م[٣]:

ثاوفيلكط	١٢٨-١٥١هـ/٧٤٥-٧٦٨م. شغوره مدة تسعة عشر سنة.
ثاودريطس	١٧١-١٩٨هـ/٧٨٧-٨١٣م.
أيوب	١٩٨-٢٣١هـ/٨١٣-٨٤٥م.
نيقولا الأول	٢٣٣-٢٥٢هـ/٨٤٧-٨٦٦م.
اسطفان الرابع	٢٥٧هـ /٨٧٠م أقام يوماً واحداً ومات.
ثيودوسيوس	٢٥٧-٢٧٧هـ/٨٧٠-٨٩٠م.
سمعان	٢٧٩-٢٩٥هـ/٨٩٢-٩٠٧م.
ايليا الأول	٢٩٥-٣٢٣هـ/٩٠٧-٩٣٤م.
ثيودوسيوس الثاني	٣٢٤-٣٣٢هـ/٩٣٥-٩٤٣م.

---

(١) دير القديس سمعان: ينسب هذا الدير إلى أحد كبار النصارى وله عدة ديره منها دير بنواحي دمشق والثاني بجبل لبنان وآخر بنواحي أنطاكية وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وقيل أن دخله في السنة أربعمائة دينار. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١٧. ويظهر أن هذا الدير الذي التجأ إليه البطريرك.

(٢) الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت٤٥٨هـ/١٠٦٧م)، تاريخ الأنطاكي والمعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، طرابلس، جروسي برس، ١٩٩٠، ص١١٦-١٢٠. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٤٥. المخلصي، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، ص٥١. أرملة السرياني، الملكيون بطريركيتهم الأنطاكية، ص٢٢٣-٢٢٤.

(٣) أرملة السرياني، الملكيون بطريركيتهم الانطاكية، ص٢١٥-٢٢٤.

ثويخرسطس ٣٣٣-٣٣٧هـ/٩٤٤-٩٤٨م فرغ الكرسي بعده زهاء اثنتي عشرة سنة بسبب الحروب بين البيزنطيين والمسلمين.

خرسطفور ٣٤٩-٣٥٧هـ/٩٦٠-٩٦٦م.

ثيودور الأول ٣٦٠-٣٦٦هـ/٩٧٠-٩٧٦م.

البطريركية الملكية في القدس:

في بداية العصر العباسي كان على بطريركية بيت المقدس ثيوذوروس ١٢٨-١٥٣هـ/٧٤٥-٧٧٠م. وبعد وفاته انتخب البطريرك ايليا الثاني ١٥٣-١٨١هـ/٧٧٠-٧٩٧م وفي سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م قام الخليفة المهدي بنفيه إلى بلاد فارس بناء على وشاية أبلغت عنه من قبل الراهبين ثيودور وباسيلوس وغصب ثيودور المذكور البطريركية إلى أن رد ايليا إلى بطريركيته واستمر فيها إلى أن توفي سنة ١٨١هـ/٧٩٧م. وخلفه جاورجيوس ١٨١-١٩٣هـ/٧٩٧-٨٠٧م. وكان كاتبه وقد اختاره للبطريركية قبل وفاته[1]. وفي أيامه جاء بعض الرهبان البندكتيين من الغرب وأقاموا لهم ديراً على جبل الزيتون ويظهر أن هذا البطريرك كان على علاقة حسنة مع الإمبراطور شارلمان إذ أرسل إليه صدقات لتوزيعها على المسيحيين هناك[2].

هذا ويبدو أن الدولة العباسية كانت تراقب اتصالات بعض البطاركة مع الدولة البيزنطية خصوصاً عندما كانت العلاقة تسوء بين المسلمين والبيزنطيين. ففي سنة ١٣٧هـ/٧٥٤، لم يتمكن البطاركة الملكيين في القدس والإسكندرية وانطاكية من حضور المجمع الكنسي الذي دعا إليه الأمبراطور قسطنين الخامس ٧٤١-٧٧٥م الذي أكد فيه على السياسة الدينية المناهضة للصور المقدسة. فأرسل بطريرك بيت المقدس رسالة إلى الامبراطور البيزنطي يعتذر فيها عن عدم تمكنه من الحضور ويطلق فيها على الحكام المسلمين لقب أعداء الصليب [3]. وفي الرسالة التي

---

(١) الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٣، مج٥، ص٢٥٨. خوري، شحادة ونقولا، خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٥، ص٢٥. المخلصي، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، ج٢، ص٣٧. لا تذكر المصادر سنة رد البطريرك إلى منصبه.

(٢) المخلصي، المرجع السابق، ص١٧. بارتولد، و.، دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى، ترجمة عزيز حداد، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، ١٩٧٣، ص٢٣ مقدمة الكتاب دور فلسطين في العلاقات بين الشرق والغرب في العصر العباسي تقديم فاروق عمر فوزي.

(3) Senick, Robert, Christiantiy In the Patriarchate of Jerusalem In the Early Abbasid Period A. D 750-813 P.14-15

المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ١٩٩٠. وسيشار له فيما بعد هكذا: Senick, Christiantiy.

وجهها ثيونسيوس الثاني ٢٤٨-٢٦٥هـ/٨٦٢-٨٧٨م إلى أغناطيوس بطريرك القسطنطينية يعتذر فيها أيضاً عن حضور المجمع المسكوني الثامن المنعقد في سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م. ويعتذر عن مراسلة بطريرك القسطنطينية باستمرار خوفاً من مراقبة الدولة له [١]. كما يذكر في رسالته من أن السلطات الإسلامية عادلة ولم تنزل بنا الضرر ولم تظهر شيئاً من العنف نحونا[٢].

كما أن الخلفاء لم يمنعوا البطاركة من تلقي التبرعات من الدول المسيحية فقد وصل في عهد هذا البطريرك تبرعات جمة من الفرنج إذ كتب إلى جميع نبلاء مقاطعات الفرنج يطلب منهم مساعدات من أجل إعادة بناء وترميم الكنائس في القدس وقام الفرنج بجمع التبرعات من أجل ذلك حتى أنهم قاموا برهن أراضي وممتلكات الكنائس والحقول وكروم الزيتون من أجل زيادة كمية التبرعات واستمرت التبرعات تقدم من الفرنج وقد زادت في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي حتى وصلت تبرعات من أبعد المناطق الفرنجية[٣].

كما اعتاد البطاركة أن يقدموا الهدايا والأموال في المناسبات والأعياد إلى الولاة والحكام في سبيل كسب رضاء الوالي وإبقائهم على كرسي البطريركية. ففي عهد الوالي محمد بن إسماعيل الصناجي حاكم بيت المقدس اعتاد بطريرك المدينة يوحنا ٣٥٣-٣٥٦هـ/٩٦٤-٩٦٦م أن يقدم له الأموال فدفع له كل ما في إمكانه إلا أن الوالي ظل يطالبه بأكثر مما أعطاه فتوجه البطريرك إلى مصر وشكاه إلى كافور الإخشيدي وشكا أيضاً قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة، وسمع كافور شكواه وأصحبه برسالة توجيه إلى حاكم القدس بعدم إقلاق راحة البطريرك إلا أن الحاكم استمر في مطالبته بالأموال. فالتجأ البطريرك إلى حاكم الرملة فسخط عليه الصناجي وطلب مقابلته فأبى ذلك فذهب الصناجي إلى دار البطريركية يتبعه عدد كبير من المسلمين واليهود وهرب البطريرك إلى كنيسة القيامة واختبأ في أحد صهاريج الزيت فاهتدى إليه مطاردوه بعدما أحرقوا كنيسة القيامة وكنيسة صهيون وقتلوا البطريرك داخل الكنيسة وكان ذلك سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م[٤].

---

(١) المخلصي، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، ص٣٧-٣٨. جاسر، شفيق، تاريخ القدس. عمان، مطابع الإيمان، ط٢، ١٩٨٩، ص٦٤.

(٢) رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج١، ص٤٩. بارتولد، دراسات في تاريخ فلسطين ، ص١٦٨.

(3) Moshe, A Hisoty of Palestine 1992. P. 478.

(٤) مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١. الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص١١٠. جودة، صادق أحمد، مدينة الرملة منذ نشأته حتى عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. بيروت مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ص٢٣٩.

وتعود هذه الشدة مع البطريرك لما عانته بلاد الشام في تلك الآونة من هجمات البيزنطيين المتكررة على أراضيها وخاصة مدن الثغور ومراسلة البطريرك للبيزنطيين. ففي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م فتح نقفور فوقاس[١] عين زربه[٢] وأخرج أهلها منها ودخلت جنود الروم إلى المدينة ينهبون إلى آخر النهار ودخلوا إلى الجامع بخيلهم ورجالاتهم وصعد نقفور على المنبر وعلت أصواتهم بالتقديس وبدل الآذان بضرب النواقيس ووضعت المصاحف تحت الأقدام ورفعت الصلبان في الجوامع[٣]. وفي سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م دخل الروم حلب في مائتي ألف وقتلوا خلقاً كثيراً من سكانها ودخلوا دار سيف الدولة ونهبوها وداروا في البلد يقتلون من لقوه وأسروا نحو بضعة عشر ألفاً ما بين صبي وصبية والعديد من النساء. ثم دخلوا عين زربة ثانية وهدموا جامعها[٤]. وفي سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م سار ملك الروم (نقفور) إلى المصيصة وفتحها بالسيف فقتل خلقاً كثيراً من سكانها ثم سار إلى طرسوس وأعطى أهلها الأمان وجعل جامعها اصطبلاً لدوابه ونقل ما فيه من القناديل إلى بلده وسار إلى طرابلس وعزم على قصد القدس[٥]. وفي سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م حاصر ملك الروم أنطاكية فلم يقدر عليها فانصرف إلى طرسوس بعد أن خرب ما حولها[٦]. ويعلق رنسيمان على هذه الأحداث بقوله "ولتحول هذا الموقف إلى جانب البيزنطيين نهض كل الشرق المسيحي وأدرك أن وقت الخلاص قد حان وكتب اليه بطريرك بيت المقدس يحثه بالإسراع في القدوم إلى القدس وهذه الخيانة بلغت من الشدة استنفذت صبر المسلمين فتقرر

---

(١) كان نقفور فوقاس في ذلك الوقت يتولى قيادة الجيش الإمبراطوري أيام الإمبراطور رومانوس الثاني ٣٤٨-٣٥٢هـ/٩٥٩-٩٦٣م وفي سنة ٩٦٣م عاد إلى بيزنطة ودبر انقلاباً في الإمبراطورية البيزنطية واعتلى العرش ٣٥٢-٣٥٩هـ/٩٦٣-٩٦٩م. ثم عاد إلى الشرق ثانية. رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج١، ص٥١.

(٢) عين زربه: وهي بلد بالثغور من نواحي المصيصة. أمر الرشيد في بنائها عام ١٨٠هـ/٧٩٦م وأقطعها للخراسانيين . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٧٧-١٧٨.

(٣) مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج٤، ق٢، تحقيق عمر السعيدي، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٧٣، ص٥٠١.

(٤) الهمذاني، محمد بن عبدالملك (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م) تكملة تاريخ الطبري، في ذيول تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ذ. م، د. ت. ص٣٧٤. ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ج١، ص٧٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٣٧، ٢٣٩.

(٥) الهمذاني، المصدر السابق، ص٤٠٣. ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص١٣٣، ١٤٤. المصيصة: من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٤٥.

(٦) مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١. ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص١٤٤.

إلقاء القبض على يوحنا وحرقه وحرق كنيسة القيامة"[١]. فكتب كافور إلى ملك الروم بأنه ناهض لعمارتها وأنه سوف يرد البيعة إلى أفضل ما كانت، فرد عليه بأنه سوف يبنيها في السيف[٢]. ونصب بطريركاً جديداً من أهل قيسارية يسمى حبيب (خريستوذوس الثاني ٣٥٦-٣٥٩هـ/٩٦٦-٩٦٩م فأقام البطريرك أبواب كنيسة القيامة ورمم المذبح وشرع في عمارتها إلا أن الموت عاجله فجاء من بعده توما الثاني ٣٥٩-٣٦٨هـ/٩٦٩-٩٧٨م وأعاد ما انخرب وجدده[٣]. وفيما يلي جدول بأسماء بطاركة بيت المقدس الملكيين من ١٣٢-٣٥٩هـ/٧٤٩-٩٦٩م[٤].

ثيوذوروس	١٢٨-١٥٣هـ/٧٤٥-٧٧٠م.
ايليا الثاني	١٥٣-١٨١هـ/٧٧٠-٧٩٧م.
جاورجيوس	١٨١-١٩٣هـ/٧٩٧-٨٠٧م.
توما الأول	١٩٣-٢٠٥هـ/٨٠٧-٨٢٠م.
باسيليوس	٢٠٥-٢٢٣هـ/٨٢٠-٨٣٨م.
يوحنا السادس	٢٢٣-٢٢٨هـ/٨٣٨-٨٤٢م.
سرجيوس الأول	٢٢٨-٢٣٠هـ/٨٤٢-٨٤٤م.
سليمان	٢٤١-٢٤٦هـ/٨٥٥-٨٦٠م.
ثيوذوسيوس الثاني	٢٤٨-٢٦٥هـ/٨٦٢-٨٧٨م.
ايليا الثالث	٢٥٢-٢٩٥هـ/٨٧٨-٩٠٧م.
سرجيوس الثاني	٢٩٦-٢٩٩هـ/٩٠٨-٩١١م.
ليونديوس (ليون) الأول	٣٠٠-٣١٧هـ/٩١٢-٩٢٩م.
اثناسيوس الأول	٣١٧-٣٢٦هـ/٩٢٩-٩٣٧م.

---

(١) رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج١، ص٥١.

(٢) مسكويه، تجارب الأمم ، ج٢، ص٢٢١. ترتون ، أهل الذمة ، ص٥٣. في سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م توفي كافور الإخشيدي في مصر. وسيف الدولة في حلب. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٠١.

(٣) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص١١٠، ١٢٥. في سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م ملك الخليفة الفاطمي المعز دمشق وغيرها من بلاد الشام بينما سار ملك الروم في الشمال نحو طرابلس وأحرق بلدها وحصر عرقة وملكها ونهبها وسبى من فيها ثم قصد حمص وأخلوها من أهلها وأحرقوها وأقام في الشام شهرين يقصد أي موقع في الشام ويخرب ما يشاء ولا يمنعه أحد من العرب. وأراد أن يحصر أنطاكية وحلب إلا أنه عاد لكثرة الأمراض والموت الذي وقع في جيشه، وعاد مرة أخرى سنة ٣٥٩هـ٩٦٨م وملك أنطاكية وحلب، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٣١٣، ٣١٤، ٣١٨.

(٤) المخلصي، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، ص٣٤. جاسر، تاريخ القدس، ص٦٠. Moshe, A History of Palestine, P. 455.

خريستوذوس	٣٢٦-٣٣٩هـ/٩٣٧-٩٥٠م.
اغاثون	٣٣٩-٣٥٣هـ/٩٥٠-٩٦٤م.
يوحنا السابع	٣٥٣-٣٥٦هـ/٩٦٤-٩٦٦م.
خريستوذوس الثاني	٣٥٦-٣٥٩هـ/٩٦٦-٩٦٩م.

رؤساء اليهود ـ رأس الجالوت

تعود رئاسة الجالوت عند اليهود إلى العصور القديمة وكان اليهود يطلقون على هذا العميد لقب "ريش جالوتا" وهي لفظة بالآرمية تعني رأس الجالية وعنها أخذ العرب لفظة رأس الجالوت. وكان من واجباته الإشراف على أمور طائفته وسير إداراتها والأخذ بما يؤول إلى إصلاحها وصلاحها، وتعيين قضاتها ومراقبة استتباب العدل والانتظام في محاكمها، وتعيين مقدار الرسوم والضرائب الواجبة على أفراد ملته. وجبايتها باسم الحكومة، وضمان تنفيذ القوانين التي تصدرها الدولة، والعمل على تحسين العلاقات بين اليهود والسلطة الحاكمة، ومعاقبة من يخالف أنظمتها. ويقتضي بأن يكون رأس الجالوت من آل الملك داود وأن ينتقل منصبه إلى الذكور من ذريته. وإذا مات بلا عقب انتقل منصبه إلى من فيه الكفاءة من أبناء أسرته[١].

وكان مقر رئاسة الجالوت في بغداد ويتم تعيينه بعهد من الخليفة[٢]. وكانت طريقة الخلفاء في كتاباتهم إلى رئيس اليهود كبقية كتبهم إلى رؤساء أهل الذمة. أن يفتتح بلفظ: "هذا كتاب أمر بكتبه فلان أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين "فلان" ثم يقال: "أما بعد فالحمد لله" ويؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميدات إن قصد المبالغة في قهر أهل الذمة بدخولهم تحت ذمة الإسلام وانقيادهم إليه، ثم يذكر نظر الخليفة في صالح الرعية حتى أهل الذمة، وأنه أنهى إليه حال فلان وسئل توليته على طائفته فولاه عليهم لتميزه على أبناء طائفته ونحو ذلك، ثم يوصيه بما يناسبه من الوصايا"[٣].

أما جملة الوصايا التي كانت تصدر لرئيس اليهود فقد أورد ابن فضل الله العمري وهو من كتاب القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، في كتابه التعريف وصية لرئيس اليهود

---

(١) التطيلي، بنيامين بن يونه التطيلي الأندلسي (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) رحلة بنيامين فيما بين ٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م، ترجمة عزرا حداد، بغداد، مطبعة الشرق، ١٩٤٥م. ص١٩٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٣٧٩. الدوري، عبد العزيز، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص١٠١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٣٠٣.

لا تختلف في مضمونها عن الوصايا التي كانت تصدر من الخلفاء إلى الرؤساء الدينيين في العصور الإسلامية الأولى، جاء فيها "وعليه بضم جماعته، ولم شملهم باستطاعته، والحكم فيهم على قواعد ملته، وعوائد أئمته، في الحكم إذا وضح له بأدلته، وعقود الأنكحة وخواص ما يعتبر عندهم فيها على الإطلاق ... وأوجب عليه الانقياد إلى التحكيم، وما ادعوا فيه التواتر من الأخبار ... والتوجه تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبلتهم .. وإقامة حدود التوراة على ما أنزل الله من غير تحريف .. واتباع ما أعطوا عليه العهد، وشدوا عليه العقد، وأبقوا فيه ذماءهم، ووقوا به دماءهم ... مع إلزامه لهم بما يلزمهم من حكم أمثالهم أهل الذمة الذين أقروا في هذه الديار .. وليعلم ان شعارهم الأصفر .. وله ترتيب طبقات أهل ملته من الأحبار فمن دونهم على قدر استحقاقهم، .. وكذلك له الحديث في جميع كنائس اليهود المستمرة إلى الآن .. من غير تجديد متجدد، ولا أحداث قدر متزيد، ولا فعل شيء مما لم تعقد عليه الذمة.."[١].

وكان يسبغ الخليفة عليه بأجمل الألقاب إذ يذكر القلقشندي: "والذي رأيته لهم من ألقابه في عهد قديم كتبه ابن الزكي في الدولة الأيوبية، قال في ألقابه: "الرئيس، الأوحد، الأجل، الأعز، الأخص، الكبير، شرف الدواوين فلان"[٢].

وكان يتم الاحتفال بتنصيب رأس الجالوت الجديد بمهرجان مشهور إذ يبعث الخليفة إليه بإحدى ركائبه الملوكية فيتوجه إلى مقر الخلافة وفي ركابه الأمراء والنبلاء ومعه الهدايا والتحف النفيسة للخليفة ورجال قصره، وعندما يمثل بين يدي الخليفة يتسلم منه كتاب العهد، ثم يضع أمير المؤمنين يده على رأس الجالوت الجديد. ومن ثم يعود إلى داره بموكبه الخاص وحوله الجماهير الغفيرة وتنفخ أمامه البوقات وتقرع الطبول[٣]. وظل منصب رأس الجالوت معترفاً به في العصر العباسي حتى خلافة القادر بالله ٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣١م. وبعد تقلص ظل السلاجقة أمر الخليفة المقتفي لأمر الله ٥٣٠هـ-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م بإحياء رئاسة الجالوت[٤].

---

(١) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٢، ١٤٣، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٣٨٤، ٣٨٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٢، ص٢٨٩. ابن الزكي: هو محمد بن علي بن محمد، المعروف بابن زكي الدين الدمشقي، فقيه خطيب حسن الإنشاء كان له عند صلاح الدين منزلة رفيعة (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م)، الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٢٨٠.

(٣) التطيلي، الرحلة، ص١٣٨. غنيمة، يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، لندن، الوراق للنشر، ط٢، ١٩٩٧، ص١٥٠.

(٤) التطيلي، الرحلة، ص١٩٩-٢٠٠.

رأس المثيبة:

كان اليهود في العراق يرجعون في الشؤون الدينية إلى علماء فلسطين، يتلقون منهم فتاواهم ويقدمون إلى مدارسهم العلمية المال اللازم لتمشية أمورها وإعالة طلابها، وكان قد نشأ في فلسطين طبقة من العلماء يعرفون (بالتنائيم) باشروا شرح أحكام التوراة وتدوين قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة تعرف بالمشنا وكان الفراغ من تدوينها سنة ٢٠٠م. ثم نشأت في فلسطين طبقة ثانية من الأحبار يعرفون (بالأمورائيم) أي الأساتذة المحدثين، أخذوا يدرسون المشنا ويعلقون عليها التعليقات الإضافية ويشرحون متونها شرحاً وافياً يتناول شرائع اليهود وتقاليدهم وطقوسهم وتاريخهم. وقد جمعت هذه التعليقات والشروح في مجموعة صارت تعرف (بالتلموذ الأورشليمي) وكان الفراغ منه في أواخر القرن الثالث الميلادي.

وفي عهد الرومان اضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى العراق، فنشأت على نهر الفرات مدارس كبرى للأمورائيم في سورا (بجوار الحلة) وفي فومبديثه (بجوار الأنبار) وفي العراق استطاع الأمورائيم أن يشرحوا المشنا شرحاً أكثر تفصيلاً وأعم فصارت تعرف (بالتلموذ البابلي) [١].

وفي خلال القرون الخمسة الأولى من الفترة الإسلامية ظهرت طبقة أخرى من العلماء يعرفون بالغاؤونية وكان أهم أعمالهم إصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب وكانت الأسئلة تتوارد عليهم من جميع الأقطار وفتاواهم نافذة الكلمة على جميع طوائف اليهود في العالم[٢]. وكان اليهود يراجعون في شؤونهم الدينية رؤساء المدرستين (الأكاديميتين) العلميتين في سورا وفومبديثة وكانت المدرسة تسمى عندهم مثيبتا وعنها أخذ العرب لفظة المثيبة[٣].

ولم تقتصر الأكاديميات على التعليم المباشر بل كان أيضاً يتم عن طريق التعليم والتوجيه بوساطة الأجوبة على الأسئلة التي كانت توجه للغاؤونية، فكان يردهم أسئلة عملية ونظرية كثيرة تتعلق بتقسيم بعض فقرات من التوراة أو لفظ تلموذي أو استعمال بعض أدوات فلكية أو مشكلة نظرية تتصل بالعقيدة[٤].

---

(١) التطيلي، الرحلة، ص١٩٧.

(2) Goiten, S.D., Jews and Arabs their Contacts Through the Ages, New York: Schooken Books Inc. 5th printing, 1970, P. 121.

(٣) التطيلي، الرحلة، ص١٩٨. الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص٨٩.

(٤) الدوري، المرجع نفسه ،ص٨٩

ولكل من الأكاديمتين رئيس يطلق عليه الغاؤون أو رئيس المثيبة يليه بالرتبة الأب وهو رئيس المحكمة العليا داخل الأكاديمية ويتولى نيابة الغاؤون ثم يليه الكاتب (الناسخ) وهو الذي يرسل الأجوبة على المسائل التي تصل إلى الأكاديمية ثم يأتي بعدهم سبعة أعضاء ترجع أهميتهم حسب درجتهم الأول والثاني والثالث وهكذا. وأصحاب الدرجة الدنيا في الأكاديمية هم (التانيم) المعيدون. بالإضافة إلى الأعضاء الآخرين وكانوا سبعين شخصاً تقريباً. وكان يطلق على التلاميذ الذين يدرسون بها أبناء بيت الأستاذ وكان يعقد في نهاية الصيف ونهاية الشتاء اجتماع عام يخصص للمناقشات العامة ويجب الحضور على كل فرد(١). وكان للغاؤونية ولرأس الجالوت السلطة في تعيين الديانيم (القضاة) في المناطق المختلفة للإشراف على إدارة القضاء كما نال الغاؤونية بوساطة الأجوبة نفوذ كبير على تنظيم المحاكم وعلى أساليب القضاء ووحدته(٢).

أما الياشيفا الفلسطينية (Yeshiva) فيعود تأسيسها إلى الفترة اليونانية وهي عبارة عن مجمع أو مجلس أعلى لليهود مثل السنهدرين (Sanhedrin) عند اليهود القدامى وكان مركزها مدينة طبرية والياشيفا عبارة عن اتحاد يمثل الأكاديمية والبرلمان ومحكمة التمييز وكان يجتمع فيها كبار رجال اليهود وعلماؤهم ويقومون فيها بعدة أعمال مثل شرح التوراة والشرائع الدينية والإجابة على الأسئلة الشرعية والدينية التي ترد إليهم بالإضافة إلى المسائل الرسمية التي تتعلق وترتبط بالقانون. وكانت تقر الأجوبة فيها عن طريق الأغلبية(٣).

وكانت الياشيفا الفلسطينية أصغر وأقل أهمية من العراقية وكانت تدار من سبعة أشخاص منهم الرئيس وهو الغاؤون ونائب الرئيس وهو رئيس المحكمة العليا ويطلق عليه (رئيس بيت الدين) وخمسة أشخاص آخرين يرتبون حسب الأهمية ولم يكن هناك تجمع فصلي مثل العراق. إنما كان يحدث التجمع خلال أيام عيد الفصح على جبل صهيون يناقشون فيه المسائل الدينية والاقتصادية(٤). وبقيت طبريا مركزاً للياشيفا الفلسطينية ثم انتقلت إلى القدس في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي(٥). وتمول الياشيفا عن طريق الهدايا الثمينة التي ترسل

---

(1) Goitein, A Mediterranean Society, Vol.2, P. 198.

(٢) الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص٩٧.

(3) Goiten, Op. Cit, Vol.2, P.196

(4) Ibid, Vol.2, P.200-201. Moshe, A history of Palestine, P. 499.

(5) Mann, Jacob, The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs, London: Oxford University Press, 1969, P. 59

إليها مثل النقود والأقمشة والبضائع الشرقية كالبهارات وبضائع أخرى كثيرة وهذه الهبات كانت ترسل بانتظام فيصرف ريعها على شؤون الأكاديمية (الياشيفا) [١]

ويتم تعيين رأس المثيبة بقرار من الخليفة ويتلوه قاضي القضاة بعد أن يتم انتخابه من قبل الشعب. وتخلو المصادر العربية من تلك التواقيع سوى مصدرين يعودان للقرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يعود الفضل لهما في التعريف بتلك التواقيع ، أحدهما ابن الساعي (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) في كتابه الجامع المختصر وابن الفوطي (من أبناء القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) في كتابه الحوادث الجامعة. مما يمكن القياس عليهما للفترة السابقة لهما.فقد أورد ابن الساعي نسخة كتاب بتولية ابن هبة الله رأس مثيبة لليهود سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م الصادر من الخليفة الناصر)٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) ذكر فيه: "... على أن يكون له النظر في ما كان للدارج النظر فيه والولاية عليه من جميع الأماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها وأن يتميز على نظرائه وأشكاله باللبسه التي عهد لأمثاله، وسبيل طوائف اليهود وحكامهم بمدينة السلام وخارجها الانتهاء في ذلك إلى المأمور به والرجوع إلى قوله في توسط أمورهم والعمل بموجبه وأن يخرجوا إليه من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالأماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك مع قيامه في ما يأتيه ويدره بشرائط الذمة والتزامه ومحافظته بالامتثال وبواجب الاعتصام والإجلال إن شاء الله تعالى وبه الثقة ..."[٢].

وفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م رتب دانيال بن شمويل بن أبي الربيع راس مثيبة وأنفذه الوزير مؤيد بن العلقمي إلى قاضي القضاة عبد الرحمن اللمفاني فأجلسه بين يديه وقال له: "رتبتك

---

(1) Goitein, A Mediterranean Society, Vol.2, P. 12.

يطلق على الياشيفا أحياناً اسم الأكاديمية إلا أن جوايتن (Goitein) يقول أن إطلاق اسم أكاديمية أو مدرسة أو معهد علمي لا يتلاءم مع وظيفتها لأنها لم تكن مخصصة للتعليم فقط.

.Goitein, Amediterranean Society. vol.2, P. 196

(٢) ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، عنى بنسخه ونشره وإصلاح تصحيفه وتعليق حواشيه وعمل فهارسه مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، ١٩٣٤، ج٩، ص٢٦٦-٢٦٩.

في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م توفي رأس الجالوت دانيال من غير ان يخلف ولداً يرث منصبه فنشب على إثر ذلك خلاف بين أبناء أخيه داود وصموئيل وكانا في الموصل. فانتهز ابن الدستور رأس المثيبة هذه الفرصة فضم منصب رأس الجالوت إلى منصبه وبذلك أصبح رأس المثيبة المرجع الوحيد لليهود في أمورهم الدينية والإدارية. التطيلي، الرحلة، ص٢٠٠-٢٠١.

زعيماً على أهل ملتك من أهل دينك المنسوخ الذي نسخته الشريعة المحمدية لتأخذهم بحدود دينهم وتفصل بينهم في وقائعهم وخصوماتهم بموجب شريعتهم والحمد لله على الإسلام"، ثم نهض ولبس طرحته في دهليز القاضي وتوجه إلى بيته راجلاً في جمع من اليهود وجماعة من أتباع الديوان(١).

وفي اليوم الثاني يذهب الرئيس المعين إلى الكنيس بأبهة فائقة ويجلس على عرش ضخم أعد خصيصاً له ويلقي خطاباً تعقبه تسبيحة شكر (قديش) يذكر فيها اسمه ثم يسير إلى مقر منصبه، وكانت سلطته تمتد على جميع اليهود من الهند إلى الأندلس(٢).

من خلال ما تقدم نجد أن رؤساء الطوائف الدينية كانوا يعتبرون موظفين رسميين في الدولة، يتم تعيينهم من الخليفة بعد أن يتم انتخابهم من طوائفهم. وعليهم الذهاب إلى قصر الخلافة للتهنئة والسلام على الخليفة الجديد ولم تكن الدولة تتهاون مع كل من يسيء استعمال الحرية المعطاة له في التعيين وعليه أن يأخذ موافقة الخليفة وإلا عرض نفسه للعزل والطرد من منصبه مما كان يعكر صفو علاقة رؤساء الطوائف الدينية مع الدولة، كما كان هذا التصرف مأخذاً عليه يستند به منافسوهم على مناهضته أمام الخليفة.

وكثيراً ما كان رجال الدين يتوصلون إلى سدة الرئاسة إذا كانوا من المقربين إلى الخليفة، كما كان الخليفة في بعض الأحيان يتدخل في التعيين حلاً للخلافات التي كانت تحدث حول تولي منصب الرئاسة. وأحياناً كانت الدولة تضطر لإرسال الجند اللازم وتعيين موظفين خاصين لمراقبة الموقف ومنع أي اعتداء قد يحدث بين الطرفين، كما كانت العداوة والبغضاء شائعة بين رجال الدين من أجل تولي منصب الرئاسة مما دعا إلى انقسام الطائفة الواحدة على نفسها.

وكثيراً ما كان يؤثر توتر العلاقات الإسلامية البيزنطية على رجال الدين المسيحي وخاصة الملكيين منهم، وقد اتخذها منافسوهم مأخذاً عليهم ووسيلة للوشاية بهم لدى الخلفاء والحكام. فكانوا يتعرضون للعزل من مناصبهم، وأحياناً كانت الدولة تلجأ إلى البطاركة للتوسط بينهم وبين الدولة البيزنطية في سبيل فكاك الأسرى، أو للتدخل لدى طوائفهم الثائرة في تهدئة

---

(١) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص١٠٩.

(٢) غنيمة، يهود العراق، ص١٥٠.

Stillman, Norman, The Jews of Arab Lands A Hisoty and Source booke, Philadelphia: The Jewish Publication Society of America, 1979, PP.171-175,.

الأوضاع، كما كان الخلفاء يستصحبونهم في حروبهم لإقناع سكان تلك المناطق في الاستسلام وعدم القتال.

دور العبادة

ذكر أبو يوسف أن شروط الصلح التي منحها المسلمون للذميين نصت على أن لا يستحدثوا من الكنائس شيئاً ولا يجددوا ما خرب منها وأن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدن ولا خارجها التي صولحوا عليها وكذلك بيوت النار، وأن كل ما يحدث من بناء أو بيعة أو كنيسة فإنه يهدم[١]. وإن حاول بعض الحكام هدم بعض البيع أو الكنائس لسبب أو لآخر فإن سكانها كانوا يحتجون بالعهود التي حصلوا عليها خلال الفتح الإسلامي فيرجع هؤلاء عن رأيهم لأن الصلح والعهد نافذان إلى يوم القيامة[٢].

ومعنى هذا أن شروط عهود الصلح هي الفيصل في الأمصار التي فتحها المسلمون ووجب على المسلمين أن يوفوا لهم بعهودهم وأن لا يتعدى عليها بالهدم أو الخراب ولا يحق لأهل الذمة أن يبنوا في الأماكن التي مصرها المسلمون دوراً جديدة لعباداتهم حيث سئل ابن عباس رضي الله عنه عن جواز إنشاء الكنائس والبيع في أمصار المسلمين فقال: "أما مصر مصرته العرب فليس لهم أن يحدثوا فيه بناء بيعة ولا كنيسة وكل مصر كانت العجم مصرته ففتحه الله على العرب فنزلوا على حكمهم فللعجم ما في عهدهم وعلى العرب ان يعرفوا ذلك[٣].

ومع صراحة هذا النص إلا أن الكنائس بقيت تبنى في العصر العباسي بحرية تامة وكانت تجدد وتشيد بموافقة السلطة وأصحاب الأمر والنهي وكثيراً ما كان القضاة يقفون إلى جانب أهل الذمة في إنصافهم وإعادة الحق إليهم فقد رفع نصارى دمشق كتاباً إلى الأمير محمد بن إبراهيم

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧، ١٣٨. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٦. ابن الأخوة، معالم القربة، ص٩٧.

(٢) أبو يوسف، المصدر السابق، ص١٤٧.

(٣) أبو يوسف، المصدر السابق، ص١٤٩. ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام أن التمصير يتم على وجوه ثلاث فقد يكون المصر موجوداً قبل الفتح ولكن معظم أهله قد أسلموا مثل المدينة والطائف. وقد يكون المصر أرضاً ولم يكن لها أهل فاقتطعها المسلمون ثم نزلوها كالبصرة والكوفة ومدن الثغور وكذلك كل قرية افتتحت عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين ولم يردها على أهلها. ابن سلام. الأموال، ص١٤١-١٤٢.

بن محمد العباسي[١] يقولون فيه أنه شجر بينهم وبين رئيسهم في دينهم وجماعتهم من أهل القرى وعتاقة العرب والغرباء اختلاف وفرقة وأنهم غلبوهم على كنائسهم وسالوه النصفة لهم منهم والوفاء لهم بما في عهدهم وكتابهم الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم، واجتمعوا عنده وتناصبوا الخصومة بين يده فأحال الأمير الأمر إلى يحيى بن حمزة القاضي[٢] لينظر في أمرهم ويحملهم على ما يراه من الحق والعدل فدعا القاضي بحججهم فأتوه بكتاب خالد بن الوليد فإذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم لا تهدم ولا تسكن لهم على ذلك ذمة الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إلا أن يعرض لهم أمر بخير إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد هذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة عامر بن الجراح وغيرهم.

فقال القاضي: فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم وفحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد ووجدت ما وراء حائطها آثاراً وضعت لرفع الخيل ومراكز الرماح ونظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليهم خاصة دون غيرهم ووجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلاً رومياً قتله الحرب أو نفته، فمساكنهم وكنائسهم قسمة بين المسلمين معروفة لا تخفى، ورجلاً من أهلها حقن دمه هذا العهد، فمساكنهم وكنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن ولم تقسم معروفة، ليس تخفى. فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد وأبناء البلد. ووجدت من نازعهم لفيفاً طراً لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد. وقضيت لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حلية أو آنية أو عرصة أضافوا إليها بدفع ذلك إليهم بأعيانهم إن قدروا عليه وسهل قبضه أوقيمة عدل يدم ينظر فيه شهداً على ذلك[٣].

ويذكر ابن عساكر ان المنصور قد أحدث كنيسة لبني قطيطا في دمشق في منطقة الفوريق[٤]. وفي عهد الخليفة الرشيد نال النصارى معاملة حسنه وحافظ على كنائسهم ففي سنة

---

(١) محمد بن إبراهيم المعروف بالإمام ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب كان يلي إمارة الحج والمسير إلى مكة وإقامة المناسك في خلافة المنصور عدة سنين. توفي ببغداد في خلافة الرشيد سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١، ص٤٠٢.

(٢) يحيى بن حمزة بن واقد الحضرمي من أهل بيت لهيا تولى القضاء في دمشق للمنصور والمهدي ولم يزل قاضياً حتى مات سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٤، ص١٢٥.

(٣) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٢، ص١٠٧-١٠٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص٣٥٦. خريسات، التوسع العمراني، ص١٩.

١٧٧هـ/٧٩٣ مرَّ هارون الرشيد بالرها اثناء مسيره إلى بلاد الروم، فاجتمع إليه مسلمو المدينه ووشوا بالمسيحيين متهمين إياهم بالتجسس لحساب ملك الروم وادعوا ان الملك يأتي سراً كل سنة لإقامة الصلاة في كنائسهم وطالبوه بهدم الكنيسة الكبرى وبإبطال الناقوس غير أن كلامهم لم يلق أذناً صاغية لدى الخليفة وسلمت الكنيسة[١].

كما نال ايضاً النصارى الفرنج في القدس معاملة حسنة وذلك لعلاقة الصداقة التي كانت بينه وبين شارلمان ١٥٥-١٩٩هـ/٧٧١-٨١٤م[٢]. وقد اسفرت هذه الصداقة بالسماح لهم بإقامة مؤسسات دينية واجتماعية لهم في القدس كالنزل (الفندق) الذي أقامه شارلمان لإقامة الزوار الفرنج ودير اللاتين على جبل الزيتون ومكتبة ومستشفى أقيم للحجاج والراهبات اللواتي يعملن بالفندق. وقد شاهد هذه الآثار الحاج برنارد الحكيم الذي زار القدس عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م[٣]، أما قصة منح مفاتيح القبر المقدس من هارون الرشيد لشارلمان والتي رواها اينهارد (Eginhard) سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م[٤]. فليس لها أساس تاريخي في المصادر القديمة سواء كان ذلك في الإسلامية أو المسيحية، ولو كان هذا الأمر صحيحاً لأشار إليه الجغرافيون والرحالة الأوائل الذين زاروا المنطقة وأسهبوا في وصف كنيسة القيامة سواء كان ذلك من الفرنج أم من المسلمين، ومن المعروف أن المسلمين ظلوا يحتفظون بمفاتيح كنيسة القيامة طيلة العصور الإسلامية بدليل ما أشار إليه الرحالة الذين زاروا القدس في فترة متأخرة. فقد أشار الرحالة فريسكوبالدي (الذي زار القدس سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤م عند وصفه لكنيسة القيامة قال "... ثم ندخل كنيسة القبر المقدس والتي لها ثلاثة مفاتيح واحد يحتفظ به أحد ممثلي السلطان والثاني لنائب القدس والآخر بيد أحد رجال الدين..."[٥]. كما أشار إلى ذلك أيضاً رحالة غربي آخر هو فيلكس فابري الذي زار القدس عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م حيث قال "إن مفاتيح كنيسة القيامة يحتفظ بها أفراد من زعماء

---

(١) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص١٤

(٢) رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج١، ص٥٠.

(3) The Voyge of Bernard the Wise, A.D, 867. In Thomas Wright (ed.) Early Travel In Palestine, London: 1848, P. 26.

(٤) اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٩، ص١٠٥.

(5) Frescobaldi, Gucci and Sigoli, Visit to The Holy places of Egypt, Palestine and Syrian, In 1384, Translated from the Italian by F.R. Theophilus Bellorini, Jerusalem: Franciscan Press, 1948, P.76.

المسلمين"[١]. وأن زعم اينهارد بأن الرشيد منح مكان القبر المقدس لشارلمان لا ينسجم مع روح ذلك العصر ولا يتفق عما عرف عن الرشيد من حرص شديد على المصالح العليا للعرب والمسلمين السياسية منها والدينية، وسياسة الرشيد لا تسمح لنا بالاستنتاج بأنه على استعداد لمنح الفرنجة حقاً أو امتيازاً في فلسطين. ولا يستبعد أن يكون الرشيد الذي اشتهر بتسامحه مع المسيحيين في البلاد أن يكون قد سمح لشارلمان بإرسال التبرعات والصدقات وإنشاء بعض المؤسسات الدينية لخدمة الحجاج والتجار.

واستمر الخلفاء من بعده في التسامح مع المسيحيين ومساعدتهم في ترميم كنائسهم ودور عباداتهم ففي سنة ١٩٨هـ/٨١٣م كان إبراهيم القرشي والي حران يتنزه في مقره فشاهد أبنية واستفسر عنها فقالوا إنها كنائس للنصارى شيدوها في عهدك مما حمل المسلمين على الارتياب في أمرك فسخط وأصدر أوامره بتفويض الكنائس الجديدة فقوضوا قبل الغروب مذبح الكنيستين الكبيرتين في حران وكنيسة مريم وبعض كنيسة مارجرجس وجانباً من كنائس الملكيين والنساطرة واليهود وأرق إبراهيم في تلك الليلة بسبب فعلته هذه ولما اصبح الصباح استدعى النصارى واليهود وأمرهم ببناء ما تهدم فابتنوا في أيام يسيرة كل ما خرب[٢].

هذا وقد استمر ترميم الكنائس طيلة العصر العباسي إذ تدل المكتشفات الأثرية التي تم التنقيب عنها في صيف عام ١٩٨٦ في موقع أم الرصاص (ميفعه) جنوب مدينة مأدبا على أثار لكنيستين متجاورتين هما كنيسة الأسقف سرجيوس وكنيسة القديس اسطفان التي وجد فيها لوحتان مكتوب عليهما باللغة اليونانية، وجاء في اللوحة الأولى مايلي: "بنعمة المسيح رصفت فسيفساء هذا الهيكل المقدس في عهد أبينا الكلني التقوى الأسقف أيوب في شهر آذار في الإشارة التاسعة من سنة ٦٥٠ (٧٥٦م)/ ١٣٩هـ" كما دون عليها اسم فنان الفسيفساء وهو استوراخيوس بن زاده من حسبان ورفيقه ريميوس. [٣]

أما اللوحة الثانية فقد دون عليها مايلي: "في عهد الأسقف الكلي الطوبى سرجيوس انتهى العمل في رصف هذه الفسيفساء في كنيسة القديس العظيم يوحنا بن اسحاق القارئ المحبوب من

---

(١) زيادة، نقولا، "فيلكس فابري في فلسطين" المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين). مج٢، ١٩٨٣، ص١٩٨.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٢-٢٣. ترتون، أهل الذمة، ص٤٧. إبراهيم القرشي: ولاه طاهر ابن الحسين على حران بعد مقتل الأمين. ابن العبري، المصدر السابق، ص٢٢.

(٣) بيشه، مناهضة الصور وتشويهها، ص٣

الله والشماس ورئيس ميفعه (ام الرصاص) الوكيل وبعناية كل سكان ميفعه وذلك في شهر تشرين الأول من الإشارة الثانية من سنة ٦٨٠ للولاية العربية (٧٨٦م) ١٧٠هـ[١].

وفي سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م وفي عهد الخليفة المأمون رممت قبة كنيسة القيامة بالقدس بعد أن اعتلت وكادت أن تسقط فقد حدث في فلسطين وبيت المقدس جوع شديد وجراد كثير فمات الناس من الجوع وهرب المسلمون من بيت المقدس ولم يبق فيها من المسلمين إلا نفر يسير، فاستغل بطريرك بيت المقدس توماس (توما الأول) ويسميه ابن البطريق (تمريق) ١٩٢-٢٠٥هـ/ ٨٠٧-٨٢٠م خلو المدينة من سكانها وتوجه إلى قبرص وأحضر أخشاب الأرز والصنوبر وحملها إلى بيت المقدس لترميم قبة كنيسة القيامة. كما تبرع رجل من أغنياء بورة في أرض مصر واسمه بكّام بتقديم ما يلزم من مال في سبيل إصلاح القبة. وكان توما البطريرك يهدم من القبة شيئاً ويدخل جذوع الأشجار ويبني فوقها فأدخل في القبة أربعين جذعاً ولما تم له إصلاح القبة بالجذوع بنى فوق القبة الخشبية قبة أخرى بينها قدر ما يمشي فيه إنسان ورصص فوقها بالرصاص[٢].

ولما رجع عبد الله بن طاهر[٣] من مصر لقيه مسلمو بيت المقدس وشكوا له مجاوزة النصارى حدهم واقترافهم ما هو محرم عليهم فأقر ابن طاهر بسجن البطريرك وبعض رفاقه حتى تنجلي الحقيقة فجاء أحد المسلمين إلى المحبوسين وقال للبطريرك أنا أعلمك حجة تتخلص منها أنت وأصحابك إلى الأبد على أن تعطيني ألف دينار وتجري علي وعلى ذريتي أرزاقا مدى الحياة فوعده البطريرك وأكد ذلك بخط يده. فقال له: إذا أحضروك وشهدوا عليك فقل لهم إنما رممت موضع القبة ولم أهدم شيئاً ولا زدت وليسأل الأمير هؤلاء كم كان سمك القبة الصغيرة التي هدمتها كما زعموا وكم سمك القبة التي بنيتها ففعل البطريرك ذلك عندما أحضر للشهادة وعجز مناهضوه عن الإجابة فأطلق الأمير سراحه وسراح رفاقه ودفع البطريرك للشيخ المسلم ألف دينار ولم يزل يجري عليه الأرزاق وعلى ولده من بعده حتى لم يبق منهم واحداً[٤].

---

(١) بيشه، مناهضة الصور وتشويهها، ص٣.

(٢) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٥٥-٥٦. بورة: مدينة على ساحل بحر مصر قرب دمياط. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٠٦.

(٣) وكان سبب خروجه إلى مصر أن المأمون أرسله لمحاربة محمد بن السري ابن الحكم الذي غلب على مصر سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م. ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٥٥.

(٤) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص٢٣. ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٥٦-٥٧.

وفي سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م ولى المأمون عبدالله بن طاهر من الرقة إلى مصر [١] ونعم النصارى في عهده بالأمن والطمأنينة ففي سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م اجتمع العرب من حران والرها وشميشاط وطالبوه بإصدار أمر بهدم الكنائس المحدثه وبإبطال النواقيس إلا أن الوالي رفض طلبهم ثم أمر بان لا ينتقص لهم شيء من شرائعهم وعاداتهم القديمة وألا يستأصل شيء من كنائسهم [٢].

وفي عهد الخليفة المنتصر ٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م وفي أثناء إقامة أحمد بن المدبر في فلسطين[٣]، وكان قد أخرجه الخليفة المتوكل سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م للشام للتعديل فأذاق أهل تلك البلاد صعوبة وبلايا واعتدى على الكنائس والأديرة[٤]. وفي خلافة المستعين ٢٤٨-٢٥٢هـ/٨٦٢-٨٦٦م وبعد عزل ابن المدبر سمح للنصارى بأن يبنوا البيع وأثبت لهم ذلك في سجل رسمي[٥]. وعندما اعتلى الخليفة المعتز الحكم ٢٥٢-٢٥٥هـ/٨٦٢-٨٦٥م أظهر النصارى السجل الذي كتبه لهم المستعين فأمر الخليفة أن يكشف عليه في الديوان فكشف وأحضر إليه وسمح بإتمامه وأمر أن يعاد إليهم جميع ما كان قد اغتصب من البيع والديارات من آنية وغيرها، وظهرت الرهبان وعمروا بيعهم ودياراتهم في مصر وكذا بالشام[٦].

وفي سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م دخل أحمد بن طولون مدينة دمشق ووجد أن حريقاً وقع بكنيسة مريم فأمر بسبعين ألف دينار لترميم الكنيسة وتعويض كل شخص احترق له شيء ويقبل قوله ولا يستحلف فأعطوا لمن ذهب ماله وفضل من المال أربعة عشر ألف دينار ففرقت على فقراء دمشق والغوطة[٧]. وفي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م ثار المسلمون في الرملة وهدموا كنيستين للملكيين كنيسة مارقزماس وكنيسة ماركورقس كما هدموا كنيسة عسقلان وقيسارية فرفع النصارى ذلك إلى الخليفة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م فأمرهم أن يبنوا ما تهدم لهم[٨]. وفي سنة

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٥٧

(٢) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص٣٠

(٣) التنوخي، الفرج بعد الشدة، ج١، ص٢٤٧.

(٤) ابن المقفع، سير البيعة المقدسة، مج٢، ج١، ص٢٤.

(٥) المصدر نفسه، مج٢، ج١، ص٣١-٣٢.

(٦) المصدر نفسه، مج٢، ج١، ص٣٢-٣٣.

(٧) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٣.

(٨) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٨٢.

٣٤٨هـ/٩٦٠م تأسست في طرابلس كنيسة فخمة للنصارى وأطلق عليها اسم أحد شهدائهم تيمناً به[١]. وفي سنة ٣٥١هـ/ ٩٥٨م بني دير مرجيسيه في ملطيه[٢]

وفي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م رممت كنيسة القيامة وشرع في عمارتها بأمر من كافور الإخشيدي بعد أن أخربت نتيجة الاضطرابات التي قامت في القدس[٣].

وكثيراً ما نزل الخلفاء العباسيون في أديرة النصارى المنتشرة في مدن بلاد الشام وأقاموا فيها وشربوا وأغدقوا على أصحابها الأموال والهدايا كدير زكي الذي يقع خارج الرقة مر به الرشيد وأعطى أهله ثلاثة آلاف دينار فوزعت عليهم. وله شعر فيه[٤]: (المتقارب)

سلام على النازح المغترب	تحية صب به مكتئب
غزال مراتعه بايخ	إلى دير زكي فقصر الخشب
أيا من أعان على نفسه	بتخليفه طائعاً من أحب
سأستر والستر من شيمتي	هوى من أحب بمن لا أحب

ودير مران الواقع بظاهر دمشق بالغوطة الذي كان المكان المفضل لإقامة الخلفاء منذ أيام الأمويين نزل به الخليفة الرشيد والمأمون[٥] الذي أجرى إليه قناة ماء من نهر منين، وبنى فيه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون قصراً ينزل فيه. كما زاره المعتصم أيضاً[٦]. وديرمارت ماروتا بظاهر حلب وكان سيف الدولة محسناً إلى أهله وقل ما مرَّ به إلا نزله ووهب لأهله هبة

---

(١) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٦١.

(٢) مجهول، تاريخ الرهاوي ، ج٢، ص٣١٢

(٣) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص١٢٥.

(٤) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت٣٥٦هـ-٩٦٦م) الديارات، تحقيق جليل العطية، لندن، قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١. ص٩٦. الشابشتي، الديارات، ص٢١٨. علي، شمس الدين محمد بن علي، (من رجال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي) البدور المسفرة في نعت الأديرة، تحقيق هلال ناجي، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية ١٩٧٥، ص٣٣. وهذا الكتاب فصل من كتاب له عنوانه الدر الملتقط من كل بحر وسفط.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٥٣. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق١، ص٢٨٢.

(٦) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٧٢. ابن طولون ، شمس الدين محمد بن علي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد دهمان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٩٨٠، ق١، ص٤٦.

كبيرة[1]. ودير الفراديس بجوار دمشق الذي نزل فيه الخليفة المتوكل وتزوج من إحدى جواريه[2].

هذا وقد كانت الكنائس والأديرة تتعرض في بعض الأحيان للهدم والتخريب من قبل الدولة نتيجة المشاحنات بين الطوائف الدينية فكانت كل طائفة تلجأ إلى الدسيسة والوشاية لدى الدولة ضد الطائفة الأخرى من أجل الإنتقام منها وإضعافها. أو بسبب إثارتهم للقلاقل والإضطرابات في البلاد، و أحياناً من باب الضغط على البيزنطيين في تخفيف اعتداءاتهم على مدن بلاد الشام. ففي عهد الخليفة المنصور اشتكى أحد الرهبان للخليفة بأن أموال بني أمية محفوظة في دير بالموصل، وكان هذا سبباً في إصدار الخليفة مرسوماً يقضي بإجراء إحصاء عام لمحتويات الكنائس والأديرة في مصر وبلاد الشام[3]. ومصادرتها وبيعها لليهود، كما منعهم من وضع الصلبان على الكنائس وإقامة أي احتفال كنسي في الليل[4].

وفي سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م وثب أهل حمص على عاملهم محمد بن عبدويه وعلى صاحب الخراج فأرادوا قتله وساعدهم في ذلك قوم من نصارى حمص فكتب إلى الخليفة المتوكل يعلمه بذلك. فكتب إليه يأمره بمناهضتهم والقضاء على رؤوس الفتنة وأن يخرب ما بها من الكنائس والبيع وان يدخل كنيستها العظمى إلى جانب المسجد الجامع وأن يضيفها إليه[5].

وكان لا بد لمسألة الحروب مع الدولة البيزنطية أن تؤثر على سياسة الخلفاء وعلى وضعية النصارى في البلاد وخاصة طائفة الملكيين منهم. إذ تنفرد المصادر البيزنطية والسريانية الغربية بتقديم المعلومات حول هذا الموضوع وذلك لأنها هي وحدها المعنية بها مباشرة. وتروي هذه المصادر ان الخليفة المهدي أمر بتخريب كنائس المسيحيين[6] ومن بين تلك الكنائس التي

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٣١. الزيات، حبيب، أديار دمشق وبرها. مجلة المشرق، السنة ٤٣، ١٩٤٩، ص٤١٦.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٢.

(٣) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٧١. أشتور، أ. التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عيلة، مراجعة أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة، ١٩٨٥، ص٩٧.

(4) Theophanes, The Chronicle, P, 119.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٢٢. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣٢٣..

(6) Theophanes, The Chronicle, P139. Michel Le Syrien, Vol 3, P3.

هدمت كنيسة الخليقدونيين (الملكيين) في حلب[١]. وفي سنة ١٩١هـ/٨٠٦م أغارت الروم على مرعش[٢] وأصابوا من المسلمين وانصرفوا فأقام الرشيد بدرب بالحدث[٣] ثم انصرف إلى الرقة، وفي هذه السنة أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور[٤]، فهدموا الكنائس الموجودة إلى الغرب من نهر سنجه وهدمت كنيسة كيسوم الكبيرة بمعابدها الخمسة عشر[٥]وربما كان فيها عيون للروم أو انتقاماً من البيزنطيين لاعتداءاتهم المتكررة على منطقة الثغور.

أما بالنسبة إلى منع استحداث الكنائس فكانت أول إشارة إليها في العصر العباسي أيام الخليفة المنصور والتي انفرد بذكرها ثيوفانس. إذ يذكر أن الخليفة المنصور قام بطرد بطريرك أنطاكيا الملكي إلى مآب بسبب الاتهامات التي دارت حوله باتصاله مع البيزنطيين كما أمر الخليفة بعدم بناء كنائس جديده[٦].وفي سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م اصدر الخليفة المعتصم أمراً لعماله بتقويض كنيسة مارجرجس وكنيسة أخرى في قوبا في نواحي أنطاكيا لأن النصارى ابتنوهما حديثاً[٧]. ثم جاء مرسوم الخليفة المتوكل الذي منعهم من إقامة بيع جديدة وأمر بهدم جميع البيع المحدثة بمقتضى المرسوم الذي أصدره سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م[٨]. إلا ان هذا المرسوم أيضاً لم يمنع

---

(1) Michel Le Syrien, Op, Cit, Vol 3 P3.

ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١١. رستم، أسد، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج٢، مطبعة دار الفنون، ١٩٥٣، ص١١٦.

(٢) مرعش، مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٠٧.

(٣) الحدث، قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور ويقال لها الحمراء. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٢٧.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٢٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٣٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص٢٠٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص١٣٦.

(5) Michel Le Syrien, vol 3, P8.

ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٣. مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢ ص١٤. نهر سنجة: هو نهر عظيم يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر وعلى هذا النهر قنطره عظيمة هي إحدى عجائب الدنيا. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣ ، ص٢٦٥.

(6) Theophanes, The Chronicle, P. 119.

(٧) ابن العبري، تاريخ الزمان ، ص٢٩.

(٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص٢٢٥-٢٢٦. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١١٨. ابن المقفع، سير البيعة المقدسة، مج٢، ق٢، ص٤. ابن الجوزي، ج١١، ص٢٢٢. ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ج٢، ص٣٥٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٠٦. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٣٧. القلقشندي ، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٩٦. ومآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فراج، بيروت، عالم الكتب، د.ت. ج٣، ص٢٢٩.

Hirschler, The Social Isolation, P.86. Ye, or The Dhimmi: P. 185-186. Runciman, The Historic Role, P,9.

من بناء كنائس جديده وظلت الكنائس تبنى وترمم بحرية تامة بدليل ما مر من وقائع وظل أثره وقتياً .

يتجلى مما سبق عدة حقائق أولها أن الكنائس كانت ترمم وتشيد بموافقة السلطة وأصحاب الأمر والنهي وأحياناً بمساعدتهم، وكثيراً ما وقف الخلفاء والقضاة الى جانب أهل الذمة في سبيل إنصافهم والسماح لهم في إعادة وترميم ما تهدم من كنائسهم وأديرتهم. ومن ناحية أخرى نرى أن الكنائس كانت في بعض الأحيان تتعرض للنهب والتخريب تبعاً للظروف والأحداث ولا غرابة أن يكون الخطر عليها أعظم وأشد في أوقات الاضطرابات والفوضى السياسية أو عندما تشتد الغارات البيزنطية على المدن الإسلامية فلم يجد الخلفاء من وسيلة للتخفيف من الشر الواقع على رعاياهم إلا بالضغط على النصارى في ديارهم وضرب البيزنطيين في كنائس مقدسة لديهم في القدس وغيرها من المدن الشامية، وانتقاماً منهم لما يفعلوه في مساجد المسلمين وانتهاك حرمتها وحرقها وتدميرها في معظم المدن التي كانوا يدخلونها لذلك أرسل كافور الإخشيدي رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني ٣٤٨-٣٥٢هـ/٩٥٩-٩٦٣م عندما كان قائده نقفور يجول في البلاد الإسلامية يقتل ويأسر ويدمر المساجد ويحرق مصاحفها أرسل إليه رسالة يقول له فيها "بأنه يفخر بأنه حاكم فلسطين التي بها المسجد الأقصى ومركز البطريركية المسيحية .. ومكان حج المسيحيين واليهود ... والمكان الذي ولد فيه السيد المسيح. والمكان الذي توجد فيه كنيسة القيامة[1].. وهذا كله من أجل تذكيره وتحذيره من أجل التخفيف من اعتداءاتهم على المدن الإسلامية. وعلى الرغم من حدوث مثل هذه الاعتداءات فإنها تبقى قليلة ومحدودة قياساً إلى فترة الدراسة التي تناهز قرنين من الزمان.

---

(1) Moshe, A History of Palestine, P. 325.

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية لأهل الذمة في بلاد الشام

في العصر العباسي

طوائف أهل الذمة في بلاد الشام.

العلاقات الاجتماعية.

التحول إلى الإسلام.

القيود الاجتماعية.

المكانة الاجتماعية والعلمية لأهل الذمة

طوائف أهل الذمة في بلاد الشام

تعددت طوائف أهل الذمة في بلاد الشام فانقسم النصارى إلى ثلاث طوائف رئيسية هي: النساطرة واليعاقبة والملكيين. بينما انقسم اليهود إلى طائفتين رئيسيتين هما الربانيون والقراؤون بالإضافة إلى السامرة. إلى جانب وجود الطوائف الدينية الأخرى مثل المجوس والصابئة. وسأتناول في الدراسة كل طائفة بمفردها.

النصارى:

النساطرة: من المعروف أنه منذ القرن الثاني الميلادي قامت خلافات كبرى بين النصارى حول قضايا أساسية تتعلق بالأصول العقائدية مثل طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالابن والعلاقة بين الأقانيم الثلاثة[١]. وقد عقدت لذلك جملة من المجامع الكنسية للنظر في هذه الآراء والحكم على صحتها وفي أمر أصحابها وكانت هذه الخلافات سبباً في ظهور الطوائف النصرانية المختلفة[٢]. ففي سنة ٤٣١م عقد المجمع الكنسي في افسوس[٣] للنظر في أمر الراهب نسطوريوس بطرك القسطنطينية (ت ٤٥٠م) الذي قال بأن للمسيح طبيعتين (اقنومين) اقنوم يسوع واقنوم الله الكلمة وذكر أن مريم بشر ولدت بشراً هو المسيح الذي هو إله من جهة الأب فقط، وبعد محاكمات ومناظرات أصدر المجتمعون حكما رسميا بهرطقته وعزله من أسقفية القسطنيطينية فشكل أتباعه الكنيسة النسطورية (الكنيسة السريانية الشرقية) [٤].

وكانت مدينة الرها أهم مركز ثقافي للنساطرة ثم نالت نصيبين مكانة كبيرة أيضا، لكن كان على النساطرة مواجهة الاضطهاد والمقاومة في أي مكان من الأماكن الخاضعة للروم ولذلك

---

(١) الأقانيم: مفردها اقنوم وهي كلمة يونانية ومعناها أصل الشيء. أي أصول لوجود العالم محدوثة عنها وصرحوا بأن كلا من الأقانيم إله، اقنوم الوجود ويعبرون عنه بالأب واقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن والكلمة واقنوم الحياة ويعبرون عنه بروح القدس فلذا يقولون باسم الأب والابن والروح القدس. الزيات، حبيب، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، دمشق، مطابع الف باء للأديب، د. ت. ص ٤٢.

(٢) علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٦٢٣. عطية، الجدل الديني، ص ٤٠٩.

(٣) افسوس: بلد بثغور طرسوس، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٣١.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ١٤٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨٣. علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص٦٢٦. حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٣٥.

فكروا في الانتقال إلى بلد يتمتعوا فيه بحريتهم فاستقبلهم ملك فارس واصبحت مدينة المدائن مركزا لهم وصار هذا المركز أهم مراكز النسطورية في العراق[١]. فظهر مذهبهم في الجزيرة الفراتية والموصل والعراق وفارس[٢].

اليعاقبة:

استمرت الخلافات الدينية تعصف بالكنيسة المسيحية ففي سنة ٤٥١م عقد المجمع الخلقدوني الذي دعا إليه الإمبراطور البيزنطي مرقيانوس أومركان ٤٥٠-٤٥٧م بسبب قول جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم ديسقورس (Discours) ثامن بطارقة كنيسة الإسكندرية أن المسيح جوهر من جوهرين واقنوم من اقنومين وطبيعة من طبيعتين ومشيئة من مشيئتين[٣]. وقد انتهت قرارات المجمع إلى عزل ديسقورس ونفيه ونتج عن تعاليمه الكنيسة اليعقوبية أو المونوفيزتية (Monophist) (الكنيسة السريانية الغربية) وهم القائلون بالطبيعة الواحدة أي أن المسيح هو الله بشكل إنسان[٤]. ودعاهم خصومهم المعارضون لهم باليعاقبة نسبة إلى ديسقورس بطريرك الإسكندرية لأن اسمه كان يعقوب قبل أن يصبح بطريركاً وقيل بأنه كان له تلميذ اسمه يعقوب، وقيل أيضاً بأن يعقوب كان تلميذ بطريرك أنطاكيا وكان يثبت النصارى على مذهب ديسقورس

---

(١) علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص٦٢٦. المدائن: سماها العرب المدائن لأنها تتكون من سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة صغيرة، بينها وبين بغداد ستة فراسخ. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٧٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص ٢٨٣.

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤٥. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨١. قاسم، قاسم عبده، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧، ص٣٤. عاشور، سعيد عبد الفتاح، اوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الإنجلوالمصرية، ط٨، ١٩٨٥، ص٥٥. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص١٨.

الأقانيم: مفردها اقنوم وهي كلمة يونانية ومعناها أصل الشيء. أي أصول لوجود العالم محدوثة عنها وصرحوا بأن كلا من الأقانيم إله، اقنوم الوجود ويعبرون عنه بالأب واقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن والكلمة واقنوم الحياة ويعبرون عنه بروح القدس فلذا يقولون باسم الأب والابن والروح القدس. الزيات، حبيب، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، دمشق، مطابع الف باء للأديب، د. ت. ص ٤٢.

(٤) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٥، ج١، ص١١١. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، (ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م)، الملل والنحل، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨١، ص١٠٢. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨١. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٨٥. حتي، تاريخ سورية ، ج٢، ص١٣٧.

وكان كثير العبادة يلبس خلق البراذع فسمي يعقوب البراذعي[١]. وقيل هم أتباع يعقوب البراذعي أسقف الرها الذي توفي في أواسط القرن السادس الميلادي. وكان الغسانيون وسواهم من العرب في بلاد الشام قد اعتنقوا هذا المذهب قبل ظهور الإسلام وكانت الكنيسة اليعقوبية هي الغالبة في بلاد الشام وكان علماؤها أقطاب النشاط العلمي وأعلام حركة النقل في العصور الإسلامية[٢].

الملكانية أو الملكانيين أو الملكية.

إن الكنيسة السريانية بفرعيها الشرقي والغربي (النساطرة واليعاقبة) وما تحدر عنهما من طوائف لم تكن جامعة لجميع النصارى في بلاد الشام بل أن جماعة صغيرة منهم انساقت بتأثير اللاهوت اليوناني ووافقت على مقررات مجمع خلقدونية الكنسي المنعقد عام ٤٥٠م. الذي انتهى إلى تخريج مذهب عام وشامل وهو المذهب الملكي أو المركاني أو الملكاني. القائل بأن للمسيح طبيعتين وجوهرين ومشيئتين اتحدت في اقنوم واحد وقوام إلـهي واحد. أي أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية أي هو إله تام كله وتمذهب بمذهب الملكانية الروم والفرنجة ومن والاهم[٣]. وقد دعاهم مخالفوهم بالملكيين من كلمة ملكا السريانية ومعناها الملك وذلك ازدراءً لهم لوقوفهم في صف الملك مرقيان[٤]. وبقبول هذه الطائفة بقرارات المجمع الكنسي فقد أحرزت وضعاً قانونياً تفادت فيه الحرم الكنسي وحظيت فوق ذلك بحماية كنيسة الدولة البيزنطية[٥]. إلا أنها بقيت ضعيفة ولم يتعد انتشارها شمال بلاد الشام وفلسطين ومصر[٦].

الموارنة:

ينتسب الموارنة إلى القديس مارون الذي عاش في القرن الرابع الميلادي ومطلع القرن الخامس في جوار مدينة أفاميا على نهر العاصي، وكان مارون كاهناً متنسكاً يقضي أيامه ولياليه

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨١.

(٢) حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٣٨-١٣٩.

(٣) ابن حزم، الفصل، ج١، ص١١١. الشهرستاني، الملل والنحل، ص١٠١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٩. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٨٥. عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ص٥٥. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٧١.

(٤) حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٤٢. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غبريال، بيروت، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨١، مج٢، ص١٧٤٢.

(٥) حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٤٢.

(٦) حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٤٣. الموسوعة العربية الميسرة، ص١٧٤٢.

في العراء بالقرب من هيكل وثني كان قد حوله إلى كنيسة وقد انتشرت سمعته بين النـاس فـأقبلوا إليه يسألونه بركته والتف حوله جماعة من الرهبان والنساك فتتلمـذوا عليـه واتبعـوا طريقتـه فـي الحياة النسكية وممارسة الفضائل وتوفي القديس مارون سنة ٤١٠م فحمل تلاميـذه جسـده ودفنـوه بين أفامية وحمص وأقاموا فوقه ديراً سموه دير القديس مارون. واتبع خلق كثير مـن سـكان تلـك البلاد تعاليم رهبـان القديـس مـارون فتلقبـوا بالموارنـة ثم زادوا وانتشـروا فـي القرنيـن السـادس والسـابع الميلاديين فـي سـهول الشـام الشمالية فسكنوا معـرة النعمـان وحلـب وأنطاكيـة والبـلاد المجاورة. ولما جاء الفتح الإسلامي وانتصر المسلمون على البيزنطيين في معركة اليرموك ترك الموارنة بعد مدة هذه المناطق واعتصموا بجبال لبنان الشرقية واختلطوا بالسكان الأصليين وبنوا هناك كنائسهم وأديارهم ثم انتشروا رويداً رويداً فاحتلوا معظم الجبـال اللبنانيـة[١]. وكـان زعمـاء الموارنة على صلة طيبة بـالإمبراطور هرقـل ٦١٠-٦٤١م فكـان ذلـك داعيـاً لأن توجـه للطائفـة برمتها تبني تعاليمه في الطبيعة الواحـدة. إذ حـاول هرقـل معالجـة الانشقـاق الدينـي فـي الكنيسـة لتوحيد الكلمة فتقرر اتخـاذ صيغـة جديـدة للتوفيق بيـن المذاهـب المختلفـة وسـميت هـذه الصيغـة بالمونوثليتية التي تقر بالطبيعتين الإلهية والبشرية في السيد المسيح مع فعل واحد ومشيئـة واحـدة غير أن هذه المحاولة لم تلق الكثير من القبول وخاصة من البابا[٢].وكان سـعيد بـن البطريـق أول من قطـع بتبنـي الموارنـه مذهـب هرقـل ويـرى المسـعودي الـرأي نفسـه إذ يقـول: "إن الكنيسـة المارونية وافقت الملكيـة واليعاقبـة والنسـطورية فـي الثـالوث ولكنـها عارضتـهم فـي أن المسـيح جوهر من اقنوم واحد ومشيئة واحدة واعتنق معتقدهم خلق كثير من الناس فتلقبوا بالموارنة"[٣].

فالموارنة وافقوا الملكيين في البداية ثم انحازوا إلى تعاليم هرقل. ويذهـب حبيـب الزيـات إلى الرأي نفسه ويقول أن لقب الملكيين كان في أول نشأته يطلق على كل أتباع مجمع خلقيدونيـة فكان اسم خلقيدونـي مرادفاً للملكي ومـن هـذا القبيـل كـان الموارنـة يعدون فـي جملـة الملكيين لموافقتهم على المجمـع المذكـور. إذ أصبـح لقب الخلقيدونيين عنـد السـريان ينقسـم إلـى قسـمين خلقيدونيين مكسيمية نسبة إلى القديس مكسيموس الـذي اشتـهر بالنضـال عن المشيئتين(المذهـب الملكي) وخلقدونيين مارونية اتباع بيت مارون أو دير مارون. وفي سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م قام بيـن

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤٧. حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص١٤٠. يتيم، الأب ميشيل، تـاريخ الكنيسة الشرقية. حلب، المطبعة المارونية. د.ت، ص١٨٣.

(٢) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص١٢. رنسيمان ، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٧٢. حتـي، مختصـر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد نصار، مراجعة محمود زائد. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨، ص١٤٤

(٣) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص١٢. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤٧.

هاتين الفئتين نزاع شديد بالاستناد على ما رواه أسقف تكريت اليعقوبي حبيب أبي رايطة في رد له على ثاودورس أسقف حران الملكي المعروف بأبي قرة وكان معاصراً له بين أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلاديين في مجموع خطي محفوظ في خزانة باريس: "...الذين قبلوا الإيمان المبدع المصنوع في خلقيدونية هم الملكيون لاتباعهم قول مكسيميانس من بعد قبولهم النفاق الزور الأول المجتمع عليه. والمختلق في خلقيدونيا. وأبو قرة العالم ومن رأى رأيه منسوب خلقدونياً مكسيمانوسياً والآخرون الباقون يتسمون خلقيدونيين مارونيين مخالفين لمكسيميانس"(١).

كما أكد تحولهم وليم الصوري (William of Tyre) حيث أشار إليهم بتاريخه وقال كان في مدينة طرابلس وضواحيها أكبر الكنائس المنشقة وكانت هذه الطائفة بمواقعها الحصينة ومهارتها في الرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق لها القدرة على تجنيد ٤٠ ألف مقاتل وأنها ظلت خمسمائة سنة منحرفة عن الديانة الصحيحة تابعة مذهب المشيئة الواحد(٢). وفي حوالي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٢م وافق الموارنة على قبول سيادة البابا شريطة أن يظلوا محافظين على شعائرهم وتقاليدهم السريانية(٣). فمنحوا جميع الحقوق الكنسية والمدنية التي كانت لأبناء الكنيسة الكاثوليكية(٤).

أما المدافعين عن المارونية أمثال يوسف الدبس وغيره فقد ادعوا لكنيستهم الاستمرار للكنيسة الجامعة التي تقر بمذهب الملكانية أي طبيعتين للمسيح مع مشيئتين ويذكر أن الذين انشقوا هم فئة قليلة وليس كلهم وينفي قول وليم الصوري بأنهم ظلوا خمسمائة سنة منحرفين عن الديانة الصحيحة تابعين مذهب المشيئة الواحدة ويقول أن وليم نقل أشياء كثيرة من تواريخ سعيد بن البطريق، بطريرك الملكيين في الإسكندرية، وهذا لم يكن مدققاً في تواريخه بل أدخل عليها حكايات كثيرة وربما أموراً تخالف رأي المؤلفين، كما ينفي الدبس رواية سعيد بن البطريق أن

---

(١) الزيات، الروم الملكيون، ص١٤-١٥. ثاودورس ابو قرة أسقف حران الملكي عاش في الأرجح في أواخر القرن الثامن الميلادي وفي أوائل التاسع ولد في الرها وجاء إلى مارسابا في فلسطين وقابل القديس يوحنا الدمشقي وجاراه في محاربة البدع. قنواتي، المسيحية والحضارة العربية ، ص٢٦٣.

(2) William of Tyre, A History of Deeds Done Byond the Sea, Translated and annotated by Emily Atwater Babcock and A.C., New York: Columbia University Press, 1943, Vol.2, P. 458-459.

(3) Ibid, Vol.2, P. 458

(٤) حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص٢٦٠.

القديس مارون هو منشئ المارونية باتباعه مذهب المشيئة الواحدة[١]. وقد عاش الموارنة حياة منعزلة في لبنان، وقاموا بعدة ثورات في بداية العصر العباسي[٢].

الجراجمة والمردة.

الجراجمة كما عرفهم ياقوت بقوله بأنهم نسبة إلى بلدتهم جرجومة على جبال اللكام[٣]. أما عن أصل الجراجمة أو المردة فيذكر فيليب حتي بأنه بعد الفتح الإسلامي جندت بيزنطة مرتزقة من بلدة في جبل اللكام تدعى جرجومه لغزو العرب براً وبحراً، فأخذ الجراجمة يشنون الغارات على بلاد الشام ويتسللون إلى لبنان وبما أنهم خشنون جبليون ونصارى فقد وجدوا الجو ملائماً في شمال لبنان. واندمجوا مع السكان الآراميين فيه وصاروا يعرفون بالمردة (المتمردين) أي العصاة لتعرضهم للعرب وعدم الخضوع لأوامر بيزنطة ثم التحقت فيما بعد بجماعة الجراجمة والآراميين جماعة من سورية يعرفون بالموارنة وكان هؤلاء من أتباع الراهب مارون. وبعد وفاته نزح تلامذته إلى قلعة على نهر العاصي على أثر خلاف مع الروم الملكيين وفي مركزهم الجديد اعتنق مذهبهم كثيرون ثم نزحوا إلى شمال لبنان واندمجوا بالطائفة المسيحية وأطلقوا عليها الطائفة المارونية[٤]. وهناك رأي آخر يقول بأن المردة والجراجمة والموارنة ثلاثة أسماء لمسمى واحد. فالاسم موارنة هو الاسم الديني الدال على مذهب القوم والاسم جراجمة هو الاسم الجغرافي الدال على عاصمتهم جرجومة في جبال اللكام. والاسم مردة يدل على أنهم فرقة من شعب عرف بهذا الاسم في سوريا وبلاد فارس منذ الأموريين أي منذ الألف الثالث ق.م ولازمهم هذا الاسم حيث حلت عشائرهم في لبنان وسورية والعراق وجبال اللكام وأرمينية[٥].

والواقع أن الجراجمة والمردة والموارنة ليست إلا جماعات مختلفة، فالموارنة كما مر في السابق هم طائفة دينية انشقت عن الكنيسة الملكية بقولها بالمشيئة الواحدة سكنت في شمال الشام ثم اتجهوا نحو لبنان. أما الجراجمة فهم أهل الجرجومة التي نسبوا إليها في جبل اللكام فقد

---

(١) الدبس، من تاريخ سورية الدنيوي والديني، ج٦، ص١٧٢، ٢٠٤. ضو، الأب بطرس، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، بيروت، دار النهار للنشر، ط٢، ١٩٧٧، ج٣، ص٤٥٧.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٨، ص٢٦٨. يتيم، تاريخ الكنيسة الشرقية، ص٨٤.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٢٢.

(٤) حتي، مختصر تاريخ لبنان، ج٢، ص١٠٩.

(٥) ضو، تاريخ الموارنة، ج٣، ص٢١٤.

قال عنهم البلاذري: "حدثني مشايخ من أهل أنطاكية أن الجراجمة من مدينة على جبل اللكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا يقال لها الجرجومة وأن أمرهم كان في أيام استيلاء الروم على الشام وأنطاكية إلى بطريق أنطاكية وواليها فلما قدم أبو عبيدة أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبههم عليهم ثم أن أهل أنطاكية نقضوا وغدروا فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم بادروا بطلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين، وعيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم... فكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم"(١).

أما المردة فقد أشار المؤرخ البيزنطي ثيوفانس إلى هؤلاء المردة أو المرديين بكلمة (Mardaites) في سياق الأحداث التي حدثت زمن الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثالث ٦٦٨-٦٨٥م بدفع مجموعة المردة(٢)، وعلى الأرجح فرقة عسكرية، إلى جبال لبنان وانضمام عدد كبير إليهم من سكان البلاد والعبيد والمساجين حتى صاروا آلافاً كثيرة من المهاجمين فاضطر معاوية سنة ٤٦هـ/٦٦٩م إلى عقد صلح مع الإمبراطور ودفع مقدار من المال سنوياً(٣). ثم يتابع قوله وفي سنة ٦٥هـ/٦٨٤م كان في الشام قحط ووباء وهاجم المردة لبنان فأرسل عبد الملك إلى الإمبراطور قسطنطين مبعوثين ليجددوا معه الاتفاق على الشروط نفسها التي عقدها معاوية يدفع بموجبها ثلاثمائة وخمسة وستين ديناراً وثلاثمائة وخمسة وستين من الخيول العربية(٤).

وفي سنة ٦٧هـ/٦٨٦م وباعتلاء جستنيان الحكم ٦٨٥-٦٩٥م بعث عبد الملك مبعوثين آخرين ليجددوا الاتفاق معه واتفق الطرفان على أن يخرج ملك الروم المردة من جبل لبنان وأن يدفع الخليفة عبد الملك كل يوم ألف دينار وحصاناً وعبداً. وبعدها قام الإمبراطور بإخراج المردة وكانوا حوالي ١٢,٠٠٠ مقاتلاً من جميع البلاد وأرسلهم إلى أرمينية(٥).

---

(١) البلاذري، فتوح، ص١٦٣-١٦٤.

(٢) أطلق عليها البلاذري خيل للروم ص١٦٤.

(3) Theophanes, The Chronicle, P. 53

(4) Ibid, P. 59

(5) Ibid, P. 61

أما ما ذكره البلاذري عن قوات البيزنطيين والتي سماها ثيوفانس مردة قال: "خرجت خيل للروم إلى جبل اللكام أيام معاوية وعليها قائد من قوادهم وصالحهم حين شغل عن محاربته، ثم تكررت هذه العملية أيام عبد الملك وانشغاله بحرب مصعب بن الزبير (ت٧٢هـ/٦٩١م) واستغلال البيزنطيين لذلك فخرجت خيل للروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان وقد ضوت إليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين فاضطر عبد الملك أن صالحهم على ألف دينار في كل جمعة لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه، وارتهن منهم رهناء وضعهم في بعلبك، ووافق ذلك أيضاً طلب عمرو بن سعيد بن العاص (ت ٧٠هـ/٦٨٩م) الخلافة وإغلاقه أبواب دمشق حين خرج عبد الملك منها فازداد شغلاً وكان ذلك في سنة ٧٠هـ/٦٨٩م[١]. ثم أن عبد الملك وجه إلى الرومي (أمير طرابلس) سحيم بن مهاجر فتلطف حتى دخل عليه متنكراً فأظهر الممالاءة وتقرب إليه بذم عبد الملك... واغتر به ثم إنه انكفى عليه بقوم من موالي عبد الملك وجنده ... فقتله ومن كان معه من الروم[٢]. كما أورد الرواية أيضاً ابن عساكر في تاريخه إذ قال: "أن طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين منعة مدائن الساحل كاتب أنباط جبل لبنان واللكام فخرجوا جراجمة فعسكروا بالجبل، ووجه طاغية الروم بطريق الروم في جماعة من الروم في البحر فسار بهم ... وخرج بمن معه حتى علا بهم على جبل لبنان وبث قواده في أقصى الجبل حتى بلغ أنطاكية وغيرها من الجبل الأسود، فعظم ذلك على المسلمين بالساحل حتى لم يستطع واحد منهم أن يخرج في تلك المناطق إلا بالسلاح وظل الوضع هكذا إلى أن تمكن سحيم بن مهاجر من دخوله على ملك الروم وقتله هو وجماعته"[٣].

من خلال تلك الروايات يتبين أن كلاً منهم قد ميز بين المردة والسكان فقد ذكر ثيوفانس المردة وانضمام السكان والعبيد والمساجين إليهم. ثم ذكر البلاذري خروج خيل للروم وانضمام الجراجمة والعبيد إليهم. كذلك ذكر ابن عساكر أن طاغية الروم كاتب أنباط جبل لبنان واللكام فخرجوا جراجمة فعسكروا بالجبل. ثم وجه ملك الروم أيضاً البطريق في جماعة من الروم. فالمردة إذن ليسوا هم الجراجمة ولا هم الموارنة ولم يشكلوا شعباً أو هجرة أو حتى فرقة دينية

---

(١) البلاذري، فتوح، ص ١٦٤.

وقد أشار إلى ذلك الطبري في أحداث سنة ٧٠هـ/٦٨٩م، إذ قال وفي هذه السنة ثارت الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص١٥٠.

(٢) البلاذري، المصدر السابق، ص١٦٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص١٤٥.

في بلاد الشام وصولاً إلى جبل لبنان بل كانوا فرقة من الجند توغلت في هذه الأرض وقتاً من الزمن بأمر من الإمبراطور البيزنطي، وتم سحبها بعد زوال الأسباب التي ادت إلى وجودها. هذا وقد حالت أسباب عدة دون إدماج هذه العناصر بالسكان المحليين قد يكون أبرزها الاختلاف المذهبي بينهم وبين نصارى الشام إلى جانب الالتزام بقرار العودة إلى آسيا الصغرى المنصوص عليها بالاتفاق.

هذا وقد توزعت جميع طوائف النصارى في العصر العباسي على مدن وقرى بلاد الشام حتى أن بعض المناطق كان غالبية سكانها من النصارى فالموارنة كان أكثرهم بجبل لبنان وسير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان[١]. وجبل اللكام غلب عليه الأرمن[٢]. الرها والغالب على أهلها النصارى[٣]. أنطاكية مدينة النصارى، والنصارى يدعونها مدينة الله ومدينة الملك وأم المدن لأن بدء النصرانية كان فيها[٤]. المصيصه اسكنها مروان بن محمد قوماً من الفرس والصقالبة والأنباط والنصارى[٥]. يبرود ضيعة كبيرة قريبة من صيدنايا وبها نصارى كثيرون[٦]. قارة على قارعة الطريق وهي المنزل الأول من حمص للقاصد إلى دمشق وأهلها كلهم نصارى[٧]. القريتين قرية كبيرة من أعمال حمص أهلها كلهم نصارى[٨]. القدس قليلة

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٤٧.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٩.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٦.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٢٥. البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو، (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، المسالك والممالك، ج١، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، قرطاج، بيت الحكمة، ١٩٩٢. ص ٤٦١. وسيشار له فيما بعد هكذا، البكري، المسالك والممالك. ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن الشحنة. (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، دمشق، دار الكتاب العربي ١٩٨٤، ص٢٠٢.

(٥) قدامة، الخراج، ص ٣٠٨

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٦١٠.

(٧) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير، (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر للطباعة ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص٢٣٣. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٩٥. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل محمد بن عمرو، (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، تقويم البلدان، م. رينود، وماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٥٠، ص٢٢٩. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١١٧.

(٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٣٦.

العلماء كثيرة النصارى[١]، جبل الجليل يكثر فيه الرهبان[٢]. قرية تل العقاب من مدن الجزيرة بالقرب من رأس العين هي للنصارى المعاهدين الذميين[٣]. ملطية بلدة يسكنها الأرمن[٤]، والنبط والنصارى.[٥]طرندة وهي من ملطية على ثلاث مراحل ... ليس بها إلا ناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم[٦]. سميساط في طرف بلاد الروم على غربي الفرات يسكنها الأرمن[٧]. بيت لحم وهي الموقع الذي ولد فيه المسيح وغالب سكانها نصارى[٨]. بيت جالا وهي من قرى فلسطين أهلها من أصحاب الزنار يزرعون الكرمة[٩].

قرية شرافات قرب بيت المقدس أهلها كلهم نصارى ليس فيها مسلم، وحرفة أهل القرية عصر العنب وبيعه[١٠]، الكرك كانت ديراً يتديرة الرهبان ثم كثروا وكبروا بناءه وآوى إليهم من جاورهم من النصارى فقامت لهم به أسواق ودرت لهم معايش ..."[١١]. كفر دبين وهي قلعة على نهر العاصي، والمرزبان قرية كبيرة من قرى حلب وأهل هذه النواحي وفلاحوها من الأرمن[١٢]. جونية حصن كبير على البحر وأهله نصارى يعاقبه [١٣]

كما كان[١٤] حاضر قنسرين لتنوخ مذ أول ما تنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر، ثم ابتنوا به المنازل ... وكان بقرب حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٧.

(٢) ابن الفقيه، كتاب البلدان، ص١٥٤.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢١٧.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٦.

(٥) قدامة، الخراج، ص ٣١٧

(٦) البلاذري، فتوح، ص١٨٩.

(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٥٨.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٣٦٢، العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٦٥.

(٩) زايد، محمود، رحلة برترندون دي لابوركير إلى فلسطين ولبنان وسورية سنة ١٤٣٢م، د.م. د.ن. ١٩٦٢ عن مجلة الأبحاث، السنة ١٥، ج٣، ١٩٦٢، ص٣٠٨.

(١٠) العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص١٤٧.

(١١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص٦٩-٧٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦١.

(١٢) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص١٦٧، ١٧١.

(١٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ٣٧٢

(١٤) الحاضر: الحاضر في الأصل خلاف البادي. والحاضر الحي العظيم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٦.

تنوخ وغيرهم ودعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم وبقي بعضهم على النصرانية فأسلموا في خلافة المهدي[١]. وعلى بعد ٤٠ ميلاً من دمشق تقع قرية اسمها ساردان (ساردناك) وهي صيدنايا يكثر فيها النصارى ولا يسكنها المسلمون[٢].

اليهود: افترق اليهود إلى طوائف كثيرة المشهور منها طائفتان، الربانيون والقراؤون[٣]. وهم وإن كانوا فرقتين فإنهم كالفرقة الواحدة إذ توراتهم واحدة ولا خلاف في أصل اليهودية بينهم وقد اتفق الجميع على استخراج ستمائة وثلاث عشرة فريضة من التوراة يتعبدون بها ثم اتفق كلهم على نبوة موسى وهارون ويوشع وإبراهيم وإسحق ويعقوب(إسرائيل) والأسباط[٤]. ويستقبلون صخرة بيت المقدس في صلواتهم ويوجهون موتاهم إليها. وأن الله تعالى كلم موسى عليه السلام على طور سيناء[٥].

الربانيون (الربيون - الربانون) أو الناموسيون وهم جمهور اليهود المعروفون أكثر من غيرهم وتعني كلمة ربانيم بالعبرية الإمام أو الفقيه وهو الحبر. وقد عربت هذه الكلمة إلى رباني وسمي أبناء هذه الفرقة ربانيين إشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقهائهم في التلموذ والمشنا[٦] وتفريعات على التوراة ينقلونها عن موسى عليه السلام وتقيدوا بذلك حتى صار هذا

---

(١) البلاذري، فتوح، ص١٥٠-١٥١.

(2) Maundevill, The Book, P. 190 Frescobaldi, Visit to the Holy Places, P. 84.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٥٩-٢٦٠.

Goitein, A mediterranean Society, Vol.2, P. 7.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠. الأسباط هم أبناء إسرائيل الإثنا عشر وهم يوسف وبنيامين ونفتالي وروبيل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وربولي ويشجر وجاد وأشر؛ ومنهم تفرع جميع بني إسرائيل. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠.

طور سيناء: الطور في كلام العرب: الجبل ولا يسمى طوراً حتى يكون ذا شجر. وبالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين جبل يسمى الطور وعليه كلم الله موسى عند خروجه ببني إسرائيل من مصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٧. وقد عرفه القلقشندي بقوله: هو جبل في رأس بحر القلزم في جهة الشمال على رأس جزيرة في آخره. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠.

(٦) التلموذ والمشنا: التلموذ اسم عام للمشنا والجمارا ويطلق بنوع خاص على الجمارا وهي مجموعة الشروح وحواشي تبسط قواعد المشنا ومراسم تطبيقها. والمشنا هي الشريعة الشفوية واختلف علماء اليهود في أصلها فمنهم من عزاها إلى عزرا ومنهم إلى سليمان ومنهم إلى موسى والذين عزوها إلى موسى افترقوا في الرأي فريق قال إنها سلمت إليه كتابة كما هي وفريق قال إنه تلقاها مشافهة وتحتوي على أحكام دينية وقضائية تفسر أحكام شريعة التوراة وتنقسم إلى ستة أقسام. الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤. ج١، ص ٢٧١.

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia knowledge in Dephlounded 1768, 15th Edition Chicago: Vol.22, P. 430.

الاسم سمة عامة لهم وكانوا بعيدين عن العمل بالنصوص الإلهية إذ أباحوا تأويل نصوص التوراة[١].

وكان اليهود يستشيرونهم في أمورهم كلها فكان رأيهم يمثل الحد الفاصل في تيار النقاش حول أمور الحياة الدينية والدنيوية ويبدو أن هؤلاء سيطروا على كل شيء في حياة اليهود وغرتهم الحياة الدنيا فتكالبوا عليها ولذا أنذرهم السيد المسيح بالويلات[٢] فقال: "ويلكم أنتم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالاً عسرة الحمل وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم"[٣]

ويبدو أن جو النقاش الديني وحماسة المسلمين للقرآن الكريم جعل اليهود يرجعون إلى نصوص التوراة بعد أن كان الرجوع عادة إلى التلموذ والمشنا ولعل لهذا صلة بالاتجاه الذي بدأ يظهر بالتأكيد على التوراة وعدم الالتفات إلى التلموذ كما يبدو أن جو النبوءات والالتفات للملاحم في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي وجد هوى بينهم[٤].

ففي مطلع القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ظهر دجال يدعى سيرين ووعد اليهود أن يملكهم الأرض المقدسة ونادى بالخلاص من أوامر التلموذ وامتد صدى حركته إلى الأندلس وفشلت[٥]. وفي أواخر العصر الأموي وفي زمن مروان بن محمد ١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٤-٧٤٩م ظهر أبو علي إسحق بن يعقوب الأصفهاني وزعم أنه نبي وأنه رسول المسيح المنتظر وأن الله كلفه أن يخلص بني إسرائيل من أيدي الأمم العاصين وخالف اليهود في كثير من أحكام الشريعة المذكورة في التوراة وتبعه بشر كثير من اليهود وجمع جيشاً لتحرير اليهود ولكنه قتل في الري أيام الخليفة المنصور. وظهرت بعده عدة فرق لكنها كانت قصيرة العمر[٦]. وجميعها كانت تقاوم الربانيين إلا أن الربانيين ظلوا أوفر عدداً من جميع الطوائف اليهودية الأخرى وكان منهم معظم أغنياء اليهود [٧].

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٢٧-٧٢٨.

(٢) نعيسة، يوسف، يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨. ص١٠.

(٣) إنجيل لوقا، اصحاح ١١، عدد ٤٦.

(٤) الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص٩٥.

(٥) التطيلي، الرحلة، ص٢٠٦. الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص٩٦.

(٦) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٩٧. التطيلي، المصدر السابق ، ص٢٠٦. الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص١٦.

(٧) نعيسة، يهود دمشق، ص١٠.

القراؤون: أطلق عليهم اسم بنو مقرا، ومعنى مقرا الدعوة، أي أصحاب الدعوة، وهم يحكمون نصوص التوراة، ولا يلتفتون إلى قول من خالفها، ويقفون مع النص دون تقليد من سلف، ويقال للقرائين أيضاً المبادية لأنهم كانوا يعملون بمبادئ الشهور من الاجتماع الكائن بين الشمس والقمر. ويقال لهم أيضاً الأسمعية، لأنهم يراعون العمل بنصوص التوراة دون العمل بالقياس والتقليد[1]. ولعب القراؤون دوراً كبيراً ووقفوا ضد الربانيين أنصار القانون الشفوي وسعوا لجعل اليهودية تعتمد كلياً على التوراة. ويعود تاسيس فرقتهم إلى عنان بن داود (ت في حدود سنتي ١٧٤-١٨٤هـ/٧٩٠-٨٠٠م. وهو من أسرة رأس الجالوت وكان ضليعاً في التلموذ وكان يرى أن قراراته ليست لها قوة دينية وكان ينتظر أن يتولى رئاسة الجالوت بعد وفاة عمه صمونيل بن حسداي (ت ١٥٥هـ/٧٧١م) لأنه لم يعقب ولداً يخلفه في منصبه ولكن أساتذة الأكاديميتين التلموذتين البابليتين لم يرضوا عن آرائه واتهموه بفساد السيرة وسوء الأخلاق وقلة التقوى فرجحوا عليه أخاه الأصغر حنانيا بن داود[2]. فثارت نقمة عنان على هذا القرار الذي عده غمطاً لحقوقه وقرر الخروج على الربانيين وشجب تعاليمهم ورفض تلموذهم ووجه عنان نقده للتلموذ، وكان حريصاً على العودة للتوراة في تنظيم الحياة الدينية ووبخ التلموذيين بأنهم أفسدوا اليهودية واتهمهم بإضافة أشياء كثيرة للتوراة بل وبإهمال الكثير من أوامرها. ووجدت آراءه قبولاً في الأوساط اليهودية ونصبوه رئيساً عليهم. وصاروا يعرفوا بالقرائين أو بني مقرا إشارة إلى تمسكهم بالمعنى الحرفي للتوراة وتمييزاً لهم عن اليهود الربانيين الذين يتبعون التلموذ في شرح وتفسير أحكام التوراة[3].

وكان طبيعياً أن يقاوم الربانيون عنان وأصحابه فانبروا يكافحون بدعته ويندون بنحلته بكل ما أوتوا من قوة قبل أن يستفحل أمرها ويشتد ساعدها. فرفع رأس الجالوت قضية عنان إلى الخليفة أبي جعفر المنصور وكان الخليفة يومئذٍ يتوجس شراً من أصحاب البدع الفكرية

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٢٨.

(٢) التطيلي، الرحلة، ص١٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص١٩١-١٩٢.

والمذهبية[١]. ويرى فيها مصدراً للقلاقل والفتن، أما من ناحية اليهود فقد تذكر الشقاق الذي تركته فتنة أبي عيسى إسحق الأصفهاني في أول حكمه فوجد في دعوة عنان فاتحة شغب وشحناء في وقت كانت الدولة بحاجة إلى الاستقرار بين مختلف العناصر لذلك أمر بحبس عنان بن داود بتهمة ثورته على رأس الجالوت ويقال أن أصحاب عنان بذلوا من جانبهم المال الوفير لإنقاذ رئيسهم فآل الأمر إلى إطلاق سراحه، لكن الخليفة اشترط عليه أن يبتعد عن مقر رأس الجالوت وأن يجعل مقامه في فلسطين[٢].

وفي القدس شيد عنان لجماعته كنيساً وصارت مركزاً لرئاسته (نسينيم) أو بيت عنان والعلماء القرائين، ووضع كتابين ضمنهما أحكام طريقته، الأول يدعى كتاب الفرائض، والثاني كتاب الفذلكة[٣]. وفي حوالي النصف الثاني للقرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي تفوق القراؤون على الربانيين وغدت فلسطين المركز الرئيسي لنشاط القرائين وظل مركزهم قائماً فيها حتى أيام الحروب الصليبية[٤].

على أن هؤلاء المنشقين على التلموذ لزعمهم أنه ثقيل القيود والأحكام لم يلبثوا أن قيدوا أنفسهم بنواميس اشد صرامة وأثقل قيوداً من بنود التلموذ لأن ابتعادهم عن الاجتهاد والسير بمقتضى تطور الأحوال والزمان جعلهم جامدين على القديم وفعلوا ذلك مندفعين بروح التعصب

---

(١) ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عمه عبد الله بن علي (ت ١٤٧هـ/٧٦٤م) ومن الساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني (ت ١٣٧هـ/٧٥٤م)، أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد بن عبد الله النفس الزكية (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م) ولخوه إبراهيم في الحجاز (ت ١٤٥هـ/٧٦٢م) ولم يكن المنصور ينتهي من تلك الحركات حتى فوجئ بتعاليم جديدة يدعوا إليها أهل فارس. إذ كانوا قبل الإسلام يقدسون ملوكهم فيجعلونهم في مصاف الإله وهؤلاء هم الراوندية الذي نادوا بتألية المنصور. عن هذه الحركات جميعها انظر: اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٣٦٤-٣٨٠. والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص٤٧٩-٤٩٤، ٥٠١-٥٠٢، ٥٠٥-٥٠٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص١٤، ٦٣، ١٠٧.

(٢) التطيلي، الرحلة، ص١٩٢. ٥٢٨٢١٩

Moshe, A History of Palestine, P. 182.

(٣) التطيلي، المصدر السابق، ص١٩٣. الدوري، اليهود في العصر الإسلامي، ص٩٦

(٤) لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق، دار الفكر، ١٩٧٩، ص٢٧٢.

Goitein, Jews and Arabs Their Contacts P. 176.

الشديد ضد الربانيين وكراهيتهم لهم ومن المأثور عن عنان قوله: "لو كنت أحمل أرباب التلموذ في بطني لقتلت نفسي وقتلتهم معي"(١).

وتولى زعامة القرائين بعد وفاة عنان ولده شاؤل ثم حفيده يوشيه لكن الفرقة لم تستطع أن تحتفظ بوحدتها فانشقت على نفسها وتفرعت إلى شيع وجماعات عديدة، وكان الربانيون لا يتركون فرصة إلا واستغلوها بمهاجمة بدعة القرائين واتهامهم بالكفر والزندقة والمروق على الدين وعدوهم غرباء عن اليهودية وحرموا الاتصال بهم والتزوج من بناتهم غير أن هذا العداء ضدهم لم يحل دون انتشار القرائين واشتداد ساعدهم فقد امتدت فروعها من فلسطين إلى الشام وأصبح لهم في العراق نفسها أتباع وأشياع واتجهت نحو الشرق فكان لها في خراسان ووصلت إلى شواطئ البسفور وشبه جزيرة القرم أما في الغرب فقد استوطنت في مصر والإسكندرية ومنها تسربت إلى الأندلس(٢). ومع مرور الزمن أصبحت علاقاتهم حسنة فيما بينهم وصاروا يتزوجون من بعضهم البعض(٣).

وقد اختلف القراؤون والربانيون في أمور عدة أولها القول بالظاهر والجنوح إلى التأويل، فالقراؤون يقفون مع نصوص التوراة فيحملون ما وقع فيها منسوباً إلى الله تعالى كالتكلم والاستواء على العرش والنزول على طور سيناء ونحو ذلك. بينما يذهب الربانيون إلى تأويل ما وقع في التوراة. ثانيها، القول بالقدر فالربانيون يقولون بان لا قدر سابق. والقراؤون يقولون بسابق القدر(٤). ومن أقصى الأمور الدينية التي يخالف القراؤون بها سائر اليهود تركهم قواعد التقويم اليهودي في تعيين مواسم الأعياد فالشهر لا يثبت عندهم إلا إذا قرر الشهود العدول رؤية الهلال وبذلك نشأ اختلاف بين أيام أعيادهم وأعياد اليهود ومنها أيضاً تشددهم الصارم بحرمة السبت وتمسكهم الحرفي بالآية القائلة" :ليلزمن كل مكانه لا يخرج أحد من مكانه في اليوم السابع"(٥).

---

(١) التطيلي، الرحلة، ص١٩٢.

(٢) التطيلي، المصدر السابق، ص١٩٣.

(3) Goitein, A Mediterranean Society, Vol. 2, P. 7

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٦٠-٢٦١. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٢٦.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٩٧. التطيلي، الرحلة، ١٩٣.

بالنسبة ليوم السبت، يعتقد جميع اليهود بحرمة يوم السبت ويقولون بخروج واحد في آخر الزمان وهو الكوكب المضيء الذي تشرق الأرض بنوره واليهود على انتظاره، والسبت يوم ذلك الرجل، كما هو أيضاً يوم الاستواء بعد الخلق، الشهرستاني، الملل والنحل، ص٩٩. وكانوا يقضونه في العبادة والصلاة ولا يعملون به شيئاً. انظر السفر الثاني، (سفر الخروج) إصحاح ٣٥، والسفر الرابع (العدد) اصحاح ١٥، عدد ١٥.

السامرة:

عرفت طائفة السامرة بهذا الاسم لسكناهم مدينة شمرون وقيل لها سمرون وهي مدينة نابلس[١]. وهم أتباع السامري الذي أخبر الله عنه في القرآن "وأضلهم السامري"[٢]، وجعلهم يعبدون العجل[٣]، واختلف في أمر السامرة هل هم من بني إسرائيل أم لا. فيذكر البيروني أن السامرة قوم أتوا من بابل إلى الشام وامتزجت مذاهبهم من المجوسية واليهودية[٤]. كما يذكر المقريزي أنهم ليسوا من بني إسرائيل وإنما هم قوم أتوا من الشرق إلى فلسطين وتهودوا[٥]. والربانيون والقراؤون ينكرون كون السامرة من اليهود وسموهم بالكوثيين نسبة إلى مدينتهم كوثه[٦]. وسماهم اليونان بالسامريين فغلب الاسم عليهم وعبدوا يهوه إله إسرائيل حسب عقليتهم الوثنية إلى جانب أربابهم وأصنامهم فأطلق اليهود عليهم اسم (شومارنيم) أي المشركين لكن السامريين حرفوا تلك الكلمة إلى (شمرنيم) أي المحافظين على الدين الموسوي[٧].

وأقام السامرة لهم في فلسطين هيكلاً فوق جبل جرزيم[٨]. واتخذوا أسفار موسى كتاباً مقدساً ورفضوا ما سواها من أسفار اليهود وبذلك تم الانفصال بينهم وبين اليهود وقد خفت حدة الجفاء بين السامرة واليهود فيما بعد بتأثير موجة الاضطهاد التي غمرت الفريقين أيام البيزنطيين فلم يعد اليهود ينظرون إلى السامرة نظرة نحلة وثنية فاعتبروهم فرقة دينية ذات صبغة خاصة وخاصة أن السامريين تركوا وثنيتهم. لكن هذا التقارب لم يلبث أن وقف إلى حد معين وفصلت الأمور الذي يجب لليهودي أن يتعاطاها مع السامري بفصل خاص الحق بالتلموذ يعرف بفصل الكوثيين (السامريين) [٩].

---

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٣٠.

(٢) سورة طه، آية ٩٥.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٠.

(٤) البيروني، الآثار الباقية، ص٣١٨.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٣١.

(٦) كوثه: بالعراق على الفرات نسبة إلى كوث بني ارفخشد بن سام بن نوح وهو جد إبراهيم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٨٧.

(٧) التطيلي، الرحلة، ص١٨٥-١٨٦.

(٨) جبل جرزيم (الطور)، وهو الجبل المشرف على نابلس، ولهذا يحجه السامرة. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٧.

(٩) التطيلي، الرحلة، ص١٨٨.

والسامريون يستعظمون استباحة السبت كغيرهم من اليهود. ويزعمون أنهم يطبقون أوامر التوراة حرفياً. ويجعلون الاعتماد على توراتهم التي بيدهم. وينكرون صحة توراة الربانيين والقرائين. ويحرمون أكل لحم الجدي مختلطاً بلبن أمه عملاً بما جاء في التوراة[١]. وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار أي نبوة من بعد موسى ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام. ويخالفونهم في استقبال صخرة بيت المقدس، ويستقبلون طور نابلس زاعمين أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام[٢] ويتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة. أما عن طهارتهم للصلاة فهي أقرب إلى وضوء المسلمين[٣]. ولهم كتابة خاصة بهم ينقصها ثلاثة أحرف هي الحاء والهاء والعين[٤]. وافترقت السامرة إلى فرقتين، الدوستانية ومعناها الفرقة المتطرفة الكاذبة وتزعم أن الثواب والعقاب في الدنيا. والكوستانية ومعناها الجماعة الموحدة الصادقة ويقرون بالآخرة والثواب والعقاب فيها[٥].

وقد توزع اليهود والسامرة على مدن وقرى بلاد الشام. فيذكر المقدسي أن أقليم الشام قليل العلماء كثير الذمة والسامرة فيه من فلسطين إلى طبرية[٦]. وغلب على سكان القدس النصارى واليهود[٧]. ومدينة الرملة أهلها أخلاط من الناس من العرب والعجم وذمتها سامرة[٨]. منهم نحو خمسمائة مجزي[٩]. ونابلس بها أخلاط من العرب والعجم والسامرة[١٠]. وسميت نابلس بمدينة السامرية لكثرة ما بها من السامرة وليس للسامرة مكان من الأرض إلا بها[١١]. وأهل مدينة

---

(١) السفر الثاني (الخروج)، اصحاح ٢٣.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٩٨. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧١. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٣١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٢. علي، خطط الشام، ج٦، ص٢١٧.

(٤) التطيلي، الرحلة، ص٩٧.

(٥) الشهرستاني، الملل والنحل، ص٩٨.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٩.

(٧) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(٨) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٨.

(٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٥٩.

(١٠) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٩.

(١١) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٥٨. ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٥٩. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٥٦. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص٢٤٣. العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٧٥.

قيسارية قوم من السامرة[١]. وعندما فتح معاوية مدينة قيسارية سنة ١٩هـ/٦٤٠م وجد بها أعداداً من اليهود والسامرة والمرتزقة. وكان سبب فتحها أن يهودياً دل المسلمين على طريق جانبي ففتحوها وفيها خلق من العرب [٢]. وعندما ولي معاوية الشام في خلافة عثمان فتحت طرابلس وأسكنها معاوية جماعة كثيرة من اليهود[٣]. ويبنا من كور فلسطين أهلها قوم من السامرة[٤]. وبيت ماما من كورة نابلس وأهلها سامرة[٥]. كما عاش اليهود في حمص منذ أيام الفتوحات الإسلامية حيث دافعوا عن المدينة وأغلقوا الأبواب وحرسوها خوفاً من البيزنطيين واستمر وجودهم فيها في العصر العباسي[٦].

وحلب بها عدد كبير من اليهود، لهم حارة خاصة بهم[٧]، وسمي أحد أبوابها بباب اليهود[٨]. وقدّس مدينة على سفح جبل بالقرب من طبرية كثيرة الذمة[٩]. وأريحا وأذرعات بها عدد من اليهود فحين أخرج الرسول ﷺ اليهود من المدينة خرجوا إلى الشام وإلى أذرعات وأريحا[١٠]. ثم أجلى عمر آخرهم من أرض الحجاز إلى تيماء وأريحا[١١]. كما عاش اليهود أيضاً في الخليل وسمي أحد أبوابها بباب اليهود[١٢]. وتشير بعض الوثائق اليهودية إلى وجود اليهود في مدينة عمان في العصر الفاطمي إذ ورد في تلك الوثائق ان يهوديا اسمه اسحق قدم من وادي القرى وترك زوجته وأولاده في عمان عاصمة البلقاء وسافر لقضاء بعض شؤونه[١٣].

---

(١) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٩.
(٢) قدامة، الخراج، ص ٣٠١ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص٢٥١.
(٣) البلاذري، فتوح، ص١٣٣. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص١٠٥.
(٤) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٩.
(٥) البلاذري، فتوح، ص١٦٣.
(٦) المصدر نفسه، ص١٤٠، ١٤٣.
(٧) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٦١.
(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٥.
(٩) المصدر نفسه، ص١٦٢.
(١٠) العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٧٥.
(١١) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٥.
(١٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٨.

(13) Mann, Jacob, The Jews in Egypt and in Palestine Under the Fatimid Caliphs, London: Oxford University Press, 1969. Vol. 1. P. 118.

غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٢. ص ١٤٤.

كما أنه يمكن الاسترشاد بما جاء في رحلة بنيامين التطيلي (٥٦١-٥٦٩هـ/١١٦٥-١١٧٣م) عن أماكن وأعداد اليهود في مدن الشام وأن زار المنطقة في فترة متأخرة عن فترة البحث إلا أنه يبقى مؤشراً على مواقع سكناهم في الأزمنة السابقة مع الأخذ بعين الاعتبار أن عدداً من المدن والقرى الفلسطينية هجرها سكانها اليهود بعد قدوم الفرنج إلى البلاد أثناء الحملة الصليبية الأولى. فكان أكبر تجمع لليهود في بلاد الشام في مدينة دمشق حيث كان يقيم فيها نحو ثلاثة آلاف يهودي[١]، وتدمر يقيم فيها نحو الألفين[٢]، وحلب نحو الألف وخمسمائة يهودي[٣]. والرملة يقيم بها نحو ثلاثمائة ولهم في ضاحيتها مقبرة كبرى[٤]. وعسقلان فيها نحو المائتين من الربانيين ونحو الأربعين من القرائين وثلثمائة من الكوثيين (السامرة)[٥]. طبرية فيها نحو مائة يهودي وبها قبور مشاهير علماء اليهود[٦]. نابلس فيها نحو الألفين من الكوثيين وليس فيها يهود[٧]. القدس فيهما معمل للصباغة يستأجره اليهود من ملك القدس ويبلغ عددهم في هذه المدينة نحو المائتين يقيمون في حي مجاور لبرج داود[٨]. قيسارية وجد فيها نحو المائتين من اليهود الربانيين ومثلهم من الكوثيين[٩]. عكا فيها نحو مائتي يهودي وهي مدينة عكو الواردة في التوراة[١٠]. صور فيها نحو أربعمائة يهودي بينهم جماعة من العلماء العارفين بالتلموذ وكان بين يهود صور من يمتلك السفائن التي تجوب في البحار[١١]. وجبيل فيها نحو المائة والخمسين يهودياً[١٢].

أما باقي المدن فقد وجد فيها أعدادٌ قليلة من اليهود مثل يافا فيها يهودي واحد صباغ، واللد فيها يهودي واحد يحترف مهنة الصباغة، بيت لحم فيها أحد عشر يهودياً يحترفون الصباغة.

---

(١) التطيلي، الرحلة، ص١١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١١٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٠٨.
(٥) التطيلي، الرحلة، ص١٠٩.
(٦) المصدر نفسه، ص١١١.
(٧) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٨) المصدر نفسه، ص٩٨.
(٩) المصدر نفسه، ص٩٤.
(١٠) المصدر نفسه، ص٩٣.
(١١) المصدر نفسه، ص٩٢.
(١٢) المصدر نفسه، ص٨٩.

صيدا كان منهم نحو العشرين، وفي بيروت أيضاً خمسون يهودياً، وفي قرية زيرين في مرج ابن عامر فيها يهودي واحد يحترف الصباغة، وفي القريتين من أعمال حمص يهودي واحد، وفي حمص نحو عشرين يهودياً ويقيم في بالس عشرة يهود(١).

كما كثر اليهود أيضاً في مدن الجزيرة الفراتية فقد وجد في نصيبين منهم نحو الألفين(٢). والرقة فيها نحو سبعمائة يهودي. كما كان يقيم في قلعة جعبر نحو الألفي يهودي(٣). وكان عددهم يقل في مدينة حران حيث وجد فيها عشرون يهودياً ولهم بها كنيس(٤).

الصابئة:

عاش الصابئة في الجزيرة الفراتية وتركزوا في مدينة حران، فسميت مدينة الصابئة، وبها سدنتهم (السبعة عشرة)، وبها هيكل عظيم عليه مصلى للصابئين يعظمونه وينسبونه إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام(٥). كما كان يعيش الصابئة أيضاً في الرها إذ يذكر المقدسي "أن معدن الصابئة بالرها وحران في جميع المملكة(٦).والمقصود بصابئة حران الذين كفروا فأشركوا واعتقدوا بالكواكب(٧). فكان لهم فيها هياكل يقدسونها على اسم الجواهر العقلية والكواكب وذكر المسعودي أن الذي بقي من هياكلهم سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م هيكل بباب الرقة من حران يعرف بمصلينا وهو هيكل آزر عليه السلام(٨).

وذكر ابن البهلول أن الصابئة ينتحلون دين شيث بن آدم عليه السلام. ويقولون أنه نبيهم ويعترفون بيحيى بن زكريا ولهم كتابة نبطية قديمة على هجاء أبجد وليس لهم أحرف الألف

---

(١) التطيلي، الرحلة، ص١٠٨، ٩٥، ٩٠، ١٠٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢،

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٣.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢٤.

(٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٧٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص٢٠٤. الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٦٤.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٩.

(٧) علي، المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص٧٠١-٧٠٢. الصابي، أبو الحسن هلال بن المحسن (ت ٤٨٤هـ/١٠٩١م)، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٤، مقدمة الكتاب، ص٦.

(٨) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٢٤٧. الغزي، كامل البالي، نهر الذهب في تاريخ حلب، قدم له وصححه وعلق عليه شوقي شعث. حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٩١، ج١، ص٤٢٧.

والباء والتاء والثاء، ولهم كتاب يسمونه الزبور الأول وقبلتهم بيت المقدس ولهم كتب وأحكام بعضها منسوب إلى شيث وبعضها إلى يحيى. ويقربون قرابين من خبز وماء وشراب وماء الزبيب، ويعظمون يوم الأحد. ويصومون في السنة ثمانين يوماً ولهم ستة أعياد وهي: النيروز الأول والنيروز الثاني، والمهرجان الأول، والمهرجان الثاني، وديماه، والفطير. وإذا توفي أحد تولى الرئيس وتلامذته دفنه مع أوليائه وتركته لورثته وللرئيس فيها الثلث ولا يقربون الحائض ويغتسلون من الجنابة ويلبسون الزنانير البيض(١).

أما عن أصل الصابئة فمختلف فيه فقد ذكر البيروني "أنهم المتخلفون من أسرى بابل الذين نقلهم بختنصر من بيت المقدس إليها فإنهم لما تصرفوا في الأرض واعتادوا بقعة بابل استثقلوا العود إلى الشام فآثروا القيام ببابل ولم يكونوا من دينهم بمكان فسمعوا أقاويل المجوس وصبوا إلى بعضها فامتزجت مذاهبهم من المجوسية واليهودية كحال المنقولين إلى الشام أعني السامرة ويوجد أكثر هذه الطبقة بسواد العراق وهم الصابئون متفرقين غير مجتمعين في بلدان مخصصة"(٢). وفي تاريخ ابن العبري أن دعوتهم دعوة الكلدانيين القدماء وقبلتهم القطب الشمالي وشرحوا فضائل النفس الأربعة، والمفترض عليهم ثلاث صلوات ... والصيام المفروض عليهم ثلاثون يوماً ... ويدعون الكواكب وقرابينهم كثيرة ولا يأكلون منها بل يحرقونها ولا يأكلون الباقلى والثوم وبعضهم اللوبيا والقنبيط والكرنب والعدس ومقالاتهم في التوحيد على غاية من الثقافة ويزعمون أن النفس الفاسقة تعذب تسعة آلاف مرة ثم تصير إلى رحمة الله(٣).

وفي تاريخ ابن الوردي أن الصابئة ملة وهي أقدم الأمم ويذكرون أنهم أخذوا دينهم عن شيث وإدريس أبناء آدم ولهم كتاب يسمونه صحف شيث ذكر فيه محاسن الأخلاق كالصدق والشجاعة والتعصب للغريب واجتناب الرذائل، قال ابن الوردي: ورأيت صحيفتين من صحف الصابئة ولكنهما عن إدريس الأول صحيفة الصلاة والصحيفة الثانية صحيفة الناموس تحث على مكارم الأخلاق(٤). وقال ابن الوردي وللصابئة عبادات منها سبع صلوات خمس توافق صلواتنا

---

(١) ابن البهلول، الحسن، (عاش في أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) كتاب الدلائل، تحقيق يوسف حبي، مراجعة محمد أبو ريده، الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٧، ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) البيروني، ابو الريحان، محمد بن احمد الخوارزمي، (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) الآثار الباقية على القرون الخالية، اخرجه ادوار ساشو، ليبزج، ١٩٢٣، ص٣١٨.

(٣) ابن العبري، مختصر الدول، ص١٥٣.

(٤) ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ج١، ص٦٩. الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٤٢٨.

والسادسة الضحى، والسابعة في تمام الساعة السادسة من الليل[١]. وذكر ابن ابي أصيبعة ان لهم ثلاث صلوات مفترضة عليهم والباقي صلوات نافلة مثل الوتر عند المسلمين[٢]. ولهم صلاة على الميت بلا ركوع ولا سجود ويصومون ثلاثين يوماً، ويوم صومهم يبتدئ من نصف الليل إلى غروب قرص الشمس. ولهم أعياد عند نزول الكواكب ويعظمون بيت مكة وبظاهر حران مكان يحجونه[٣]. ويعظمون يوم دخول الشمس الحمل وهو العيد الكبير عندهم ويسمونه "نورزبا" ويتزينون به ويتهادون فيه[٤].

وقد عرف صابئة حران قبل تسميتهم بذلك بالحرنانية وقد اعتبروا كأهل ذمة وأعطاهم المسلمون أمان أهل الكتاب[٥]. ولا يجوز للمسلمين نكاحهم[٦]. ورواية تسميتهم بالصابئة تعود إلى عصر المأمون وخلاصتها أن الخليفة المأمون اجتاز في سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م بديار مضر ليغزو بلاد الروم فتلقاه الناس يدعون له وفيهم جماعة من الحرنانيين وكان زيهم إذ ذاك لبس الأقبية وشعورهم طويلة بوفرات فأنكر المأمون زيهم وقال لهم: من أنتم؟ من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرنانية! فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا، قال: أفيهود أنتم؟ قالوا: لا، فقال لهم: فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم. فاختاروا الآن أحد الأمرين إما أن تنتحلوا دين الإسلام أو ديناً من الأديان التي ذكرها الله في كتابه وإلا قتلتكم عن آخركم، فإني قد أنظرتكم إلى أن أرجع من سفرتي هذه، ورحل المأمون يريد بلاد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم، وتركوا لبس الأقبية، وتنصر كثير منهم، وأسلم طائفة وبقي منهم شرذمة بحالهم، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حران فقيه. فقال لهم: قد وجدت لكم شيئاً تنجون منه وتسلمون من القتل، فحملوا إليه مالاً عظيماً. فقال لهم: إذا رجع المأمون فقولوا له: نحن الصابئون فهذا اسم دين قد ذكره الله في القرآن، فانتحلوه فأنتم تنجون به، ولكن المأمون توفي في

---

(١) ابن الوردي، تاريخ، ص٧٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٨٣.

(٣) ابن الوردي، تاريخ، ص٧٠، الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٤٢٨.

(٤) ابن الوردي، تاريخ، ص٧٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٦٧. الحسني، عبد الرزاق، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، صيدا، مطبعة الوفاق، ١٩٧٠، ص١١٧.

(٥) البلاذري، فتوح، ص١٧٨، ١٧٩. سار عياض إلى حران فطلب الحرانية الصلح ثم اتبعهم النصارى وكتب لهم كتاباً فصالحهم على الجزية عن كل رجل دينار ومدى قمح وان عليهم إرشاد الضال ونصيحة المسلمين". قدامة، الخراج، ص٣١٣

(٦) النديم، الفهرست، ص٣٨٥.

سفرته تلك وانتحلوا هذا الاسم من ذلك الوقت لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة[١].

وظل الصابئة بحران إلى فترة متأخرة يمارسون طقوسهم وتقاليدهم الدينية فيذكر ابن العبري، أنه في ولاية إبراهيم القرشي على حران رخص للحرانيين الصابئة أن يحتفلوا بأسرارهم علانية فاطمئنوا وجللوا ثوراً بحلل ثمينة وتوجوه بالزهور وعلقوا جلاجل على قرنيه وطافوا به في الأزقة بالأهازيج وآلات الطرب ثم قربوه أضحية لآلهتهم[٢].

وفي عام ٣٢٠هـ/٩٣٢م استفتى الخليفة القاهر ٣٢٠-٣٢٢هـ/٩٣٢-٩٣٤م محتسب بغداد في الصابئة فأفتاه بقتلهم لأنه تبين له أنهم يخالفون اليهود والنصارى ويعبدون الكواكب فعزم الخليفة على ذلك فلما سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار فأمسك عنهم[٣].

وقد نال الصابئة في العصر العباسي ما ناله غيرهم من أهل الذمة من الامتيازات ففي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م أصدر الخليفة المقتدر منشوراً أمر فيه برد تركة كل من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً إلى أهل ملته عملاً بقول الرسول ﷺ لا يتوارث أهل ملتين وإن يعم جميعهم بعدله وإنصافه ويتناولهم بفضله وإحسانه ويزيل عنهم البوائق والعوارض[٤].

وليس من شك في أن مؤهلاتهم العقلية وخدمات بعض نوابغهم العلمية هي التي أهابت بالخلفاء العباسيين إلى منحهم الحماية التي لأهل الكتاب فأدخل رئاسة الصابئة في بغداد فثبتت أحوالهم وعلت مراتبهم. [٥].

ويشير بعض المؤرخين المحدثين أن عددهم تقلص جداً في حوالي عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م[٦] حتى أن ابن حزم يقول أنهم في جميع الأرض لا يبلغون أربعين نفساً[٧].

---

(١) النديم، الفهرست، ص٣٨٥. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص٦-٧.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٣.

(٣) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٤٠. كان المتولي على حسبة بغداد في هذه الفترة إبراهيم بن محمد بن بطحاء تولاها من سنة ٣١٩هـ/٩٣١م وحتى وفاته سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٦٢.

(٤) الصابي، الوزراء، ص٢٧٠-٢٧١.

(٥) انظر المكانه الاجتماعية والعلمية من هذا الفصل.

(٦) متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص٨٦.

(٧) ابن حزم، الفصل، ج١، ص١٩٩.

العلاقات الاجتماعية:

عاش أفراد المجتمع الشامي في العصور الإسلامية بشكل عام في حالة ارتباط ووفاق ولم يكن هناك أي انعزال بين الجماعات ككل بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، وقد شهد الواقع الاجتماعي في العصر العباسي هذا الارتباط، ولعل التسامح الديني هو الذي ساعد على إضفاء هذا الجو وهذا التفاعل فيما بينهم لدرجة أن كل طائفة تأثرت بعادات وتقاليد الطائفة الأخرى بل والمشاركة في احتفالاتهم وأعيادهم.

وكان يوم السبت مخصصاً للصيد والشراب والخروج إلى البساتين والمتنزهات ولعل عادة الاصطباح فيه مأخوذة عن الفرس[1]. وللبحتري أبيات فيه[2]: (الخفيف)

يوم سبت وعندنا ما كفى الحر	طعام والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيا	ح ترتاح فيه القلوب
وداوم على المدام يدنيك ممن	كنت تهوى وإن جفاك الحبيب

فكان يوم السبت في الأعم الأغلب يوم خمر لا يوم أمر(٣). ومهما بلغ شأن يوم السبت في جميع البلدان فلم يكن إلا دون مبلغه في دمشق واحتفال أهلها به وقد توسع القزويني (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) في وصف سبوت دمشق ولعل ما قدمه من وصف يكون متوارثاً عن الأجيال الماضية، فقال: "... في هذا اليوم لا يبقى للسيد على المملوك حجر ولا للوالد على الولد، ولا للزوج على الزوج ولا للأستاذ على التلميذ فإذا كان أول النهار يطلب كل واحد من هؤلاء نفقة يومه فيجتمع المملوك بإخوانه المماليك والصبي بأترابه الصبيان والزوجة بأخواتها من النساء والرجل أيضاً بأصدقائه فأما أهل التمييز فيمشون إلى البساتين ولهم فيها قصور ومواضع طيبة وأما سائر الناس فإلى الميدان الأخضر وهو محوط فرشة أخضر صيفاً وشتاء وفيه الماء الجاري والمتعيشون يوم السبت ينقلون إليه دكاكينهم وفيها خلق من المشعبذين والمساخرة والمخنثين

---

(١) الزيات، حبيب، أيام السبوت بدمشق في عهد العباسيين، المشرق، السنة ٣٦، ١٩٣٨، ص٤٣.

(٢) البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبد الله، (ت ٢٨٦هـ/٨٩٩م)، ديوان البحتري، تحقيق حسن الصيرفي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣، مج١، ص١٣٢

(٣) الزيات، أيام السبوت، ص٤٣.

والمصارعين والقصاصين والناس مشغولون باللعب واللهو إلى آخر النهار ثم يفيضون منها إلى الجوامع فيها ويصلون ويعودون إلى أماكنهم[١].

أما ما قاله ابن بطوطة في هذا اليوم "وأهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً، إنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الأنهار ودوحات الأشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يوماً إلى الليل"[٢].

ومن المعروف أيضاً أن يوم السبت هو يوم مقدس لدى اليهود وتشددت جميع طوائف اليهود في حرمته ومن أتى منهم بشيء من سبعة وعشرين عملاً يوم السبت أو ليلته استحق القتل وهي: حرث الأرض، وزرعها، وحصاد الزرع، وسقاية الماء إلى الزرع، وحلب اللبن، وكسر الحطب، وإشعال النار. وعجن العجين وخبزه، وخياطة الثوب، وغسله، ونسج سلكين. وكتابة حرفين أو نحوهما. وأخذ العبد، وذبح الحيوان، والخروج من القرية، والانتقال من بيت إلى آخر، والبيع والشراء، والدق والطحن والاحتطاب وقطع الخبز، ودق اللحم، وإصلاح النعل إذا انقطعت وخلط علف الدابة ولا يجوز للكاتب أن يخرج يوم السبت ومعه قلمة . ولا الخياط ومعه إبرته، وكل من عمل شيئاً من تلك الأشياء استحق القتل وإن لم يسلم نفسه فهو ملعون[٣].

وكان يتجول في مدينة دمشق في أحياء اليهود في هذا اليوم بدويات يتكسبن عن طريق تقديم النار لهم[٤]. وقد اعتادت بعض النساء المسلمات عدم دخول الحمام أو شراء الصابون

---

(١) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، د.ت، ص١٩١.

الميدان الأخضر، يمتد غربي مدينة دمشق على مرج فسيح قرب النهر طوله خمسمائة متر وعرضه مئة وخمسين متراً. سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة افرام البستاني، تحقيق أكرم العلبي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦، ص٨٠.

(٢) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، بيروت، دار التراث، ١٩٦٨، ص٨٢.

(٣) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٣٦، وذلك عملاً بما جاء في التوراة. انظر السفر الثاني (سفر الخروج)، اصحاح ٣٥ والسفر الرابع (العدد). اصحاح ١٥.

(٤) نعيسة، يوسف، يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨، ص٣٨.

وغسل الثياب يوم السبت تأثراً بالعادات اليهودية، كما أن بعضهن كن لا يعملن في ليلة الأحد ولا في يومه[١].

كما كانت أعياد النصارى فرصة للمسلمين للتفرج والتمتع كعيد مارجرجس (ماري سرجس) الذي قال فيه المعلى بن طريف مولى المهدي[٢]. (مجزوء الرجز)

يا صاح إني قد حججت — وزرت بيت المقدس
وأتيت لد عامداً — في عيد ماري سرجس
فرأيت فيه نسوة — مثل الظباء الكنس

وعيد النيروز (القلندس) وهو أول يوم في السنة عند النصارى ويصادف في أول يوم من كانون الثاني. ويكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون في ليلته النيران ويظهرون الأفراح ولا سيما بمدينة أنطاكيا .. وكذلك بسائر مدن الشام وبيت المقدس ومصر وأرض النصرانية كلها وما يظهر أهل دين النصرانية بأنطاكيا من الفرح والسرور وإيقاد النيران والمآكل والمشارب ويساعدهم على ذلك عوام المسلمين وكثير من خواصهم[٣]. ويصادف في الخامس من تشرين الأول عيد كنيسة القيامة ببيت المقدس وفي هذا العيد تجتمع النصارى من سائر الأرض ويعتقدون أن ناراً تنزل من السماء فيسرج هناك الشمع ويجتمع فيه خلق عظيم من المسلمين للنظر إلى العيد[٤].

---

(١) القزويني، آثار البلاد، ص١٥٣. ابن الحاج، أبو عبد الله بن محمد العبدري الفاسي (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م) المدخل إلى الشرع الشريف، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٧٢، ج٢، ص٢٧٢، ٢٧٣.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص٧٩. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٥. عيد مار سرجس وهو من أعياد الأرمن يعملونه في ١٤ تشرين الآخر. ابن البهلول، الدلائل، ص٢٤٣.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٩٧.

أما بالنسبة للنار التي تنزل من السماء فكانوا يعلقون القناديل في بيت المذبح ويتحيلون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على جميعها شريطاً من حديد في غاية الدقة مدهوناً بدهن البلسان ودهن الزنبق ... ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق النار بطرف الشريط الحديدي فتسري عليه فتتقد القناديل واحداً بعد واحد. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٦. بينما يعتقد النصارى أن ملاكاً ينزل من السماء فيوقد النور في المصابيح. شيخو، لويس، النار العجيبة في القبر المقدس، مجلة المشرق، السنة ١٦، ١٩١٣، ص١٨٨-١٩٠.

كما وصف شيخ الربوة ما كان يفعله أهل حماة في هذا العيد فقال: "وفي هذا العيد تبطل أهل حماة مدة ستة أيام أولها يوم الخميس الكبير وهو خميس العهد وآخرها يوم الثلاثاء ثالث الفسح (الفصح) وتنتعش فيه النساء ويلبسن فيه الكساوي الفاخرة ويصنعن فيه البيض ويعملن أقراص الكعك والمسلمون محتفلون فيه أكثر من النصارى(١). وكانت النساء في باقي المدن يخرجن في يوم الأحد وهو أول أيام عيد الفصح إلى البساتين ويمضين فيها سحابة يومين ويفعلن مثل ذلك يوم الاثنين الذي يلي الفصح حيث يعتقدن أن من لم تخرج إلى النزهة في مثل هذه الأيام لا تأمن الصراع ووجع الرأس(٢). وفي خميس الرز ويعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام اعتاد فيه أهل حلب للخروج إلى قرية روحين من جبل سمعان إذ يوجد هناك مشهداً يعتقد أن فيه ثلاثة قبور وهم قس بن ساعدة الإيادي وسمعان وشمعون من الحواريين وجعلوا لهذا الموسم يوماً معيناً في السنة يسمونه خميس الرز، فيجتمع إليه من سائر أقطار حلب وحماة وحران وبالس حتى يكاد أن تخلى ممن فيها ويحتفلون به الاحتفال الذي يضاهي أهل مكة بموسم الحج فما ينسلخ النهار وفي الدار ديّار(٣).

ومن الأعياد اليهودية التي كان يشارك بها المسلمون اليهود عيد استر أو عيد الفوز ويسمى بالعبرية (البوريم) وموعده في الثالث عشر من آذار ويبدأ عادة بصوم أستر ويستمر حتى يوم الخامس عشر حيث يتم فيه احتفال صاخب يتسم بمظاهر اللهو والخلاعة ويشارك فيه عدد من الشباب اليهود من القرائين والربانيين ومعهم المسلمون(٤). كما شارك أهل الذمة المسلمين أفراحهم في الأعياد، ففي عيد الفطر كان اليهود يعملون الكعك ويبيعونه للمسلمين(٥).

---

(١) شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٨٠.

(٢) علي، خطط الشام، ج٦، ص٢٧٩.

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٥٦. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٩٥.

(4) Goitein, A Mediterranean Society, Vol.2, P. 299

عيد استر: تدور الأصول التاريخية لهذا العيد حول قصة استير الواردة في التوراة في سفر استير وتحكي قصة وقوع ملك الفرس اردشير بابك في غرام استير اليهودية أيام الأسر البابلي على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م. وزواجه منها وتقريبه إلى ابن عمها مردوخاي مما أثار غيرة الوزير الفارسي هامان (هيمون) الذي قرر أن يستأصل شأفة اليهود فأخبرت استير الملك بما صمم عليه وزيره فأمر بقتل هامان وأباح لليهود قتل شيعته لمدة يومين من الثالث عشر وحتى الخامس عشر من آذار. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٦٥-٤٦٦. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٢١. راجع القصة في التوراة، سفر استير.

(٥) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص٢٨١.

هذا وقد كانت تتصادف أعياد أهل الذمة مع أعياد المسلمين فيحتفل الجميع بالعيد ويتبادلون الهدايا ففي سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م. اتفق عيد الأضحى وشعانين النصارى وعيد الفطر لليهود[١]. وعندما توفي الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧هـ/٧٧٣م) شارك النصارى واليهود المسلمين في تشييع جنازته[٢].

وكثيراً ما حفلت الأديرة بالمسلمين من الزوار وعابري السبيل إذ كان من الشروط المشترطة على الرهبان ضيافة كل مجتاز بهم من المارة وأبناء السبيل[٣]. كما تردد بعض المسلمين على الأديرة لما كانت تغريهم به من اتخاذهم إياها أماكن للهو والشراب وكثيراً ما كان يقترن ذكر الأديرة بذكر الشراب في كلام بعض الشعراء. قال المهلهل بن يموت بن المزرّع في غلام نصراني كان يحبه في دير الطور الواقع بين طبرية واللجون[٤]: (الخفيف)

شدّ زناره على دقة الخصـ	ـر وشد القلوب مع الزنار
واسال الأصداغ فوق عذ	انا من عشقه خليع العذار
وبدت منه طرة تذكر	الناظر ليلاً يلوح فوق نهار

ودير البنات على أرض طرابلس قيل عن راهباته "وفيهن كل عذراء تدهش المتحير وتحير المتخير"[٥]. ودير الفراديس بالشام مر به الخليفة المتوكل وشاهد فيه جارية اسمها شعانين

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٦.

الشعانين، أو عيد الزيتون وهو يوم ركوب المسيح لليعفور (الحمار) في القدس والناس حوله وسنتهم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة ويعملونه في سابع أحد من صومهم. الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٨٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٤. عيد الفطير: وسمي أيضاً عيد الفصح أو (الفاسح) ويصادف في الخامس عشر من نيسان وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير. ابن البهلول، الدلائل، ص٢٤٢. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٢١.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٥، ص٧١.

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص٦٥، البلاذري، فتوح، ص١٥٤.

(٤) الشابشتي، الديارات، ص٢٠٧.

مهلهل بن يموت بن المرزع بن يموت شاعر مليح الشعر في الغزل وغيره وهو بصري سكن بغداد، ت بعد سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٣، ص٢٧٣. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٥٧.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٤.

قدمت له ألواناً من الطعام والشراب واشتد إعجابه بها وطلب منها الزواج فردت عليه بهذه الأبيات: (الكامل)

يــا خاطبــاً منـــي المــودة مرحبــاً	ســمعاً لأمــرك لا عدمتــك خاطبــاً
أنــا عبــدة لــهواك فــاشرب واسـقني	واعـدل بكأسـك عـن خليلـك إن أبـى
قـد والـذي رفـع السـماء ملكتنـي	وتركـت قلبـي فـي هـواك معذبـاً

رغبها المتوكل بالإسلام فأسلمت وتزوجها ولم تزل عنده حتى قتل(١).

كما كانت هذه الأديره منبعاً لزهد وورع وبعد عن الدنيا وشئونها ومحطاً لبعض زهاد المسلمين. ويرون عن الرهبان أقوالهم في الهروب من الملذات، فقد حكى ابن قتيبة: "قال بعضهم اتيت الشام فمررت بدير حرمله وبه راهب كانت عينيه عدلا مزاد. فقلت ما يبكيك؟ فقال يا مسلم، ابكي على ما فرطت فيه من عمري،وعلى يوم مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي! قال ثم مررت بعد ذلك فسألت عنه فقالوا اسلم وغزا فقتل في بلاد الروم"(٢).

وكثيراً ما سيطر حب الذميات على قلوب شعراء المسلمين وتغنوا بهن وبجمالهن فقد اشتهر ديك الجن الحمصي بحب جارية مسيحية من أهل حمص وغلب عليه هواها فدعاها إلى الإسلام ليتزوجها فأسلمت لمحبتها له وفيها يقول(٣): (الكامل)

انظـر إلـى شمـس القصـور وبدرهـا	وإلـى خزامـها وبهجـة زهرهـا
لـم تبـك عَيْنَيـك أبيضـاً فـي أسـود	جمـع الجمـال كوجهـها فـي شعرهـا
تسـقيك كـأس مدامـه مـن كفـها	ورديـة ومدامـة مـن ثغرهـا

---

(١) علي، البدور المسفرة، ص٣٠-٣٢.

(٢) ابن قتيبه، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبه الدينوري، (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، عيون الأخبار، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. ج٢، ص٢٩٧.

(٣) أسعد، منير، تاريخ حمص، مطرانية حمص الأرثونكسية، ١٩٨٤، ق٢، ص١٥٤. ديك الجن الحمصي هو عبد السلام بن رغبان، أصله من سلمية ومولده بحمص وكانت وفاته أيام المتوكل سنة (٢٣٥هـ/٨٤٩م) وكان يتشيع تشيعاً حسناً. الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص٥١، ٥٥، ٥٧.

وقال في ندمه على قتلها بعد ان تبين له براءتها من تهمة الصقت بها[١]: (الكامل)

رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتي من شفتيها

فوحق نعليها وما وطئ الحصى شيء أعز علي من نعـــليها

كما كانت الحمامات مركزاً هاماً لإقامة العلاقات الاجتماعية حيث كانت مخصصة لجميع سكان المدينـة بطوائفـهم المختلفـة فالنسـاء كـن يجتمعـن بالحمامـات مسـلمات ونصرانيـات ويهوديات[٢]. وفي أحيان كثيرة اشترك أهل الذمة والمسـلمين فـي الاعتقـاد فـي بعض المـزارات فكان في شمال حلب عمود ينذره المسلمون واليهود والنصارى ويقال أن تحته قبر نبي[٣]. وعيـن البقر قرب عكا يزورها المسلمون والنصارى واليهود يقولـون إن البقـر الـذي ظـهر لآدم فحـرث عليه، خرج منها[٤]. كما كان داخل جامع الرها بئر يتبرك بمائه المسـلمون والنصـارى لاغتسـال المسيح منه عند دخوله الرها[٥].

هذا وقد عاش أهل الذمة في المدن الكبيرة في حارات خاصة بهم، وهذا أمر اعتيـادي لأن سكان المدن كانوا يتجمعون في محلات خاصة بهم حسب المهنة أو الأصـل أو الديـن فـهو تجمـع اختياري وهو وضع كان قائماً قبل الإسلام في يثرب مثلاً وفي الأراضي الساسانية[٦]. ولكن هـذا التجمع لا يحدد أية جماعة بالإقامة في محلتها بحيث لا يتعدونها فكثيراً ما كان الذميون يسـاكنون المسلمين في حاراتهم وكانت بعض معابدهم متجـاورة، بـل مشتركـة إذ يذكـر ابـن حوقـل أن فـي حمص بيعة بعضها المسجد الجامع وشطرها للنصارى فيه هيكلـهم ومذبحـهم[٧]. كمـا كـان هنـاك اختلاط يومي بين عناصر السكان وكان التعاون مستمراً قائماً بين الأهالي على مختلـف الديانـات ووصل هذا التعاون إلى درجة المشاركة في كثير من الأعمال والمهن بل والعقارات. فقد أشارت وثائق الجنيزه إلى بنايات سكنية كانت توجـد فـي القـدس وتعـود ملكيتـها لشخـص مسـلم وآخريـن

---

(١) الأصفهاني، الأغاني، ج١٤، ص٥٧. أسعد، تاريخ حمص, ق٢، ص١٥٤.

(٢) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص٢٧.

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ق١، ص٥٣.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ق٢، ص٢٨٤.

(٥) الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٤٢٠.

(٦) الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص٨٦. سوفاجيه، دمشق الشام، ص٣٦.

(٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢.

يهود[1]. وكان اليهود يودعون بضائعهم مع المسلمين أو مع القوافل التجارية المتنقلة بين المناطق المختلفة فقد ورد في إحدى وثائق الجنيزه ما يلي: "إذا كانت هنالك قافلة وكان يسافر فيها مسلمون مؤتمنون تكرم بإرسال البضائع معهم ..." فكان اليهود يلجأون إلى ذلك في بعض الحالات وخصوصاً أنهم لا يسافرون يوم السبت والعطلات[2].

وكان السامريون يتشددون في أحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة فكانوا لا يغسلون موتاهم ولا يحملونهم وإنما يستأجرون لهاتين العمليتين أناساً من المسلمين، لأن السامري عندهم لا يطهر من هاتين العمليتين إلا إذا رش بعد عزله سبعة أيام بدماء بقرة مقررة الصفات[3]. وكان الصابئة يكرصون (يعتكفون) في عيدهم الكبير في منازلهم ست وثلاثين ساعة متتالية يحرم عليهم فيه القيام بأي عمل لذلك كانوا يحفظون طيورهم وأغنامهم ومواشيهم عند مجاوريهم من المسلمين أو غيرهم ليعلفوها ويحتلبوها بالنيابة عنهم[4].

وأكثر ما كانت تتقارب فيه المشاعر الإنسانية في أوقات الكوارث الطبيعية كالهزات والأوبئة والطواعين فمثلاً حدث في سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م زلزلة مهولة بدمشق وامتدت ثلاث ساعات وسقطت الجدران وهرب الخلق إلى المصلى يجأرون إلى الله تعالى وأصاب أهل البلقاء مثل ما أصاب أهل دمشق وخرج أهلها بنسائهم وصبيانهم فلم يزالوا في دعاء وضجيج حتى كشف الله عنهم برحمته[5].

هذا وقد عبر لنا الجاحظ في رسائله عن مدى اتصال النصارى بالمسلمين في عصره وقبل عصره وكذلك مركزهم الاجتماعي والاقتصادي في العراق مما يعطي فكرة عامة عن أحوالهم في أنحاء الدولة العباسية فقال[6]: "فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة وتحذفوا المديني ولبسوا الملحم والمطبقة واتخذوا

---

(1) Goitein, A Mediterranean Society, Vol,2, P. 292

(2) Goitein, Studies in Islamic History, P. 302

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٢. علي، خطط الشام، ج٦، ص٢١٧. رمضان، أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، مؤسسة روزا اليوسف، ١٩٧٧، ص٦١.

(٤) الحسني، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص١١٨.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص١٨٩-١٩٠. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت. ج١، ص٣٢٥.

(٦) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣١٧.

الشاكرية (الإجراء المستخدمون) وتسموا بالحسن والحسين والعباس والفضل وعلي واكتنوا بذلك أجمع ولم يبق إلا أن يتسموا بمحمد ويكتنوا بأبي القاسم. فرغب إليهم المسلمون وترك كثير منهم عقد الزنانير وعقدها آخرون دون ثيابهم. وامتنع كثير من كبرائهم عن إعطاء الجزية وانفوا مع أقدارهم على دفعها وسبّوا من سبهم وضربوا من ضربهم[١].

بالنسبة للأسماء والكنى الإسلامية فقد كانت مشاعة مشتركة في الخلافة العباسية وظل النصارى دهراً طويلاً يتخذون الأسماء الإسلامية البحتة دون أن يقع عليهم أي إنكار وكان اسم أحمد ومحمود شائعة خصوصاً بين أهل المدن والبدو من المسيحيين ولا تزال هذه العادة باقية عند أهل حوران وكان الأقباط شديدي الولع بتقليد المسلمين في كل شيء ولا سيما في الأسماء والأزياء [٢].

كما أشار الجاحظ أيضاً في رسائله إلى بعض عادات النصارى واليهود فقال "والنصراني وإن كان أنظف ثوباً من اليهودي، وأحسن صناعة، وأقل مساخة، فإن باطنه ألأم وأقذر وأسمج لأنه قلف لا يغتسل من الجنابة ويأكل لحم الخنزير، وامرأته جنب لا تطهر من الحيض ولا من النفاس ويغشاها في الطمث"[٣].

كما احتوت أشعار الشعراء بعض صفات اليهود والنصارى فقال أبو النواس وقد نزل في حانة يهودي[٤] (الطويل)

وفتيان صدق قد صدقت مطيتهم	إلى بيت خمار نزلنا به ظهراً
فلما حكى الزنار أن ليس مسلماً	ظننا به خيراً فظن بنا شراً
فقلنا على دين المسيح ابن مريم؟	فأعرض مزوراً وقال لنا هجراً

---

(١) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣١٧.

الملحم: الملحم من الثياب ما كان سداه أبريسم أي حرير أبيض ولحمته غير أبريسم وهو نوع من الثياب نهاية في الحسن والجودة. رشدي، صبيحة، الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، بغداد، مؤسسة المعاهد العربية، ١٩٨٠، ص١٩

المطبقة: الثياب المزدوجة المتطابقة. الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣١٧.

(٢) الزيات، حبيب، الأسماء والكنى والألقاب النصرانية، مجلة المشرق، مج٤٢، ١٩٤٨، ص٤٠٣.

(٣) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣٢٣.

(٤) أبو النواس، الحسن بن هاني (ت ١٩٥ أو ١٩٧ هـ/٨١٠ أو ٨١٢م)، ديوان أبي نواس، بيروت، دار صابر، د. ت، ص٢٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا، أبو النواس، الديوان. الزيات، حبيب، سمات النصارى واليهود في الإسلام، المشرق، مج ٤٣، ١٩٤٩، ص٢٠٣.

ولكـــن يـــهودي يحبـــك ظــــاهراً	ويُضمـر فـي المكنـون منـه لـك الغـدرا
فقلنـا لـــه مـــا الاســم؟ قـال ســموأل	علـى أننـي أكنـى بعمـر ولا عمـرا
ومـــا شرفتنــي كنيـــة عربيـــة	ولا أكســبتني لا ســناءً ولا فخـــراً
ولكنـــها خفـــت وخلـــت حروفـــها	وليســت كـأخرى إنمـا خلقـت وحـــرا

كما استمرت المجادلات في العصر العباسي بن الرهبان المسيحيين والفقهاء من المسلمين ومن هؤلاء الراهب الملكي ابراهيم الطبراني وأصله من طبريا(عاش في في النصف الأول من القرن الثاني الهجري/ التاسع الميلادي). الذي لبى دعوة والي بيت المقدس عبدالرحمن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ١٧٤-١٩٤هـ/ ٧٩٠- ٨٠٩م لمجادلة فقيه مسلم. وتوجد هذه المجادلة في مخطوط في الفاتيكان ومواضيع المجادلة هي: الشرك، ابوة الله، ولادة الإبن يسمح الله أن يصلب ابن المفدى، الوضوء، عبادة الصليب، تفوق الأخلاق المسيحية ، انتشار المسيحية بدون اللجوء إلى القوة، إشارة الصليب تحمي من السموم(١). كما روي لثاودورس أبو قره اسقف حران الملكي ١٢٣-٢٠٥هـ/ ٧٤٠-٨٢٠م، مجادلات لإثبات الدين المسيحي، مع علماء مسلمين بحضور الخليفة المأمون(٢). كما اشتهر بين المسيحيين بدفاعه عن الصور المقدسة(٣)

ورسالة الجاحظ "في الرد على النصارى" تصور ما كان يثيره النصارى واليهود من شبهات وما كان يدفع به المسلمون تلك الشبهات. كما ذكر الجاحظ في رسالته طرفاً من أخبار اليهود والنصارى مما يدل على مدى اتصال النصارى بالمسلمين في عصره(٤).

وهكذا كانت حالة الوفاق سائدة بين أصحاب الديانات مغتبطين بحسن الجوار وليس أدل على ذلك ما رواه الحاج برنارد الحكيم الذي زار البلاد عام ٢٥٣هـ/٨٦٧م حيث قال أن الأمن والسلام مستتب بين المسلمين والمسيحيين، وأنك إذا احتجت أن تترك بضاعتك في الطريق بسبب تعطيل دابتك وعدت إليها تجدها سالمة لم يمسها أحد، ولا يسمح لغريب أن يدخل البلاد دون أن يكون معه إذن مرور أو سفر(٥).

---

(١) قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص٢٦٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٤.

(٣) بيشه، مناهضة الصور، ص٦

(٤) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣٠٣-٣٥١.

(5) The Voyage of Bernard the Wise, P 30

ومع ذلك فقد كانت تشوب هذه العلاقات بعض المشاحنات والخلافات فتعكر صفوها فتقع فتن بين الطرفين. ففي بداية حكم الخليفة المنصور قامت ثورة بلبنان على عامل الخراج شغلت عام ١٤٢ و١٤٣هـ/٧٥٩، ٧٦٠م وتجاوزت الثورة أهدافها حين توج قائدها نفسه وتسمى بالملك وأظهر الصليب فوجه صالح بن علي بن عبد الله بن العباس من قتل مقاتلتهم وأقر من بقي منهم على دينهم وردهم إلى قراهم وأجلى قوماً من أهل لبنان(١).

وكثيراً ما كانت فترات الفوضى "وعجز الدولة عن ضبط الأمور تفتح مجالاً للتعدي على الذميين في الأقاليم والاعتداء على كنائسهم وأديرتهم طمعاً بأموالهم وثرواتهم، أو من باب الغيرة على الدين الإسلامي. وقد عانى النصارى في بلاد الشام خاصة من تلك الاعتداءات لقربها من التخوم البيزنطية واتهامهم بالتجسس لصالح البيزنطيين والتعاون معهم. ففي سنة ١٦٤هـ/٧٨٠م اتهم الراهب السوري رومانوس في الرافقة بالتجسس فأمر المهدي بقتله(٢) وفي عهد الخليفة الرشيد تعرضت الكنائس والأديرة في فلسطين للتدمير والتخريب من قبل الأعراب نتيجة الإضطرابات التي أحدثتها ثورة أبي الهيذام ١٧٠-١٧٧هـ/٧٨٦-٧٩٣م. (٣) كما عانت السامرة في فلسطين من جراء ثورة ابي الندا ١٩٠هـ/ ٨٠٥م التي امتدت أثارها إلى الأردن فأحرق الأعراب كنائس لهم في زيتا وأرسوف(٤).وفي سنة ١٩٤هـ/٨٠٩م وقعت قلاقل واضطرابات في أنطاكيا والقدس وسارع المسلمون بالتنكيل بالنصارى والاعتداء على أديرتهم وكنائسهم وغنموا أموالاً كثيرة وذلك بسبب الاتهامات التي وجهت إلى بطريرك أنطاكية اليعقوبي قرياقس ١٧٦-٢٠٢هـ/٧٩٣-٨١٧م بأنه يكاتب الروم ويبتنى البيع في بلادهم(٥).

وفي أثناء الفتنة التي حدثت بين الأمين والمأمون مرت بالبلاد سنوات اضطراب سواء كان في بغداد أم في الأقاليم الأخرى فظهر في الشام نصر بن شبث العقيلي سنة ١٩٨هـ/٨١٣م وكان يسكن في كيسوم. فلما قتل الأمين أظهر الغضب وتغلب على ما جاوره من البلاد وملك

---

(١) ابو عبيد، الأموال، ص٢٤٧. البلاذري، فتوح، ص١٦٧. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٨، ص٢٦٧-٢٦٨. للمزيد عن الثورات انظر الفصل الثاني: الالتزامات المالية.

(٢) فييه، أحوال النصارى، ص٧٢.

الرافقة: بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات بناها المنصور سنة ١٥٥هـ/٧٧١م على بناء مدينة بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٥.

(3) Senick, Christianity In The Patririchate, P 12 ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٦، ص٦٤ وما بعدها

(4) Moshe, Ahistory of Palestine, P

(٥) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٤، تواريخ سريانية، ص١٩. بارتولد، دراسات في تاريخ فلسطين، ص١٠٠. فييه، أحوال النصارى، ص٩٠.

سميساط واجتمع إليه خلق كثير من الأعراب ودخل الجزيرة وجعل أصحابه يقتلون دون شفقة ويسبون النساء والعذارى والصبيان ويعتدون على الرهبان والأديرة واستولى على رأس كيفا وعلى سروج واضطر أهلها أن يؤدوا له الجزية. وكتّب العرب القيسيين كافة وأقبل بهم إلى الرقة وحلوا في دور النصارى وضايقوهم في استنزاف ما يقوم بنفقاتهم الوافرة ثم زحفوا إلى الرافقة وحاصروها ثم زحفوا نحو حلب وحاربوا التنوخيين المقيمين هناك فارتحلوا رجالاً ونساءً إلى قنسرين،ودمروا دير قنسرين وكنيستها التي لا مثيل لها واحرقوا كنيسة القديس توما، ثم سار نصر وأصحابه وحاصروا الرها[١]. وفي الرها أغرى العرب هناك نصر بالقدوم لتهديم الكنائس فهام النصارى ثم جمعوا مبلغاً كبيراً من المال وتوصلوا بوساطة يحيى بن سعيد إلى صرف المعتدين عما عزموا عليه[٢]. وكان المأمون قد أرسل إليه طاهر بن الحسين، ولكن بعد عودة المأمون إلى بغداد ولى طاهر خراسان وفي هذه الفترة استجمع نصر قواه واشترى قلعة بالس وزحف بجنوده إلى الرقة وبعث إليه المأمون قائداً في سبعة آلاف عسكري لكنهم فرّوا من أمامه. فتوجه نصر إلى قرى الساجور بجانب منبج وفتك بالأهالي والرهبان وأحرق الأديرة فلما بلغ المأمون ذلك انفذ إليه عبد الله بن طاهر في عشرين ألفاً فوصل إلى بالس وحاصرها وفتحها وألقى القبض على أصحاب نصر وكان نصر وقتئذٍ في أطراف سروج يفتك بالنصارى والعجم ثم سار إلى كيسوم وتحصن بها. وشدد عبد الله بن طاهر الحصار عليها ودارت رحى الحرب وأصعد نصر النساء النصرانيات على السور حاملات أطفالهن يتوسلن إلى عبد الله بن طاهر. فأوقف الحرب شفقة عليهن، وتفاقم الجوع في المدينة فتضايق نصر وخرج يريد مقابلة عبد الله بن طاهر فألقى القبض عليه ورحله مع أصحابه إلى بغداد راكبين البغال ووصلها في سنة ٢١٠هـ/٨٧٥م وارتاحت البلاد من نصر وأصحابه[٣].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٥٦. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٥٩٨. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤١٣. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٩. مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج٣، تحقيق نبيلة داود، النجف، مطبعة النعمان، ١٩٧٩، ص٣٦٣. وسيشار له فيما بعد هكذا، مجهول، العيون والحدائق. كيسوم: وهي قرية مستطيلة من أعمال سميساط. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٤٩٧. حصن كيفا: وهي بلده وقلعة عظيمة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٥. سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢١٦.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٩. Michel Le Syrien,Vol, 3, P22-23

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ص٤٥٩. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص . الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٣٣٤. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٧٣. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢١-٢٥.

وفي سنة ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م حدثت فتنة في حران فهرع سوقة المدينة وخربوا هيكلين للمسيحيين، وهدموهما من فوق إلى تحت بأمر من الخليفة المعتصم في سبت البشارة فانقلب العيد للحرانيين إلى حزن[١]، وسبب ذلك ان النصارى ابتنوهما حديثا[٢]

وفي سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م شغب أهل حمص على عاملهم الفضل بن قارن الطبري فأمر بقلع ذلك الفرش إذ كانت مدينة حمص مفروشة بالصخر فقلع ثم أظهروا المعصية وأعادوا ذلك الفرش وحاربوا الفضل حتى قدروا عليه ونهبوا ماله ونساءه وأخذوه فقتلوه وصلبوه فوجه إليهم الخليفة المستعين موسى بن بغا الكبير فحاربوه وفيهم خلق من نصارى المدينة ويهودها فقتل منهم مقتلة عظيمة وهزم باقيهم حتى ألحقهم بالمدينة ودخلها عنوة[٣]. وفي سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م ثار العرب في طرسوس ودكوا أبنية الكنيسة الكبرى الجديدة[٤].

كما عانى أهل الذمة كغيرهم من السكان من القرامطة نتيجة إعتداءتهم على المدن وقتل سكانها، ففي عهد الخليفة المكتفي عاثت القرامطة في البلاد الشامية على يد ابناء زكروية بن مهدوية ومن انضم إليهم من الأعراب ، ففي سنة ٢٨٩هـ /٩٠٢م سار يحيى إلى ناحية الرقة وسار إلى نواحي دمشق فلقية طغج عامل هارون بن خمارويه على الشام، وهزمه وقتل خلقاً من أصحابه فهرب طغج إلى دمشق وحصره ثلاثة أشهر وعشرين يوماً يقاتله والحرب بينهما سجال وتقرمط اكثر من حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوه واشترك العامة في الدفاع عن مدينتهم وأخيراً جاءت النجدة من مصر ودارت معركة حامية بين يحيى وجيوش الطولونيين أمام دمشق سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م. انتهت بهزيمة القرامطة ومقتل يحيى[٥].

وبايع القرامطة اخاً له يكنى أبا الحسن (الحسين) والمشهور بصاحب الشامة وحاصر دمشق مرة أخرى وصالحوه على خراج دفعوه له فرحل عنهم إلى حمص وحماة ومعرة النعمان

---

(١) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص٤٤.

سبت البشارة: أو عيد البشارة أي بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بمولد السيد المسيح ويصادف موعده في الخامس والعشرين من شهر آذار. الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٨٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٤.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٢٩.

(٣) البلاذري، فتوح ص١٤٠.

(٤) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٤٤.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص ١٠٠، ١٠٨، ١١٢. المسعودي، التنبية والإشراف ، ص٣٣٨. الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخره، بغداد، مطبعة السريان، ١٩٤٥، ص ١٧١

والنهب والقتل يصاحبه في كل مكان ثم نكب سلمية بصورة خاصة فذبح عامة سكانها حتى صبيان الكتاتيب فضج أهل الشام من فظائعة واستنجدوا بالخليفة المكتفي فجد هذا إلى قتاله وأرسل الجيوش بقيادة قائده محمد بن سليمان الكاتب وقابلت قوات القرمطي على بعد إثني عشر ميلاً من حماه وفي ٧ محرم ٢٩١هـ/ ٣٠ تشرين ثاني ٩٠٣م هزم القرامطة في المعركة وألقي القبض على صاحب الشامة بعد أن حاول الهرب وقتل مع الأسرى[(١)] ثم جمع ثالث الأخوة قوة من القرامطة وقام ببعض الغارات في جنوب الشام في سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م كما قاست منه طبرية خاصة الأمرين فقتل عامة من بها من الرجال والنساء ونهبها فجرد إليه الخليفة الحسين بن حمدان التغلبي فهرب إلى البادية[(٢)].

بعدها حصل نوع من الاستقرار استمر حتى بداية القرن الرابع الهجري، ثم عادت العلاقات للتوتر. ففي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م هدم المسلمون كنيستين في الرملة للملكيين وكنيسة مارقزماس وكنيسة مارقورقس كما هدموا كنيسة عسقلان وقيسارية بسعايه من اليهود[(٣)]. وفي سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م أحرقت كنيسة مريم بدمشق ونهب ما كان فيها من الآلات والأواني وغير ذلك من حلي وستور ونهبت ديارات أخرى وخاصة دير النساء الذي كان إلى جانب الكنيسة وشعثوا كنائس النسطورية واليعقوبية[(٤)]. وفي سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م ثار المسلمون في القدس في عيد الشعانين وأحرقوا كنيسة قسطنطين[(٥)]. وفي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م ثار المسلمون بالقدس وأحرقوا كنيسة القيامة ونهبوها وخربوا ما قدروا عليه[(٦)]. وفي سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م ثار المسلمون بعسقلان على كنيسة كبيرة بها تعرف بكنيسة مريم الخضراء فهدموها ونهبوا جميع ما فيها

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص١٠٠. المسعودي، المصدر السابق، ص ٣٣٩. الدوري، دراسات ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج١٠، ص١٢٢. المسعودي، المصدر السابق، ص٣٤٠.

سبت البشارة: أو عيد البشارة أي بشارة جبريل عليه السلام للسيدة مريم بمولد السيد المسيح ويصادف موعده في الخامس والعشرين من شهر آذار. الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٨٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٤.

(٣) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٨٢. خوري، خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم، ص٦٠.

(٤) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٨٢. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٧١، ترتون، أهل الذمة، ص٥٣.

Moshe, A History of Palestine, P. 474.

(٥) ابن البطريق، المصدر السابق، ص٨٧. ترتون، المرجع السابق، ص٥٣.

(٦) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٧١.

وأحرقوها وعاضد اليهود المسلمين في هدمها وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر إلى أعلى السقوف حتى يحرقونها وينحل رصاصها ويقع عمدها[١]. ومن هذا القبيل أيضاً ما حدث أيام كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م عندما سار المسلمون إلى القدس وأحرقوا كنيسة القيامة وكنيسة صهيون وغيرهما ونهبوهما وكالعادة تقدم اليهود لمساعدة المسلمين وقد أحرق البطريرك في هذه الحادثة حيث وجد مختبئاً في أحد جباب الزيت داخل الكنيسة[٢].

أما أسباب هذه الاضطرابات فلم تذكر المصادر شيئاً عنها فلعل من أسبابها تحريض اليهود الدائم للمسؤولين ومحاولة الإيقاع بالنصارى من أجل إضعافهم وإبعادهم عن الدولة. بالإضافة إلى ما كانت تمر به البلاد من أزمات فقد عانت فلسطين في تلك الفترة من الصراع العسكري ما بين محمد بن رائق ومحمد بن طغج الأخشيد وانهزامه أمام إبن رائق سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م. فنهب أصحاب إبن رائق الأهالي وحدثت بعض الفتن الطائفية[٣] أما على الحدود الشمالية فقد تزايدت هجمات البيزنطيين فكانت مساجد المسلمين تتعرض للهدم والحرق ونتيجة رجحان كفة البيزنطيين في القتال حاول بعض سكان تلك المناطق التعامل معهم إذ يذكر ابن العديم في حوادث سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م " ان ملك الروم لما نزل ببوقا (في نواحي أنطاكية) ومعه السبي والغنائم توافق هو وأهلها وكانوا نصارى في ان ينتقلوا إلى انطاكيا ويظهروا أنهم إنما انتقلوا خوفاً من الروم حتى إذا حصلوا بها وصار الروم إلى أنطاكيا وافقوهم على فتحها ففعلوا ذلك ووافقوا نصارى انطاكية وكاتبوا الطربازي (خادم نقفور) بأن انطاكية خالية وليس بها سلطان فجاء الروم إليها في اربعين ألف فأحاطوا بأنطاكية وأهل بوقا على أعلى السور في جانب منه، فنزلوا وأخلو السور فصعده الروم وملكوا البلد وذلك لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ودخل الروم فأحرقوا واسروا وكانت ليلة الميلاد وجعلوا الجامع بيت للخنازير ثم أن البطرك جعله بستانا" [٤]. كما حاول بطريرك مدينة المقدس الاتصال بالروم وحثهم للقدوم إلى مدينة القدس [٥]

---

(١) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص٢٨. المقريزي، المصدر السابق، ج٣، ص٧٧٢. متز، الحضارة الإسلامية، مج١، ص١١٠.

(٢) الأنطاكي، المصدر السابق، ص١١٠. راجع ظروف الأحداث في الفصل الثاني، البطريركية الملكية في القدس .

(٣) ابن الأثير، الكامل ج٧، ص١٤٩. النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص١٥٠. زيود، محمد، دول بلاد الشام ومصر في العصر العباسي الثاني، دمشق، جامعة دمشق، ١٩٩٣-١٩٩٤، ص ٤٨.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص١٦١.

(٥) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٥١.

فالملاحظ في هذه الاعتداءات المتكررة أنـها كـانت تـزداد فـي حـالات الفوضـى السياسـية وانحلال عرى الأمن فيطمع العامة بثروات الكنـائس والأديـرة فتتعـرض للنـهب والتدمـير، ومـن الملاحظ أيضاً أن الاعتداءات كان معظمها على كنائس النصارى الملكيين في وقت كـان يـتزامن فيه اشتداد ضغط الغارات البيزنطية على مدن بلاد الشام الشمالية.

أما بالنسبة للعلاقات ما بين اليهود والنصارى فواضح أنها لم تكـن وديـة علـى الـدوام فقد كانت العداوة وعدم الثقة متأصلة فيما بينهم [(١)] وكان كره اليهود للنصارى متوارثاً، حتى قيل هـو مسيحي وأنا يهودي فلن يكون صديقي. [(٢)].

وقد رأى المسلمون منذ أيام الفتوحـات الإسـلامية إمكانيـة الاعتمـاد علـى اليـهود فـي مساعدتهم ضد البيزنطيين، لذلك لم يكد معاوية أن يستولي على طرابلس حتى أسكنها جماعة من اليهود[(٣)]. ولما عزم الوليد على ضم كنيسة يوحنا إلى المسجد في مدينة دمشـق طلـب مـن اليـهود هدم الكنيسة[(٤)]. ولم يترك اليهود فرصة من السعاية بالنصـارى لـدى الحكام وتدبـير المكـايد لـهم مبالغة في نكايتهم وأذيتهم في الإعانة على استئصال الكنـائس والديـارات وإبطـال رسـومها. فلمـا كان الخلفاء والولاة يأمرون بـهدم شـيء منـها وكـان اليـهود فـي مقدمـة الأعـوان الذيـن يبـادرون للوثوب عليها ونهب آنيتها والمعاضدة في تخريبها وقد مرّ مـن الشواهـد علـى ذلـك. كمـا أن ثمـة عداوة كانت قائمة بينهما بسبب المنافسة بين الفريقين في التقرب إلى أصحاب السلطة والنفوذ في البلاد للحصول على مراكز في الدولة[(٥)].

إلا أنه بالرغم من تلك العداوة ما بيـن اليـهود والنصـارى وذلـك التقـارب مـا بينـهم وبيـن المسلمين لم يكن مانعاً من استمرار عدم ثقة المسلمين باليهود وتناولهم بالسـوء ووصفـهم بـالبخل والخبث ومن الشواهد على ذلك "اليهودي لا يعطي الجزية حتى يلطم". "ولا تثق باليهودي حتـى بعد أربعين سنة من إسلامه"[(٦)].

---

(١) الزيات، حبيب، اليهود في الخلافة العباسية، مجلة المشرق، مج ٣٦، ١٩٣٨، ص ١٧١.

(2) Goitein, A Mediterranean Society, Vol. 2, P. 275

(٣) البلاذري، فتوح، ص١٣٧.

(٤) ابن عساكر، تهذيب دمشق، ج١، ص٢٠٢.

(٥) ترتون، أهل الذمة، ص١٠٢. الزيات، اليهود في الخلافة العباسية. ص١٧١.

(٦) ترتون، المرجع السابق، ص١٠٣. Goitein, amediterranean Society, Cit, Vol.2, P. 273

ومن الأمثال العامية الدارجة لدى المسلمين "كل مع اليهودي ونام مع النصرانـي" دلالـة علـى عدم الثقـة باليهود.

هذا وقد كانت العلاقات تسوء وتضطرب بين طوائف أهل الذمة أنفسهم كالانقسام الذي حدث بين اليعاقبة بسبب ما أثاره يوحنا أسقف الرقة وداود أسقف دارا ضد بطريرك أنطاكيا جورجيوس" واستمر الشغب يمزق الكنائس حتى وافى الأجل داود وعودة جورجيوس للبطريركية وذلك بعد وفاة الخليفة المنصور. ونال الرهبان والأساقفة من جراء ذلك صنوفاً من السخرية والعار وصار الناس ينعتوهم بالقتلة والسفاحين، ووصف التلمحري الذين أثاروا الشغب في الكنيسة أنهم كانوا فئة متغطرسة، دعاة فتنة مخاصمين محتالين ماكرين دهاة غير ممسكين من خوف الله بالعروة الوثقى[1].

وكثيراً ما كانت فرق الجند تتدخل بين أبناء الطائفة الواحدة لمنعهم من المشاجرات والاعتداء على بعضهم ففي سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م اضطر الوالي في أنطاكيا أن يعين موظفاً رسمياً يتقاضى ثلاثين ديناراً منهم في الشهر. وكان مقره قرب المذبح داخل الكنيسة وعمله أن يمنع المتخاصمين من الاعتداء على بعضهم البعض، وكان سبب الخلاف هو التنافس فيما بينهم على تولي كرسي البطريركية إذ انقسم الملكيون إلى فريقين فريق انتخب شماساً دمشقياً اسمه نيقولا وفريق انتخب مطراناً من مدينة صور ويدعى اوسطاني (انسطاثيوس) ونصبوه بطريركاً في كنيسة حلب. فلما بلغ الخبر منافسوه استشاطوا غضباً وأقسموا على رفضه ولما وصل البطريرك الجديد إلى أنطاكية خرج مشايعوه لاستقباله فأخذ مناهضوه بقذفه بالحجارة وكان المسلمون واليهود واقفين يشاهدونهم ويسخرون منهم ويحثون عليهم التراب واقتسم الفريقان كنائس أنطاكية وظل الفريقان منقسمين مدة عشر سنوات حتى توفي اوسطاني سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م وساس نيقولا الكرسي من بعده مدة تسع سنوات حتى عام ٢٥٢هـ/٨٦٨م[2].

كما وقعت اشتباكات في فلسطين ما بين الأعوام ١٩٢-١٩٤هـ/ ٨٠٧-٨٠٩م في كنيسة المهد في بيت لحم وداخل كنيسة القيامة في مدينة القدس ضد الرهبان الفرنج. وأعلن الرهبان الفرنج اعتراضهم ولعنتهم الدينية لكل هرطقة وطالبوا بحرمان كل الذين سيدانون بالمروق على قداسة عرش روما. وراسل كلا الطرفين البابا ليو الثالث ٧٩٥-٨١٦م. للاتصال بشارلمان والتدخل في أمر هذا الخلاف[3].

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول ، ص١٥٠-١٥٧.

(٢) لرملة السرياني، الملكيون بطريركيتهم الأنطاكية، ص٢١٩-٢٢٠.

(٣) بارتولد، دراسات في تاريخ فلسطين، ص١٦٠-١٦١.

Senick, Christianity In the Patriarchate, P. 16

ويبدو أن العداوة كانت شديدة بين طوائف النصارى داخل كنيسة القيامة حتى قال أحد الكتاب "إن السلام الذي بشر به السيد المسيح يكون ظاهراً في أي مكان إلا بين جدران كنيسة القيامة"(١).

كذلك دبّ الشقاق والنزاع بين اليهود، فقد مرّ سابقاً كيف انقسم اليهود في بغداد واختلفوا حول الالتزام بنصوص التوراة أو شروحها (التلموذ) وألف عنان طائفة القرائين في فلسطين، وكان عنان في جميع كتبه يتهجم على التلموذ وتعاليم الربانيين كما كان الربانيون لا يتركون فرصة إلا واستغلوها في مهاجمة بدعة القرائين واتهامهم بالكفر والزندقة والمروق على الدين وازدادت الشقة بينهم وعدوهم غرباء وحرموا الاتصال بهم والتزوج من بناتهم(٢).

كما حدث الشيء نفسه بين أصحاب الديانات الأخرى وهذه الحادثة وإن لم تقع في بلاد الشام إلا أنه يمكن اعتبارها مقياساً لما كان يحدث بين أصحاب الديانات الأخرى، فقد حدث أن استغاث كهنة النار بأبي مسلم للقضاء على رجل ظهر في نيسابور يسمى بهافريذ بن ماه فروذين الذي أخذ يدعو إلى مذهبه الإصلاحي الجديد فلم يتوان أبو مسلم من إرسال القوات لحرب الخارجي المجوسي(٣).

إذن فلا غرابة أن تتوتر العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة أحياناً وخاصة أن تلك العصور اتسمت بتغلب النزعة الدينية على شعوبها سواء كان ذلك في الشرق أم في الغرب بالإضافة إلى استمرار الحروب ما بين المسلمين والبيزنطيين واعتداءات البيزنطيين على المدن الإسلامية وتعرض أهلها للسبي والحرق والتدمير مما كان يؤثر على العلاقات الداخلية في البلاد خاصة وأن بعض الطوائف النصرانية حاولت الاتصال بهم ومد يد العون إليهم مما كان يحز في نفوس المسلمين فتضطرب الأحوال وتسوء العلاقة. إلا أنه يمكن القول أنه بالرغم مما كان يشوب تلك العلاقات في بعض الأحيان من المشاحنات والاضطرابات لكن سرعان ما كان الصفاء يعود إلى سابق عهده ويعيش الجميع بأمان واطمئنان فالتسامح الديني كان الصفة العامة للخلافة العباسية (٤).

---

(١) العارف، عارف، المسيحية في القدس، القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، ١٩٥١، ص٢٤٤.

(٢) التطيلي، الرحلة، ص١٩٢-١٩٣.

(٣) البيروني، الآثار الباقية، ص٢١٠-٢١١.

(4) The New Ency… Britannica, Vol. 22, P. 359

التحول إلى الإسلام

شهدت منطقة الجزيرة الفراتية إقبالاً شديداً على الإسلام بعد سنوات قليلة على قيام الدولة العباسية، وعزا التلمحري سبب التحول الرئيسي إلى ثقل الجزية المفروضة عليهم وخصوصاً أن النصارى هناك لم يعتادوا على هجر أوطانهم والهرب إلى بلاد أخرى فأقبلوا على الدخول في الإسلام، وكان أكثرهم من الفئات المضطهدة المسحوقة(١). وكان معظم المتحولين من أبناء المدن كحران وتلا ورأس العين ودارا ونصيبين وسنجار والرقة وكانوا يؤلفون فرقاً من أعداد مختلفة قد يصلون إلى ثلث القرية أو نصفها ويذهبون إلى مدينة حران ليعلنوا إسلامهم في محضر أميرها وكانوا يفخرون بإسلامهم ويتهمون من بقي على النصرانية بالكفر(٢). ثم يذهب المتحولون إلى الإسلام لتدوين أسمائهم في السجلات الرسمية ويمارسون الختان ويسمون بلقب يناسب هويتهم الجديدة(٣). ثم يتابع التلمحري حديثه ويقول: "ولم يقتصر التحول على المضطهدين وصغار السن بل ارتكبها البالغون والشيوخ والكهنة والشمامسة بأعداد كبيرة"(٤).

وينقل التلمحري الطريقة التي كانت تتبع في عملية الدخول إلى الإسلام فيقول عن أحد الشمامسة الذي أراد أن يعلن إسلامه بأنه ذهب إلى أحد المسلمين إلا أن المسلم رفض طلبه وطلب منه أن لا يقدم على هذه العملية مخافة أن يرتد إلى ديانته الأولى فيما بعد ويكون عقابه شديداً إلا أن الشماس أصرّ على ذلك ورد عليه لن أجحد الإسلام وإن عرضني ذلك للموت لأن الله نفسه أعلن لي ذلك. فسأله الرجل: أتهجر المسيح؟ أجابه الشماس: أجل أهجر! وسأله: هل تجحد المعمودية؟ قال: نعم فقد جحدتها فعلاً، قال: أتكفر بالصليب والقربان وبكل العقائد التي يؤمن بها النصارى؟ أجابه، أجل أكفر، وكان يتفوه بعبارات السخرية والاستهزاء بالديانة المسيحية من غير أن يجبره المسلمون على إثبات ذلك، وما أن انتهى المسلم من تكفيره حتى بادره بهذا السؤال هل تؤمن بأن محمد رسول الله وأن القرآن قد أنزل عليه من السماء؟ قال: أجل أؤمن. وقال له أيضاً: وهل تعترف بأن عيسى المسيح كلمة الله وروح منه وهو نبي كسائر الأنبياء وأنه ليس هو الله! أجاب الرجل: نعم ولما فرغ من عملية تكفيره بمحض إرادته لأنه لم

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٩٣.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٩٣، ٣٣٥، ٣٣٨، ٣٣٩.

تلا: كانت تدعى تل مَوْزن، وهي بلدة قديمة بين رأس العين وسروج. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥.

(٣) التلمحري، المصدر السابق ، ص٣٤٩.

(٤) التلمحري، المصدر السابق، ص ٣٤٩.

يحمل أحد بالقوة على هجر ديانته بل كان إبليس يدفعهم إلى ذلك أمره أن يحل حزامه ويجلس للصلاة باتجاه الجنوب (القبلة)[١].

ويفهم من سياق هذه الحادثة أن التحول إلى الإسلام كان يتم دون إجبار أو إكراه من المسلمين وهذا ما اعترف به التلمحري نفسه، كذلك يجد الباحث أن التحول إلى الإسلام لم يكن سببه الرئيسي الهروب من الجزية لأن الذي اعتنق الإسلام كان أحد الشمامسة ومن المعروف أن الرهبان كانوا يعفون من الجزية، كما أورد التلمحري في مكان آخر بأن ظلم وتعسف الجباة كان يقع على النصارى والمسلمين على حد سواء فقال "ولم يقتصر هذا الظلم على الفلاحين السريان بل كان المسلمون كالسريان يبيعون معظم ما ملكت أيمانهم لدفع ضريبة الصدقات[٢]" ويورد في مكان آخر أيضاً "بأن الاضطهاد لم يقتصر على طبقة واحدة من الناس بل ضمت النصارى والوثنيين واليهود والسامريين وعبدة النار والمجوس عباد الشمس ومسلمي مدينة حران والمانويين ولم يستهدف العسف ديانة معينة من الديانات"[٣].

فالانتقال إلى الإسلام لن ينقذهم من دفع ما عليهم مِن ضرائب فقد كان العسف يصيب المسلمين مثل ما يصيب غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى. بالإضافة إلى ذلك أن المسلم الجديد يفقد حصته من الإرث والمسلم الجديد له أن يحتفظ بأرضه ويدفع الخراج أو أن يتركها لأهل قريته يزرعونها ولا يدفع عنها شيئاً وإذا مات الذمي ولم يترك وارثاً فإن إرثه يرجع لأهل ملته في حين أن إرث المسلم يعود إلى بيت المال[٤].

أمام هذا الوضع لا بد أن يكون هناك أسباب أخرى للتحول إلى الإسلام وقد ألمح إليها التلمحري نفسه وهو سوء تصرف العمال أنفسهم حيث أشار إلى ذلك بقوله أن سوء تصرف العمال من الكتاب والصيارفة الآثم وهم من النصارى فكانوا يرسلون في طلب راهبات عذارى ونساء متزوجات ويدنسون أعراضهن دون خجل أو استحياء .. ولما وقف الوالي على سوء فعل العمال أحضرهم إليه وثقب أنوفهم وأدخل بها أخطمة كالجمال، وعلق على جباههم قطعاً من نقود

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٣٤٦-٣٤٧.

أن يحل زناره: يعني ترك النصرانية وأحياناً يقال قطع زناره لمن يتبرأ من النصرانية لأن الزنار أصبح كناية عن التنصر. الزيات، سمات النصارى واليهود، ص٢٠١.

(٢) التلمحري، المصدر السابق، ص٧٩.

(٣) التلمحري ، المصدر السابق، ص٢٥٠-٢٥١.

(٤) انظر المنشور الذي أصدره الخليفة المقتدر سنة ٣١١هـ/٩٢٣م الذي أمر فيه برد تركة كل من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً إلى أهل ملته لأنه لا يتوارث أهل ملتين. الصابئ، الوزراء، ص٢٧٠-٢٧١.

وقيدهم بالسلاسل وكان يدفعهم في السوق ليسخر بهم الأطفال ثم زجهم في غياهب السجن الذي تخرج منه رائحة العفونة والنتانة[١]. ولعل هذه التصرفات المشينة والاقتصاص العادل من مرتكبيها كان يدفع بعض الأهالي إلى التحول إلى الإسلام أو قد يكون ميلاً للدين الإسلامي والاقتناع به وخاصة أنهم كانوا يتحولون بكامل حريتهم وإرادتهم، وقد يكون للتحول أسباب أخرى ألا وهو طموحهم في الحياة العامة إذ لم يقتصر التحول على المضطهدين والفقراء بل شمل البالغين والشيوخ كما شمل التحول عدداً من الشمامسة ورجال الدين وقد يكون تحول هؤلاء لوضع الكنيسة آنذاك. فقد كانت الطوائف الدينية تناوئ بعضها بعضاً ورجال الدين يتنازعون فيما بينهم على المناصب الدينية حتى استحكمت العداوة بينهم لدرجة أنهم كفروا بعضهم ورفضوا أن يصلوا وراءهم ونظر الناس إليهم بأنهم ماكرون وطغاة وفسقة، فهذا الجو المشحون بالكراهية والانقسام قد يدفع بالكثيرين إلى أن يلتمسوا جواً روحياً أسلم فالتجأوا إلى الإسلام. فالتحول إلى الإسلام كان له أسبابه الكثيرة وفي بعض الأحيان كان الهروب من الجزية أحد تلك الأسباب.

وقد حفظ لنا النويري نص صيغة التحول في كتابه نهاية الأرب وهي تحتوي على الشهادتين المعظمتين وهما شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ﷺ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وأن عيسى عبد الله ونبيه، ومريم أمة الله، وأن محمد ﷺ خاتم النبيين وأفضل المرسلين وأن شريعته أفضل الشرائع وملته أفضل الملل وأن ما جاء به عن الله حق. وقال: أنا برئت من كل دين يخالف دين الإسلام" ثم تسجل شهادته عند القاضي ويشهد عليه شاهدان. وإذا كان المتحول يهودياً يذكر بدل عيسى موسى[٢].

هذا وقد أجمعت المصادر على تمكن الخليفة المهدي من تحويل نصارى تنوخ المقيمين بالشام إلى الإسلام ذلك أن تنوخ حسب رواية ابن الكلبي تلقت المهدي لما خرج إلى الشام، وهم على الخيل عليهم العمائم، فقال من هؤلاء؟ قيل تنوخ وهم نصارى، فدعاهم إلى الإسلام، فأبوا. فضرب عنق سيدهم ابن محطة فأسلم الباقون وهدم بيع تنوخ فليس من تنوخ نصراني[٣].

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ٣٠٤.

(٢) النويري، نهاية الأرب ج٩، ص١٤٥.

(٣) ابن الكلبي، هشام أبو المنذر بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)، نسب مضر واليمن الكبير، تحقيق محمود العظم، دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر السورية، ج٢، ص٤٠٦-٤٠٧ العايب، سلوى الحاج، المسيحية العربية وتطوراتها من نشأتها إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٩٧، ص٢١٨.

ويحدد اليعقوبي تاريخ وقوع الحادثة في سنة ١٦٥هـ/٧٨١م ويقول ان المهدي خرج إلى الشام ووصل إلى جند قنسرين لقيته تنوخ بالهدايا وقالوا نحن أخوالك يا أمير المؤمنين فقال: من هؤلاء؟ قيل تنوخ حي ينتمي إلى قضاعة ووصف له حالهم وكثرة عددهم وقيل له: إنهم كلهم نصارى فقال: لا أرضاكم خؤولتي. فأسلموا، فارتد منهم رجل فضرب عنقه فخافوا فثبتوا على الإسلام[١].

أما ما رواه البلاذري عن إسلام تنوخ في الشام قال: "... وكان حاضر قنسرين لتنوخ مذ أول ما تنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان ابن عمران ابن الحاف بن قضاعة، فحدثني بعض ولد يزيد بن حنين الطائي الأنطاكي عن أشياخهم: أن جماعة من أهل ذلك الحاضر أسلموا في خلافة أمير المؤمنين المهدي فكتب على أيديهم بالحضرة، قنسرين ... وكان بقرب حلب حاضر تدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أنهم أسلموا بعد ذلك فكانوا مقيمين وأعقابهم به إلى بعيد وفاة أمير المؤمنين الرشيد. ولم يطل الوقت حتى أجلى العباس بن زفر بن عاصم الهلالي أيام فتنة محمد بن الرشيد الأمين تنوخ عن حاضرهم وخربه لأنهم حاربوا أهل حلب وأرادوا إخراجهم منها فانتقلوا إلى قنسرين فأخرجوا منها فتفرقوا في البلاد فمنهم من دخل تكريت ومنهم من ذهب إلى أرمينيا وإلى بلدان كثيرة متباينة[٢].

كذلك يورد ميخائيل السرياني رواية إكراه المهدي للتنوخيين ويقول إنه في سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م أقبل المهدي إلى حلب وخرج إلى لقائه التنوخيون الذين يقيمون في الخيام بضواحي المدينة وهم ممتطون خيولاً مطهمة ويرفلون بالحلل فقيل له: أن هؤلاء نصارى فاحتدم المهدي سخطاً واضطرهم أن يسلموا فأسلم زهاء خمسة آلاف رجل ولم تسلم النساء. وأن الرجل الذي قتل أسمه الليث[٣]

---

(١) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٣٩٨.

(٢) البلاذري، فتوح، ص١٥٠-١٥١.

(٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٢. Michel Le Syrien, Vol, 3, P1.

وقال عكرشة العبسي يرثي بنيه(١): (الطويل)

سقى الله أجداثاً ورائي تركتها	بحاضر قنسرين من سبل القطر
مضوا لا يريدون الرواح وغالهم	من الدهر أسباب جرين على قدر
ولو يستطيعون الرواح تروحوا	معي أو غدوا في المصبحين على ظهر

وهكذا يتضح أن نصرانية تنوخ وسليح انتهت في ظروف خاصة، ربما كان من أسبابها سخط الخليفة على النصارى في الحدود الشمالية للدولة الإسلامية بسبب حروبه مع البيزنطيين وقتلهم عدداً كبيراً من المسلمين في مرعش سنة ١٦١هـ/٧٧٧م (٢)، حيث يذكر ماري بن سليمان أنه في سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م عاد الرشيد وفتح حصن سمالو وفتوحاً أخرى كثيرة فزال عن النصارى ما هم فيه(٣).

وقد وقعت في عصر المأمون أيضاً حادثة شبيهة بما حدث مع بني تنوخ وإنما كانت مع أصحاب الديانات الأخرى، فقد مرّ سابقاً أنه عندما مرّ المأمون بديار مضر لغزو الروم استقبله الحرنانية هناك وسألهم عن ديانتهم ولم يجدوا له جواباً فهددهم بالقتل لأنه اعتبرهم من عبدة الأوثان، فخافوا وتنصر كثير منهم وأسلم طائفة وتلقب من بقي منهم بالصابئة(٤).

كما يذكر ابن الجوزي انه عندما أصدر الخليفة المتوكل مرسومه سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م ونهى فيه أن يتعلم أولاد الذميين في كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم ونادى المنادي بذلك فأسلم منهم خلق كثير(٥).

أما حالات التنصر والالتحاق بالروم فقد كانت قليلة وكان لها أسبابها أيضاً وقد أشار ابن حوقل إلى ارتداد قوم من بني تغلب ويسميهم بني حبيب ويقول أنهم في سنة ٣٣٠هـ/٩٣٥م خرجوا بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم في نحو عشرة آلاف فارس على عتيق وسلاح وشارة من درع وجوشن مذهب فأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم على كرائم الضياع وخيرهم القرى والمنازل ورفدهم بالنواحي الحسنة والمواشي والعوامل فعادوا إلى

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٦.

(٢) أبن الأثير، الكامل، ج٥، ص٢٣٨

(٣) ماري بن سليمان، أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص٧٤.

(٤) النديم، الفهرست ص٣٨٥.

(٥) ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص٢٢٣.

بلد الإسلام على بصيرة بمضاره وعلم بأسباب فساده وخبرة بطرقه... وقد كاتبوا من خلفوه وراسلوا من عرفوه ولاطفوه بذكر ما بلغوه ونالوه وكان الأكثر قد قصد في ضياعة وحيل بينه وبين أملاكه ووظف عليه ما لا يعرفه وألزم من الكلف ما لم يجري بمثله رسم. فأطمعوهم فيما نالوه وعرفوهم ما وصلوا إليه وما جاؤوا فيه ... وأن ملكهم أيدهم وقواهم وأنعم عليهم وآواهم فلحق بهم كثير من المتخلفين فتنصروا بأجمعهم وأصبحوا يحاربون مع الروم[١].

ويبدو من كلام ابن حوقل أن كثرة الضرائب والكلف وإجبارهم على بيع ضياعهم كان السبب في رحيلهم، إذ استمر العمال في مطالبتهم بالضرائب الكثيرة والعسف بهم، ففي عهد الخليفة المقتدر ورد إليه قوم من وجوه التناء والمزارعين في ديار ربيعة متظلمين مما عوملوا به في سني إحدى واثنتين وثلاث عشر وثلاثمائة من إكراههم على تضمين غلات بيادرهم بالحزر والتقدير وإلزامهم حق الأعشار في ضياعهم على التربيع واستخراج الخراج منهم على أوفر عبرة قبل إدراك غلاتهم وثمارهم وإكراه وجوه تجارهم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة[٢]. وهذا ما دفع بالكثير من أهاليها إلى الرحيل والابتعاد والتنصر للخلاص من الأوضاع التي كانوا يعانوا منها.

كما كان لظروف الحرب مع البيزنطيين وخاصة في منطقة الثغور أثر في تنصر بعض السكان والأسرى ففي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م نازل الروم ملطية مدة طويلة وهلك أكثر أهلها بالجوع وضرب الروم خيمتين على إحداهما صليب وقالوا: من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليرد عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في أهليهم وأموالهم[٣].

وفي سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م فتح الروم طرسوس وسار أهلها إلى انطاكية، وجعل الملك الجامع فيها اصطبلاً لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا في الملك وتنصر بعضهم غير أن أولادهم تنصروا جميعا[٤].

كما حدثت حالات فردية تنصر أصحابها ورحلوا إلى بلاد الروم وكان معظم هؤلاء من بين الثوار واللصوص فعلى سبيل المثال أنه في سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م جاء الخبر أن نائب أنطاكية محمد بن موسى الصلحي أخذ الأموال التي في خزائن أنطاكية ودخل بلاد الروم مرتداً وقيل أنه

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩١.

(٢) الصابئ، الوزراء، ص٣٦٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٠٦. النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص١٢٨.

(٤) مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص٢١٠-٢١١. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٨٧ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٦٤.

عزم على تسليم أنطاكية إلى الروم ولم يمكن ذلك أهل البلد. فخشي أن ينم خبره إلى سيف الدولة فيتلفه فهرب بالأموال[١].

ومن المعروف أن المرتد في بلاد الإسلام عقوبتة القتل بعد أن يستتاب ثلاثا فإن تاب وإلا قتل[٢] إذ أشار ميخائيل السرياني إلى رجل مسلم اسمه رويح كان بيته مجاوراً للكنيسة جاهر بالنصرانية وترك بيته وقصد أحد الأديار. ولما بلغ هارون الرشيد خبره استحضره ولاطفه حتى يعود للإسلام فأبى. فأوثقه وألقاه في السجن سنتين ليستتاب ثم أصدر الخليفة أمره بقتله[٣]. وفي سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م أسلم أحد رهبان دير سابا في القدس ثم ارتد عن الإسلام فحمل الى الفسطاط ليستتاب ثم قتل[٤].

القيود الاجتماعية:

كثيراً ما كان إثراء أهل الذمة وتنفذهم ببعض المهن الحساسة كالطب والصيرفة إضافة إلى توليهم الوظائف المهمة في الدولة وتنعمهم برفاهية العيش ما يثير حنق الفقهاء والأتقياء من المسلمين ومطالبة الخلفاء بمنع استعمالهم في دواوين الدولة وعدم السماح للذمي التحكم بالمسلم.

وكان على الخلفاء أن يراعوا موقف هؤلاء الفقهاء وإحساسهم حيث يأبون أن يتسلط ذمي على مسلم في شيء وتتمثل هذه النظرة في قول شبيب بن شبة[٥] للمنصور أثناء حجه "يا أمير المؤمنين أن دون أبوابك نيراناً تأجج من الظلم والجور لا يعمل فيها بكتاب الله ولا سنة نبيه محمد ﷺ يا أمير المؤمنين سلطت الذمة على المسلمين، وظلموهم وعسفوهم وأخذوا ضياعهم وغصبوهم أموالهم وجاروا عليهم واتخذوك سلماً لشهواتهم وأنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً يوم القيامة". وما كان المنصور إلا أن طلب من الربيع بن يونس[٦] أن يكتب إلى الأعمال ويصرف من بها من الذمة وقال له من أتاك به شبيب فأعلمنا بمكانه لنوقع استخدامه[٧].

---

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٤، ص١١٣.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص١٨٠

(٣) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٦. Michel Le Syrien, Vol 3, P18

(٤) المخلصي، تاريخ الكنيسة الشرقية، ص٤١. Senick, Christianity In The Patrarchate, P.19.

(٥) شبيب بن شبة بن عبد الله (ت نحو ١٧٠هـ/٧٨٦م). وهو من الخطباء العلماء أديب الملوك وجليس الفقراء. الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٢٠٦.

(٦) الربيع بن يونس بن محمد بن كيسان أبو الفضل حاجب المنصور ثم صار وزيره ثم حجب للمهدي (ت ١٧٠هـ/٧٨٦م). ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٨، ص٨٥-٩١. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٢.

(٧) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢١٤-٢١٥. فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية، عمان، دار الشروق، ١٩٩٨، ج١، ص٣٠٦.

ثم إن استمرار الشكوى من وجود الذميين في الوظائف يدل دلالة واضحة على أن الأمور كانت شكلية ولم تنفذ بل كان هدف الخليفة إرضاء جمهور المسلمين. ففي زمن الخليفة المهدي قويت شوكتهم وازدادت سلطتهم حتى أنشده بعض الصالحين بهذه الأبيات: (الكامل)

بأبي وأمي ضاعت الأحلام ... أم ضاعت الأذهان والأفهام؟

من صدّ عن دين النبي محمد ... أله بأمر المسلمين قيام؟

إلا تكن أسيافهم مشهورة ... فينا فتلك سيوفهم أقلام؟

فأمر ولاته بالنزول إلى جميع الأعمال ولا يترك أحداً من الذمة يكتب لأحد من العمال، وإن علم أن أحداً من المسلمين استكتب أحداً من النصارى قطعت يده[١]. كما كان من بين القيود التي فرضها المهدي على النصارى عدم السماح لهم باقتناء العبيد[٢]

كما أثار تطاول الذميين وتشبههم بملابس المسلمين والمبالغة في التراخي معهم أيام الرشيد مشاعر الضيق والحنق لدى القاضي أبو يوسف حيث عبر عنه بقوله "وقد ذكر لي من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر[٣] وتركوا التقصيص، ولعمري لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك، أن ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة، وإنهم حين يراجعوا ذلك ليعلموا ما أنت ..."[٤]. وطالب الخليفة بإلزامهم ببعض القيود على ملابسهم. فقال له: "... وأن يتقدم في أن لا يترك أحد منه يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات .. مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم مضرّبة وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس[٥] مثل الرمانة من خشب، وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية، ولا يحذوا حذو المسلمين، وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل .. ولتكن قلانسهم طوالاً مضربة، فمر عمالك أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي. [٦].

---

(١) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢١٦.

(2) Theophanes, The Chronicle, P 139. Michel Le Syrien, Vol 3, P3.

(٣) الجمام والوفر: الجمام جمع جمة وهو مجتمع شعر الرأس، الجمة من الشعر. ما سقط على المنكبين. وهي أكثر من الوفرة إذ يصل الشعر إلى الأذنين. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٠٧.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٨.

(٥) القرابيس، مفردها قربوس وهي حنو السرج وهما رجلا السرج. ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص١٧٢.

(٦) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧.

وفي سنة ١٩١هـ/٨٠٧م أصدر الرشيد أوامره من الرقة بهدم الكنائس بالثغور وأخذ أهل الذمة حتى ببغداد بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم[١]. وذلك انتقاماً من البيزنطيين لاعتداءتهم المتكررة على مدن الثغور وقتل سكانها وتمييز الذميين عن المسلمين في تلك المناطق للخوف من وجود الجواسيس بينهم، وكان هذا الإجراء موضعي يخالف نظرته العامة في رعاية أهل الذمة والرفق بهم.

وفي عهد الخليفة المأمون طرد بعض الكتاب الذميين من دواوين الخدمة حيث استأذن على المأمون بعض شيوخ الفقهاء ولما دخل عليه ورأى بين يديه رجلاً يهودياً كاتباً فأنشد الفقيه المأمون الأبيات التالية: (الخفيف)

إن الذي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى اليهودي، فأنفذ المأمون عهده الا يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من أعماله[٢]. وصرف عدة من أهل الذمة. وبقي جماعة من اليهود منحازين إلى بعض جهاته فخرج توقيعه بما نسخته "أخبث الأمم اليهود وأخبث اليهود السامرة وأخبث السامرة بنو فلان فليقطع بأسمائهم من ديوان الجيش والخراج إن شاء الله تعالى"[٣].

وبقيت نظرة الشك إلى الموظفين الذميين قائمة لدى المسؤولين في الدولة ففي سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م ولى المأمون عبد الله بن طاهر من الرقة إلى مصر وكتب إليه والده طاهر رسالة طويلة شملت على جميع ما يحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة وكان من جملة تلك الوصايا أنه قال له: "ولا تدخلن في مشورتك أهل الذمة والنحل ولا تسمعن لهم قولاً فإن ضررهم أكثر من نفعهم"[٤].

ولعل المتوكل هو أول من ذهب إلى إصدار مرسوم يلزم به أهل الذمة ببعض القيود الاجتماعية ففي سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م أمر المتوكل[٥] "بأخذ النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخر

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٢٤. الأزدي، تاريخ الموصل، ص٣١٠. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣٤٨. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠٦.

Runciman, The Historic Role, P. 9. Shorter Ency.. of Islam, P. 440.

(٢) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد الله القرطبي، (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، مج١، ق١، تحقيق محمد الخولي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٢، ص٣٥٩.

(٣) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢١٩.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٤٦١.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٧١-١٧٢. انظر نص المرسوم في صفحة الملاحق.

السروج، وبتصيير زرين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالف لونهما لون الثوب الظاهر عليه وإن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى منهما خلف ظهره وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسلي. ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسلي ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق وأمر بهدم بيعهم المحدثة. وبأخذ العشر من منازلهم وإن كان الموضع واسعاً صير مسجداً. وإن كان لا يصح أن يكون مسجداً صير فضاءً وأمر بأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي يجري أحكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلمهم مسلم. ونهى أن يظهروا في شعانينهم صليباً وأن يشمعلوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين"[١].

وشدد بمثل هذه الأوامر واقطع منها على اليهود[٢].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٧٢.

هذا وقد أشارت غالبية المصادر العربية والأجنبية إلى مرسوم المتوكل انظر: اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٧. ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٦٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج١١، ص٢٢٢. ابن ظافر الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ج٢، ص٣٥٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٠٦. أبو البسام، أبو الخطاب عمر بن أبي علي حسن بن علي. (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥) كتاب النبراس في تاريخ بني العباس، صححه وعلق عليه، عباس العزاوي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٦، ص . ابن المقفع، سير البيعة المقدسة، مج٢، ج١، ص٤. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٣٧. الذهبي، العبر، ج١، ص٣٣٠. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢٢١. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣١٣. أورد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى "وهذه نسخة كتاب كتب به عن المتوكل فخرج أمره بأن تلبس النصارى واليهود ثياب العسلي. وأن لا يمكنوا من لبس البياض كي لا يتشبهوا بالمسلمين. وأن تكون ركبهم خشباً. وأن تهدم بيعهم المستحدثة. وأن تطلق عليهم الجزية. ولا يفسح لهم في دخول حمامات خدمها من أهل الإسلام ولا يستخدموا مسلماً في حوائجهم لنفوسهم وأفردهم من يحتسب عليهم" القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٦٥. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٧٠. ذكره يشعلوا. وهي يشمعلوا أي يقرأوا. الزيات، سمات النصارى، ص١١٥.

عمرو بن متى ، أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل. طبع في رومية الكبرى، ١٨٩٦، ص٧١. وقد ذكر من جملة أوامر المتوكل "ومن خرج من بيته عليه أن يعلق في عنقه صليب خشب وزنه أربعة أرطال بالبغدادي" لم تشر جميع المصادر التي أوردت مرسوم المتوكل مثل هذه العبارة. ولكن جاء أمر تعليق الجلاجل في الأعناق فيما بعد في المرسوم الذي أصدره الخليفة القائم بأمر الله ٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م سنة ٤٢٩هـ/١٠٧٧م. انظر: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٩. وتعليق صلبان خشب زنة كل واحد خمسة أرطال في مرسوم الخليفة الفاطمي الحاكم لأمر الله ٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٦٦-١٠٢١م. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٧٣.

Hirschler, the Social Isolation, P. 86. Runciman, The Historic Role, P. 9. Ye'or, The Dhimmi, PP. 185-186.

(٢) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٣٧.

فالناظر في مرسوم المتوكل يجد أن هناك قيوداً جديدة ترد لأول مرة فمن تلك القيود الجديدة كانت الرقاع فكانت أول مرة يرد ذكرها صريحاً في هذا المرسوم ووصف الطبري هذه الرقاع إذ تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره والأخرى منهما خلف ظهره كما حدد قياسها ولونها وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربعة أصابع وقد جاء قياسها في نص الكتاب "يكون استدارة كل واحدة منهما شبراً تاماً في مثله"[١] ولونهما عسلي وخص بها مماليكهم (أي خدمهم). كذلك تسمير صور شياطين على أبواب الذميين فقد انفرد فيها أيضاً مرسوم المتوكل. وقد عزا أحد الكتاب المحدثين السبب في ذلك حتى ليعرفها السائلون ولا يطلبون لهم الرحمة من الله[٢]. ولعل الغرض منها هو التمييز بين منازل المسلمين ومنازل أهل الذمة والإقلال من شأنهم بوضع مثل تلك الصور المفزعة. كما حدد المرسوم لون ملابس الذميين باللون العسلي ومن لبس عمامة فكذلك عسلي" ويعبر الذهبي عن ذلك فيقول ألزم المتوكل جميع النصارى بلبس العسلي وخصوا به"[٣] وتمييز قلانسهم بوضع زرين عليها.

ومن خلال مرسوم المتوكل والأوامر التي فرضها عليهم يتضح جلياً أن الذميين كانوا يتمتعون بكافة المزايا التي تتوفر في المجتمع ولم يعيشوا منعزلين عنهم أو في حارات خاصة بهم بل كانت منازلهم مقاربة لمنازل المسلمين كما تمتع أولادهم بحضور الكتاتيب مع أولاد المسلمين.

ولعل التوسع في استخدام الذميين في الوظائف بدرجة ملحوظة وتطاولهم على المسلمين ومحاولتهم الإساءة إليهم واجتهاد الفقهاء في إيقاف ذلك كان وراء إصدار مثل هذه الأوامر إذ يوضح ابن قيم الجوزيه مدى تسلط الذميين في عهده ومحاولة الإساءة والدس إلى الموظفين المسلمين فيقول: "فكانت الأعمال الكبار كلها أو عامتها إليهم في جميع النواحي وكانوا قد أوقعوا في نفس المتوكل من مباشري المسلمين شيئاً وأنهم بين مفرط وخائن وعملوا عملاً بأسماء المسلمين وأسماء بعض أهل الذمة لينفوا عنهم التهمة"[٤].

بالإضافة إلى ذلك كان المتوكل في موقف سياسي لا يحسد عليه حيث كان يجابه العلويين والمعتزلة والأتراك الذين يحيكون مؤامراتهم في البلاط وخارجه ضد الخليفة، ربما يعطي الحق

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٦.

(2) Hirschler, The Social Isolation, P. 86

(٣) الذهبي، العبر، ج١، ص٣٣٠.

(٤) ابن قيم الجوزيه، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢١٩.

للخليفة على ما أصدره من تقييدات ضد أهل الذمة ليرضي أهل السنة من فقهاء وجمهور الذين كانوا أمله وعضده الأخير في صراعه السياسي الديني ضد أعدائه من هذا المنطلق يمكن القول أن إجراءات المتوكل الشديدة ضد الذميين كان لها هدف سياسي واضح[١].

كما يمكن القول أن توتر العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين وغزو الروم لدمياط سنة ٢٣٨هـ/٨٥٣م وإحراقهم إلى ما وصلوا إليه من دورها واخصاصها وقتل أهلها وسبي نحو ستمائة امرأة كان وراء إعادة تطبيق مرسوم ٢٣٥هـ/٨٥٠م فأصدر مرسوماً آخراً سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٧م أمر فيه بالتقييد على أهل الذمة ومنعهم من ركوب الخيل والبراذين وأن يقتصروا على ركوب البغال والحمير[٢].

فكان المنع الجديد في هذا المرسوم هو منع الذميين من ركوب الخيل والبراذين، إذ لم يمنع الذميون منها قبل هذا التاريخ سوى أن يركبوها من غير سرج. والواقع أن ما سنه المتوكل لم يعمل به واستمر الذميون بالتطاول على المسلمين والتعلم على أيدي العلماء والفقهاء المسلمين فقد درس حنين بن إسحق (ت ٢٦٤هـ/٨٧٧م) على يد الخليل بن أحمد وسيبويه حتى أصبح حجة في اللغة العربية[٣]. كما اتصل ثابت بن قرة (ت ٢٨٨هـ/٩٠٠م)، بمحمد بن موسى وتعلم في داره ووصله بالخليفة المعتضد[٤]. واستمر الخلفاء في تولية أهل الذمة المناصب العليا في الدولة ففي سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م ولى المعتضد ابنه علياً (المكتفي) على قنسرين والعواصم والجزيرة فقلد الحسين بن عمرو النصراني أمور هذه النواحي والنظر في الأموال ومكاتبة العمال فيها[٥] فقال الشاعر في ذلك[٦]: (المتقارب)

---

(١) الدوري، اليهود في المجتمع الإسلامي، ص٨٧. فوزي، الخلافة العباسية، ج١، ص٣١٠. بينما يرجع ابن البطريق وماري بن متى السبب في إصدار المتوكل أوامره هذه إلى غضبه على طبيبه بختيشوع بن جبرائيل وحبسه والواقع أن حبس الطبيب كان بعد هذا الوقت بكثير إذ يذكر الطبري أنه في سنة ٢٤٤هـ/٨٥٨م غضب المتوكل على طبيبه وقبض ماله ونفاه. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٢١١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١٢٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١٩٣-١٩٤. ابن المقفع، سير البيعة المقدسة، مج٢، ج١، ص٩. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص١١٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٣١٧.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٩٥. محمد بن موسى: محمد وأحمد والحسن بنو موسى بن شاكر وهؤلاء القوم ممن تناهى في طلب العلوم القديمة وانفذوا إلى بلاد الروم لإخراجها وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة، والحيل والموسيقى والنجوم. توفي محمد بن موسى في سنة ٢٥٩هـ/ ٨٠٧م. النديم، الفهرست، ص٣٣١.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص٧١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٣٩٧.

(٦) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٦، ص٣٩٧.

حســـين بـــن عمـــرو عـــدو القـــرآ ن يصنـــع فـــي العـــرب مـــا يصنـــع

يقـــــوم لهيبتـــــه المســـــلمو ن صفوفـــــاً لفـــــرد إذا يطلـــــع

فـــإن قيـــل قـــد أقبـــل الجاثليـــ ق نُحفـــى لـــه ومشـــى يظلـــع

كما مال أيضاً والده المعتضد الى تولية النصارى في دواوين الدولة، ومما رواه ماري بن سليمان في ذلك أن جماعة من المسلمين كتبوا سعاية في عبد الله بن سليما بن وهب وهو في الوزارة إلى الخليفة المعتضد وأغروا به وحكوا ميله إلى النصارى واتصل الخبر بعبد الله بن سليمان فجزع ودخل على المعتضد فدفع إليه الرقعة فتغير واعتذر وقال ما وليت نصرانياً سوى عمر بن يوسف للأنبار والجهابذة يهود ومجوس واعتمدت عليهم لثقتهم لا ميلاً إليهم لكن لثقتي بهم فقال المعتضد إذا وجدت نصرانياً يصلح لك فاستخدمه فهو آمن من اليهود لأن اليهود يتوقعون عود الملك إليهم وآمن من المسلم لأنه بموافقته لك في الدين يروم الاحتيال على منزلتك وموضعك وآمن من المجوس لأن المملكة كانت فيهم ووصاه بالإحسان إليهم وخرج مسروراً"[١]

وفي بداية عهد الخليفة المقتدر كان هناك هبة رسمية ضد النصارى لأن أمرهم قد علا بشكل ملحوظ وغلبوا على الكتاب فأمر الخليفة في سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م بأن لا يستخدم أحد من اليهود والنصارى في الدواوين وألزموا بلزوم بيوتهم وأن يلبسوا المساحي (الأسود المائل إلى الرمادي) ويضعوا بين أكتافهم رقاعاً ليعرفوا بها وألزموا بالذل حيث كانوا[٢]. وفي السنة نفسها أمر المقتدر ألا يستخدم أحد من اليهود والنصارى إلا في الطب والجهبذة[٣].

---

(١) ماري بن سليمان، أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص٨٤. الزيات، الصيارفة في الإسلام ص٤٩٢.
عبد الله بن سليمان بن وهب وزر للخليفة المعتضد حتى وفاته فعظم موته على المعتضد وجعل ابنه أبا حسين القاسم بن عبد الله بعد أبيه في الوزارة وكانت وفاته (سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٦، ص٤٠٨. ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٣، ص٨٤. يذكر "وأخذوا بلبس العسلي". ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص١٠٨. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢٢٤. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٨٦. انظر نص المرسوم في صفحة الملاحق.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٨٣-١٨٤. Hirschler, The Social Isolation, P. 90.

ولم يكن نصيب هذا التقييد أكثر من سوابقه فظلت الأوامر ضعيفة واستمر أهل الذمة يتولون المناصب المهمة في الدولة. فعندما كتب المقدسي (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) عن إقليم الشام قال: "وأكثر الأطباء والكتاب في هذا الإقليم من النصارى"[(١)].

وبعد مرسوم المقتدر هذا لم يصدر أية قيود أخرى فقد نامت ولم تظهر إلا في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي[(٢)].

على أي حال فقد كانت تلك القيود في الغالب شكلية مثل التمييز في الملابس والركوب أو تحديد الوظائف، فكانت التدابير المتخذة لذلك وقتية عادة. ويلاحظ ارتباطها بفترات القلق أو ضعف الخلافة وواضح أن فترة السيادة العربية كانت فترة ازدهار وحرية للذميين. كما يجب التذكير أن تلك العصور غلبت عليها الروح الدينية والمشاعر المتزمتة التي حكمت تصرف أبناء تلك العصور في العالمين الإسلامي والنصراني على السواء، لذا فقد كانت تتعرض الأقليات الدينية في بعض الأحيان إلى الشدة والقسوة. ومع ذلك كان وضع غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي أكثر سهولة وتسامحاً من وضع غير النصارى تحت الحكم النصراني في أوروبا[(٣)]. كما أن نزعة التفريق بين اليهود والنصارى كانت بارزة في العالم النصراني في حين أنها لم تكن مؤكدة الشيء ذاته في العالم الإسلامي[(٤)].

وكثيراً ما كان أسباب تلك القيود المتشددة الاستفزازات التي كان يثيرها الموظفين الذميين في نفوس المسلمين عن طريق التسلط عليهم ومحاولة إبعادهم عن الوظائف والدس عليهم. بالإضافة إلى تمتعهم بترف الحياة واستخدامهم الخدم والمماليك ولباس الثياب الفاخرة والركوبات الرائعة مما يثير أحقاد الرعية وغضب الفقهاء. الشيء الذي كان يدعوهم بمطالبة الخلفاء بإيقاف مثل تلك التجاوزات. كما يبدو من خلال القيود الصادرة ضد الذميين أنهم كانوا يتمتعون بكافة امتيازات أفراد المجتمع الإسلامي. وأن مجرد تجديد المراسيم لهو الدليل القاطع على عدم التزام أصحابها بتلك القيود وأن الالتزام بها كان وقتياً يخف تدريجياً حتى ينسى أمرها.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٢) عادت القيود مرة أخرى وبشكل جدي أيام الخليفة القائم بأمر الله ٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م في عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م. انظر: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٩.

(3) Lewis, Bernard, The Jews of Islam, London: Routledge and Kagan Paul, 1981, P. 62

(4) Hirschler, The Social Isolation, P. 74

المكانة الاجتماعية والعلمية لأهل الذمة:

كان لقدرات بعض رجالاتهم العقلية ونبوغهم العلمي أن صار لهم مكانه مرموقة داخل المجتمع، فبرع بعضهم في الطب والصيدلة، وبعضهم في الموسيقى والحساب والهندسة، والفلك وبعضهم اعتنى بالترجمه والنقل وتدوين التاريخ والأدب. ومن الواضح ان تلك العلوم لا تخلو من أهمية في حياة المجتمعات مما رفعهم في نظر الخاصة والعامة. وارتحل كثير منهم إلى بغداد واتصلوا بالخلفاء ونالوا أجل المراتب واعلى المنازل مما انعكس اثره على طوائفهم في أنحاء البلاد.

فعندما أصدر الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩١هـ/٨٠٧م أوامره بإلزام أهل الذمة بلبس الغيار في البلاد وفي مدينة السلام[١]. دخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع بطيلسان مصبوغ فأنكر ذلك عليه فقال له أنا أحد من أهل الذمة ولا يجوز أن أخالف زيهم فاستحسن قوله ورفع ذلك عن النصارى في البلاد[٢].

ومن أشهر هؤلاء العلماء:

حكم بن أبي الحكم الدمشقي وكان والده أبو الحكم من أطباء الخلفاء الأمويين. وكان حكم يلحق بأبيه في معرفته بالمداواة والأعمال الطبية، أقام بدمشق وعمر طويلاً وتوفى فيها سنة ٢١٠هـ/٨٧٥م، وكان عبد الله بن طاهر يومها مقيماً بدمشق[٣].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص٣٣٤. الأزدي، تاريخ الموصل ص٣١٠، ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣٤٨. ابن كثير، البداية، ج١٠، ص٢٠٦. ماري بن سليمان، أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص٧٣. Runciman, The Historic Role, P. 9، Shorter Ency… of Islam, P. 441

(٢) ماري بن سليمان، أخبار فطاركة كرسي المشرق، ص٧٣.

جبريل بن بختيشوع بن جورجس. طبيب من النصارى النساطرة من جند سابور كان مشهوراً بالفضل جيد التصرف بالمداواة حظياً عند الخلفاء وحصل على الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء. كانت مدة خدمته للرشيد ٢٣ سنة توفي في خلافة المأمون. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٨٧، ١٩٨.

(٣) القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف، (ت ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء، عنى بتصحيحه محمد أمين الكتبي، بمقابلته على النسخة المطبوعة في ليبسك وتطبيقه على النسخ الثلاث الخطية المحفوظة في دار الكتب الخديوية بمصر. مصر، مطبعة السعادة، ص١٢٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٦. أرسل المأمون عبد الله بن طاهر إلى بلاد الشام للقضاء على ثورة نصر بن شبث وفي سنة ٢٠٩هـ/٨٧٤م تمكن من إلقاء القبض عليه وأرسله إلى المأمون وفي سنة ٢١٠هـ/٨٧٥م سار عبد الله بن طاهر من الشام إلى مصر بسبب خروج واليها عن الطاعة. ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٧٣، ٤٧٨.

كما برز ابنه عيسى بن حكم المعروف بمسيح في معالجة الحبالى والأمهات المرضعات والأطفال. نشأ في بغداد واشتهر أيام هارون الرشيد، وكان يتنقل ما بين دمشق وبغداد قال يوسف بن إبراهيم مولى إبراهيم بن الخليفة المهدي العباسي أنه نزل على عيسى بن حكم في منزله بدمشق سنة ٢٢٥هـ/٨٣٩م وقد داواه من نزلة صعبة ألمت به أي أنه كان حياً في هذا العام(١). وكان الحفيد أكثر افراد هذه العائلة شهرة وأغزرهم علماً في مهارته الطبية(٢).

ومن أهم آثاره كناش كبير في الطب والأعشاب والعقاقير، كتاب منافع الحيوان. ورسالته الكافية (الوافية بمعناها ومحتوياتها) أو الهارونية (نسبة إلى الخليفة هارون الرشيد) أو الرسالة الياقوتية (لمكانتها العلمية وقيمتها الرفيعة الجوهرية) صنفها لهارون الرشيد احتوت على ٤٥ باباً(٣). وهي من أهم كتبه وتعتبر الأولى في العربية بمعناها الدقيق والشامل، فالرسالة في جزئين أو مقالتين تشتمل على مواضيع أساسية في التعريف الطبي وفلسفة المهنة والعلاقة بين صحة المجتمع والرعاية البيئية والإهتمام بالكيمياء الطبية ومفردات الأدوية والأغذية النافعة بصحة الإنسان وثم تنتهي في الجزء الثاني بالمستحضرات الصيدلانية والقوانين المرعية في التراكيب العلاجية (الأقراباذين أو دستور الأدوية) (٤) .

---

(١) القفطي، إخبار العلماء، ص١٦٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٧-١٧٨. النديم، الفهرست، ص٣٥٥.

(٢) الحمارنة، سامي خلف، الطبيب عيسى بن الحكم الدمشقي ورسالته الهارونية، المؤتمر الدولي الخامس لبلاد الشام، ١٩٩٠، ص٢.

(٣) القفطي، إخبار العلماء، ص١٦٥. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٨. بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، مصر، دار المعارف، ١٩٧٥،ج٤، ص٢٦٧. حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٥، مج٢، ص١٧٧. قنواتي، المسيحية والحضارة الإسلامية، ص١٤٩. الحمارنة، الطبيب عيسى ، ص٢

(٤)الحمارنة، المصدر نفسه، ص٥

حبيش بن الحسن الدمشقي الملقب حبيش الأعسم وهو ابن أخت حنين بن اسحق. وكان يسلك مسلك حنين في نقله وفي كلامه وفي أحواله إلا أنه يقصر عنه[١].

وكان يجيد النقل من السريانية إلى العربية، وكان حنين يقدمه ويعظمه ويصفه ويرضى نقله[٢]. وقد ذكره في بعض المواضع أن حبيشاً ذكي مطبوع على الفهم غير أنه ليس له اجتهاداً بحسب ذكائه بل فيه تهاون وإن كان ذكاؤه مفرطاً وذهنه ثاقباً[٣]. قال عنه البيهقي كان حبيش من الأطباء المتقدمين والمهندسين وله تصانيف كثيرة في الطب وكان مصيباً في العلاجات[٤].

وحبيش هو الذي أكمل كتاب مسائل حنين في الطب الذي وضعه للمتعلمين وجعله مدخلاً لهذه الصناعة، وله من الكتب، كتاب إصلاح الأدوية المسهلة، وكتاب الأدوية المفردة، وكتاب الأغذية، وكتاب في الاستسقاء، مقالة في النبض على جهة التقسيم[٥]. ذكره بروكلمان وقال أنه عاش في بلاط المتوكل وخلفائه حتى نهاية القرن الثالث الهجري وكان لا يتيسر دائماً التمييز على وجه قاطع بين نقوله ونقول خاله وكان يعاون خاله كثيراً في النقل[٦].

قسطا أو قسطوس بن لوقا البعلبكي، اشتهر بفضله ونبله وتقدمه في الطب وكان بارعاً في علوم أخرى منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى،وكان فصيحاً في اللغة اليونانية،

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٧٦، ٢٧٩.

حنين بن اسحق العبادي ويكنى أبو زيد والعباد نصارى عرب من الحيرة، كان فاضلاً في صناعة الطب، فصيحاً في اللغة السريانية واليونانية والعربية. كان المأمون يعطيه وزن ما يترجمه ذهباً. اختلف في تاريخ وفاته فابن جلجل ذكر أنه توفي في أيام المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م وجاء في الفهرست أنه توفي سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م. أما ابن أبي أصيبعة فقد ذكر أنه مات في زمان المعتمد على الله سنة ٢٦٤هـ/٨٧٧م، ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، (ألفه سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م) طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥، ص٧٦. النديم، الفهرست، ص٣٥٣، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٦٣.

(٢) النديم، الفهرست، ص٣٥٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٦٣.

(٤) البيهقي، ظهير الدين، (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م)، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كردعلي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٦، ص١٩

(٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٦٣.

(٦) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص١١٧.

جيد العبارة بالعربية فبرع في الترجمة والنقول اليونانية والسريانية إلى العربية كما صحح نقولا كثيرة[١].

ويذكر النديم بأنه كان يجب أن يقدم على حنين لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب ولكن بعض الإخوان سئل أن يقدم حنين عليه وكلا الرجلين فاضل[٢]. أجاب أبا عيسى بن المنجم على رسالته في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعمل كتاب الفردوس في التاريخ[٣].

وله من الكتب سوى ما نقل وفسر وشرح. كتاب الدم، كتاب البلغم، كتاب المرة الصفراء، وكتاب المرة السوداء، وكتاب في أوجاع النقرس، كتاب في الروائح وعللها. كتاب في أحوال الباه وأسبابه، كتاب علل الشعر، رسالة في الخضاب كتاب في الخدر وعلاجه، كتاب في الاستدلال بالنظر إلى أصناف البول، كتاب الفصد ، كتاب المروحة وأسباب الريح، كتاب الموت فجأة[٤]، وكتاب جامع في الدخول إلى علم الطب ألفه إلى إبراهيم ابن المدبر [٥]. كتاب في النبيذ وشربه في الولائم، كتاب في السهر، كتاب في العطش كتاب في الأغذية على طريق القوانين الكلية، كتاب في النبض ومعرفة الحميات، مختصر كتاب في الكبد وخلقتها وما يعرف فيها من الأمراض، كتاب في مراتب قراءة الكتب الطبية، كتاب في تدبير الأبدان في سفر الحج ألفه لأبي محمد الحسن بن مخلد، كتاب في دفع السموم[٦].

وألف كتاباً في الهندسة مثل كتاب في المدخل إلى علم الهندسة عن طريق المسألة والجواب[٧]. وكتاب في شكل الكرة الاسطوانية، وكتاب في الآلة التي ترسم عليها الجوامع ومنها تعمل النتائج[٨].

---

(١) النديم، الفهرست، ص٣٥٣، القفطي، إخبار العلماء، ص١٧٣. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٢٩.

(٢) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣.

(٣) القفطي، المصدر السابق، ص١٧٣. أبو عيسى بن المنجم، هو أحمد بن علي بن يحيى أسلم جده يحيى في أيام المأمون وله كتاب تاريخ سني العالم. النديم، الفهرست، ص١٦١.

(٤) النديم، المصدر السابق ، ص٣٥٣، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٢٩.

(٥) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠، بروكلمان، تاريخ الأدب، ج٤، ص٩٧.

(٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠. أبو محمد الحسن بن مخلد: أبو محمد الكاتب كان يتولى ديوان الضياع للمتوكل استوزره المعتمد سنة ٢٦٣هـ/٨٧٦م، وتولاها أكثر من مرة وتوفي سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م. ابن طباطبا، الفخري، ص٢٥٠. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١٣، ص٣٩٠-٣٩٢.

(٧) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ، ص٣٣٠.

ومن أشهر مؤلفاته في الفلك، كتاب الهيئة وتركيب الأفلاك[١]. وكتاب في العمل بالكرة الكبيرة النجومية ألفه إلى وزير الخليفة المعتمد أبو صقر إسماعيل بن بلبل[٢]. وكتاب إلى علم النجوم[٣]. ومن كتبه في الفلسفة كتاب في آداب الفلاسفة[٤]، وكتاب الفرق بين النفس والروح[٥]، وكتاب في الحيوان الناطق، مسائل في الحدود على رأي الفلاسفة[٦]. أما في المنطق فقد ألف كتاب الرمز إلى المنطق[٧]، وكتاب في عبارة كتب المنطق[٨]. ومن أهم كتبه في الرياضيات كتاب رسالته في استخراج مسائل عدديات من المقالة الثالثة لإقليدس، تفسير ثلاث مقالات ونصف من كتاب ذيوفنطس في المسائل العددية[٩]. وفي الجبر، كتاب في حساب التلاقي على جهة الجبر والمقابلة، كتاب ترجمه ذيوفنطس في الجبر والمقابلة[١٠]. وكتب في الأوزان والمكاييل، كتاب في الأوزان والمكاييل، وكتاب في القرسطون (ميزان للذهب) [١١]. وكتاب المرايا المحرقة كتاب العلة في اسوداد الحبش وغيرهم. وكتاب أيام البحران في الأمراض الحادة[١٢].

---

(١) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٠. بروكلمان، المصدر نفسه، ج٤، ص٩٧. أبو صقر إسماعيل بن بلبل الكاتب الذي جمع له السيف والقلم استوزره الموفق لأخيه المعتضد سنة (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م)، الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص٥٤٤. ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٥٢.

(٣) النديم، الفهرست، ص٣٥٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق ص٣٣٠.

(٥) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص٧٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأبناء، ص٣٣٠.

(٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٧) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٨) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٩) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣.

(١٠) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٥٣. ذوفنطس من العلماء الاسكندرانيين ظهر عام ٢٥٠م. حميدان، أعلام الحضارة، مج٢، ص٢٠٧.

(١١) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣. القفطي، أخبار العلماء، ص١٧٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(١٢) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣. القفطي، المصدر السابق، ص١٧٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠. ايام البحران: إذا كانت المصارعة بين الطبيعة والمرض وكانت الغلبة للطبيعة دفعت ذلك المرض بإسهال أو بقيء أو بعرق أو برعاف أو تورم أو بول فيكون بذلك سلامة العليل. ويكون ذلك بحراناً محموداً وإن كانت الغلبة والقهر للمرض تلف العليل. حميدان، اعلام الحضارة العربية، مج١، ص٢٠٩

أما أهم الكتب التي نقلها من اليونانية إلى العربية فهي:

فهرس مصنفات جالينوس، وكتاب الأصول لإقليدس، كتاب أصول الهندسة لأفلاطون، وكتاب الفلاحة اليونانية او الرومية ، نقله إلى العربية عن ترجمة سريانية وضعها سرجيوس بن إلياس هليا الرومي، كتاب تحرير المساكن لثاوذوسيوس. تحرير كتاب الأكر لثاوذوسيوس عن الكتب المتوسطة بين المجسطي وأصول الهندسة. تحرير كتاب أبسقلاوس في المطالع (فلك)، كتاب لأرسطو عن النوم والأحلام وطول العمر. كتاب لفلوطرخس عن آراء الفلاسفة في الطبيعيات ومزاولة الفضيلة(١).

أما عن تاريخ وفاته فلم تذكر المصادر سوى أنه انتقل إلى أرمينية وتوفي عند بعض ملوكها ودفن هناك وبني على قبره قبة وأكرم قبره كإكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع(٢).

أما ابن جلجل فقد اكتفى بالقول بأنه كان في أيام المقتدر(٣). ويذكر بروكلمان أنه توفي في حدود سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م(٤).

أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي أحد النقلة المجودين من النصارى النساطرة، رياضي وطبيب نقل كتباً كثيرة إلى العربية من كتب الطب وغيرها، وكان منقطعاً إلى علي بن عيسى(٥). وقال ثابت بن سنان أن أبا الحسن علي بن عيسى الوزير في سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م اتخذ البيمارستان بالحربية (محله ببغداد) وأنفق عليه من ماله وقلده أبا عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي متطببه مع سائر البيمارستانات في بغداد ومكة والمدينة(٦).

---

(١) النديم، الفهرست، ص٣٥٣، ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء، ص٣٣٠. حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، مج٢، ص٢٠٣-٢٠٥. من الجدير بالذكر أن المصادر القديمة التي ترجمت لقسطا بن لوقا لم تذكر كتاب الفلاحة الرومية من ضمن كتب قسطا بن لوقا.

(٢) النديم، المصدر السابق، ص٣٥٣. القفطي، إخبار العلماء، ص١٧٣. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٣٠.

(٣) ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص٧٦.

(٤) بروكلمان، تاريخ الأدب، ج٤، ص٩٧.

(٥) النديم، المصدر السابق ، ص٣٥٦. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣١٦. قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص٢٤١.

(٦) ابن ابي أصيبعة، المصدر السابق ، ص٣١٦. قنواتي، المسيحية والحضارة العربية ، ص٢٤١.

ولأبي عثمان الدمشقي من الكتب مسائل جمعها من كتاب جالينوس في الأخلاق ومقالة في النبض. وهي مشجرة عبارة عن جوامع لكتاب النبض الصغير لجالينوس[١]. مقالة جالينوس في تشريح الأعضاء للمتعلمين، ترجمة كتاب البول لمغنس الإسكندراني (الحمصي). ترجمة ايساغوجي (لفرفوريوس) والمقالات السبع الأولى من كتاب طوبيقا (الجدل) لأرسطو. ترجمة (القول في مبادئ الكل على رأي أرسطوطاليس) للإسكندر الأفرودسي[٢].

أما عيسى الرقي، فكان طبيباً مشهوراً في أيامه عارفاً بالصناعة الطبية حق معرفتها. وله أعمال فاضلة ومعالجات بديعة وكان في خدمة سيف الدولة بن حمدان ومن جملة أطبائه، قال عبيد الله بن جبرائيل حدثني من أثق بقوله: أن سيف الدولة كان إذا أكل الطعام حضر على مائدته أربعة وعشرون طبيباً وقال: وكان فيهم من يأخذ رزقين لأجل تعاطيه علمين ومن يأخذ ثلاثة لتعاطيه ثلاثة علوم، وكان من جملتهم عيسى الرقي المعروف بالتفليسي (النفيسي) وكان مليح الطريقة، وله كتب في المذهب وغيرها وكان ينقل من السرياني إلى العربي. ويأخذ أربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب علمين آخرين[٣].

كما قدم بغداد في صدر الدولة العباسية جماعة من علماء الصابئة نزحت إليها من حران والرقة وكان ممن قدمها آل زهرون وانسباؤهم آل قرة. واتصلوا بالخلفاء وعلت مراتبهم وأدخلو رئاسة الصابئة إلى بغداد وثبتت أحوالهم. ومن أشهر هؤلاء:

ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت بن كرايا بن إبراهيم الحراني الصابئ، موسوعي برع في الرياضيات والطب والفلك والمنطق والطبيعة وصنف بالموسيقى وكان ثابت يعمل في مستهل حياته صيرفياً في حران وغادرها إلى بغداد واستصحبه محمد بن موسى معه إلى بلاد الروم، لأنه رآه فصيحاً وقيل أنه قرأ على محمد بن موسى، فتعلم في داره فوجب حقه عليه فوصله بالمعتضد، وأدخله في جملة منجمية[٤].

---

(١) ابن ابي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣١٦.

(٢) حميدان، أعلام الحضارة العربية، مج١، ص٤٥٨-٤٥٩.

(٣) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٦٠٩-٦١٠. أما القفطي فقد ذكر أنه كان يأخذ ثلاثة أرزاق رزقاً للنقل من السرياني إلى العربي ورزقين آخرين بسبب علمين آخرين. القفطي، أخبار العلماء، ص١٦٦.

عبيد الله بن جبرائيل، هو ابو سعيد بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل بن بختشيوع بن جروجس بن جبرائيل، كان فاضلاً في صناعة الطب من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها وأقام بميافارقين توفي سنة نيف وخمسين واربعمائة للهجرة.، ابن ابي اصيبعه، المصدر السابق ، ص ٢١٤.

(٤) النديم، الفهرست، ص٣٣١. القفطي،المصدر السابق، ص٨١. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٥.

وذكر ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة (ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م) في تاريخه أن علاقة ثابت بالخليفة المعتضد تعود إلى أيام سجنه عندما غضب عليه والده وكان يدخل إليه كل يوم يحادثه ويسليه ويعرفه بأحوال الفلاسفة وأمر الهندسة والنجوم فأعجب به وشغف به فلما خرج من السجن وتقلد الخلافة قربه إليه وأقطعه ضياعا جليلة. وكان يجلسه بين يديه كثيرا بحضرة الخاصة والعامة ويكنيه بأبي الحسن[١].

وروى ابن أبي أصيبعة عن أبي اسحق الصابئ الكاتب (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) أن ثابتا كان يتمشى مع الخليفة في بستان قصره وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يتماشيان ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة ففزع ثابت لأن الخليفة كان مهيباً جداً وقال له يا أبا الحسن سهوت ووضعت يدي في يدك واستندت عليها وليس هكذا يكون فإن العلماء يعلون ولا يُعلون[٢].

من أشهر مؤلفاته في الطب: كناش في الطب اسمه الذخيرة وهو كتاب نادر في الطب[٣]. كما أورد ابن أبي أصيبعة أنه ألفه أو جمعه لابنه سنان بن ثابت[٤] بينما ينفي القفطي في أخبار العلماء أن يكون لثابت بن قرة، ويذكر على لسان ثابت بن سنان قوله بأنه ليس ذلك لثابت ولا وجدته في كتبه ولا دساتيره[٥].

ويشتمل هذا الكتاب على ما يحتاج إليه في علم الطب. ويتألف من ٣١ مقالة فيه فصول مختصرة هامة عن أمراض العين[٦].

كتاب في البياض الذي يظهر في البدن كتاب رسالته في الجدري والحصبة، وكتاب في وجع المفاصل النقرس وكتاب رسالة في الحصى المتولد في المثانة، وكتاب جوامعه لكتاب جالينوس في الأدوية المفردة، جوامع كتاب جالينوس في الأدوية كتاب في أجناس ما توزن به الأدوية، كتاب في أجناس ما تنقسم إليه الأدوية[٧] مقالة في الصفرة العارضة للبدن وعدد أصنافها وأسبابها وعلاجها، وكتاب في صفة كون الجنين، كتاب تشريح الرحم لجالينوس، جوامع كتاب

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٩٥. ابن العبري، مختصر الدول، ص١٥٣.

(٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٦. البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص٢٠.

(٣) البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص٢١.

(٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٥) القفطي، إخبار العلماء، ص٨٤.

(٦) حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، مج١، ص٢٠٢.

(٧) النديم، الفهرست، ص٣٣١، القفطي، المصدر السابق، ص٨٣. ابن أبي اصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٨-٣٠٠.

الفصد لجالينوس، كتاب في تدبير الأمراض الحادة، كتاب في المواليد لسبعة أشهر، وكتاب في تشريح الطيور[١]. ومن كتبه في المنطق والفلسفة، اختصار المنطق، جوامع كتاب أنالوطيقا الأولى، كتاب اغاليط السفسطانيين، اختصار كتاب ما بعد الطبيعة[٢].

كما ألف في الرياضيات والهندسة من أهمها كتاب مختصر علم الهندسة رسالته في استخراج المسائل الهندسية. ورسالته في الأعداد[٣]، كتاب في المثلث القائم الزوايا، كتاب في الشكل القطاع، كتاب في التصرف في أشكال القياس، كتاب المربع وقطره، كتاب في قطع الاسطوانة، كتاب في أعمال ومسائل إذا وقع خط مستقيم على خطين ومقالة أخرى له في ذلك، وكتاب في قطع المخروط الكافي، وكتاب في مساحة الأجسام الكافية، وكتاب في صفة استواء الوزن واختلافه، اشكال له في الحيل ووضع قاعدة عامة لإيجاد الأعداد المتحابة [٤].

ألف كتاباً في الفلك مثل كتاب حساب الأهلة وكتاب رسالته في سنة الشمس. كتاب إبطاء الحركة في فلك البروج[٥]، وكتاب رؤية الأهلة في الجداول. كتاب فيما يظهر في القمر من آثار الكسوف، كتاب في علة كسوف الشمس والقمر، كتاب في طبائع الكواكب، كتاب في محنة حساب النجوم، كتاب في تركيب الأفلاك وخلقتها وعددها وعدد حركات الجهات لها والكواكب فيها ومبلغ مسيرها والجهات التي تتحرك إليها، كتاب في الأنواء، رسالة الى بعض إخوانه في جواب ما سأله عنه من أمور الموسيقى. كتاب في آلة الزمر.

وكما وجد لثابت بن قرة مؤلفات بالسريانية فيما يتعلق بمذهبه، رسالة في الرسوم والفروض والسنين، رسالة في تكفين الموتى ودفنهم، رسالة في اعتقاد الصابئين، رسالة في الطهارة والنجاسة، رسالة في أوقات العبادات، رسالة فيما يصلح من الحيوان للضحايا وما لا يصلح، رسالة في ترتيب القراءة في الصلاة، وصلوات الابتهال إلى الله عز وجل[٦].

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٩٨-٣٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩٩. حميدان، أعلام الحضارة، مج١، ص٢٠٩.

(٣) النديم، الفهرست، ص٣٣١. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٠٠

(٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩-٣٠٠. الأعداد المتحابة يكون العددان متحابين إذا كان مجموع المضروبات (العوامل والأجزاء) في أحدهما مساوياً للعدد الأخر نفسه وكان مجموع المضروبات في العدد الأخر مساوياً للعدد الأول نفسه مثل العددين ٢٢٠، ٢٨٤. حميدان، المرجع السابق، مج١، ص١٩١.

(٥) النديم، المصدر السابق، ص٣٣١. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩.

(٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٢٩٩-٣٠٠، ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٤٨. حميدان، أعلام الحضارة العربية، مج

توفي أبو الحسن ثابت بن قرة سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م رثاه أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى بن المنجم بهذه الأبيات[١]: (الطويل)

نعينا العلوم الفلسفيات كلها   خبا نورها إذ قيل قد مات ثابت

وأصبح أهلوها حيارى لفقده   وزال به ركن من العلم ثابت

سنان بن ثابت بن قرة أبو سعيد كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم وانشغاله بها وتمهره في صناعة الطب. وله قوة بالغة في علم الهيئة. وكان في خدمة المقتدر بالله والقاهر. وخدم أيضاً بصناعة الطب الخليفة الراضي[٢]. وقال النديم في كتابه الفهرست أن القاهر بالله أراد سنان بن ثابت بن قرة على الإسلام فهرب ثم أسلم وخاف من القاهر فمضى إلى خراسان وعاد وتوفي ببغداد مسلماً. وكانت وفاته سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م[٣]. تقلد أمر البيمارستانات في بغداد واختاره المقتدر سنة ٣١٩هـ/٩٣١م لاختيار كل من يريد ممارسة مهنة الطب. فلم يعد في قدرة أحد مزاولة هذه المهنة دون تفويض منه[٤].

من أهم آثاره، رسالة في الأشكال ذوات الخطوط المستقيمة التي تقع في الدائرة وعليها استخراجه لكثير من المسائل الهندسية. إصلاح كتاب الأصول الهندسية، إصلاح وتهذيب لشيء نقله من كتاب يوسف القس من السرياني إلى العربي. رسالة في الاستواء، رسالة في النجوم. رسالة إلى سهيل (كوكب أحمر في الأفق دائم الخفقان والاضطراب)، رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة. رسالة في تاريخ ملوك السريانية، رسالة في شرح مذهب الصابئة، رسالة في أخبار آبائه وأجداده وسلفه، رسالة في كتاب السياسة لأفلاطون[٥].

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٢٩٧.

أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم. كان متكلماً معتزلي المذهب نادم الموفق ومن بعده من الخلفاء، واختص بمنادمة المكتفي ت ٣٠٠هـ/٩١٢م النديم، المصدر السابق، ص١٦٠. ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج٦، ص١٩٨ وما بعدها.

(٢) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٠٠.

(٣) النديم، الفهرست، ص٣٥٩، القفطي، إخبار العلماء، ص١٣٠. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص١٧٩.

(٤) القفطي، المصدر السابق، ص١٣٠. ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٠٢. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٥٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص١٢٦. ترتون، أهل الذمة، ص١٨٤.

(٥) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٠٤. حميدان، اعلام الحضارة، مج١، ص٤٦٧.

ومن أطباء الصابئة الآخرين أبو اسحق إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة كان كاملاً في العلوم الحكيمة وفاضلاً في الصناعة الطبية توفي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م(١).

وأبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة. كان طبيباً فاضلاً يلحق بأبيه بصناعة الطب. خدم بصناعة الطب المتقي والمكتفي والمطيع. تقلد أمر البيمارستان في بغداد سنة ٣١٣هـ ولثابت بن سنان بن قرة من الكتب كتاب التاريخ ذكر فيه الوقائع والحوادث التي جرت في زمانه، وذلك من سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م إلى حين وفاته وكانت وفاة ثابت في ٣٦٣هـ/٩٧٣م(٢). وكان بارعاً في الطب عالماً بأصوله فكاكاً للكتب(٣).

ومن آل زهرون أبو اسحق إبراهيم بن زهرون بن الحراني كان طبيباً مشهوراً وافر العلم في صناعة الطب جيد الأعمال حسن المعاملة توفي سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م(٤). وأبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون، كان طبيباً فاضلاً كثير الدراية. وافر العلم، بارعاً في الصناعة وموفقاً في المعالجة ومطلعاً على أسرار الطب(٥). وكان مع ذلك ضنيناً بما يحسن وكانت وفاته سنة ٣٦٥هـ/٩٧٥م وله من الكتب إصلاح مقالات من كناش يوحنا بن سرابيون، جوابات مسائل سئل عنها (٦).

وإبراهيم بن هلال بن زهرون أبو إسحق الصابي، قيل عنه أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل والاشتمال على جهات الفضائل تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م في عهد معز الدولة بن بويه ٣٣٤-٣٥٦هـ/٩٤٥-٩٦٦م. ثم في عهد ابنه عز الدولة بختيار ٣٥٦-٣٦٧هـ/٩٦٦-٩٧٧م وأثار كراهة عضد الدولة ٣٦٣-٣٧٢هـ/٩٦٢-٩٧١م برسائله اللاذعة على لسان بختيار فحقد عليه وأعتقله بعد أن استولى على السلطنة بالعراق ثم أطلقة في سنة ٣٧١هـ/٩٨١م بشفاعة بعض اصدقائه وأمره أن يضع كتاباً في أخبار بني بويه سماه التاجي ورفع إلى عضد الدولة أن صديقاً للصابئ دخل عليه يوماً فرآه مشغولاً في الكتاب فسأله عما يعمله فقال أباطيل أنمقها وأكاذيب الفقها فأمر عضد الدولة بإلقائه تحت أرجل الفيلة فشفع له فأمر عضد الدولة بإلقائه في

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٤-٣٠٧.

(٣) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص٨٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٠٧.

(٥) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣٠٧.

(٦) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص٣١١. فيما يذكر القفطي أن وفاته كانت سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م. القفطي، إخبار العلماء، ص٧٨.

السجن والقبض على اشيائه واستئصال أمواله فبقي في الإعتقال بضعة سنين الا أنه تخلص في آخر أيام عضد الدولة إلى إن رزحت حاله وتهتك ستره[١] وكان حسن العشرة للمسلمين عفيفاً في مذهبه وله كتاب أخبار أهله. وكتاب ديوان شعره، توفي سنة ٣٨٤هـ/٩٩٤م، رثاه الشريف الرضي في قصيدته المشهورة الدالية فعاتبه الناس لكونه شريفاً يرثي صابئاً فقال لهم: إنما رثيت فضله، قال في رثائه[٢]: (الكامل)

أعلمت من حملوا على الأعواد   أرأيت كيف خبا ضياء النادي

وقال أيضاً: [٣] (الطويل)

نزلنا إليه عن ظهور جيادنا   نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا

أما محمد بن جابر بن سنان الرقي المعروف بالبتاني نسبة إلى بتان حيث ولد في سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م وبالرقي نسبة إلى الرقة حيث كان مرصده. وهو من أسرة الصابئة إلا أنه اعتنق الإسلام وكان يعيش أكثر أوقاته بالرقة. يقول عنه النديم في كتابه الفهرست أنه ابتدا بالرصد في عام ٢٦٤هـ/٨٧٧م واستمر حتى عام ٣٠٦هـ/٩١٨م وكان يتنقل أثناء ذلك بين الرقة وأنطاكية من أجل أعمال الرصد[٤]. ذكره البيهقي في كتابه بأنه صاحب الرصد المشهور بعد أيام المامون وكان حكيماً عارفاً بتفاصيل أجزاء علوم الحكمة وقد أنفق أموالاً في الرصد[٥].

وله من الكتب كتاب الزيج ومنه نسختان والثانية أجود من الأولى. أثبت فيه الكواكب الثابتة لسنة ٢٩٩هـ/٩١١م. كتاب معرفة مطامع البروج فيما بين أرباع الفلك، رسالة في تحقيق

---

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك الثعالبي، (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد قميحة. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م، ج٢، ص٢٩١. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١، ص١٣٠-١٣١.

(٢) الشريف الرضي، محمد بن أبي الحسين بن موسى بن محمد (ت ٤٠٦هـ/١٠١٥م)، ديوان الشريف الرضي، شرح وتعليق محمود حلاوى، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٩م، ج١، ص٤٢٥ وما بعدها.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩٦ وما بعدها.

(٤) النديم، الفهرست، ص٣٣٨. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص٢١٣. بتان، من نواحي حران. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٣٤.

(٥) البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص٢٩-٣٠.

أقدار الاتصالات[١]. توفي عام ٣١٧هـ/٩٢٧م. بقصر الجص غير بعيد من سامراء عند خرج في ظلامات لبني الزيات من الرقة إلى بغداد[٢].

يتضح مما سبق مدى الحرية التي كانت معطاة لاهل الذمة في العصر العباسي وأنه لم يغلق أمامهم أي مجال من مجالات الحياه، فنال مثقفوهم مكانه مرموقة داخل المجتمع. فتولوا المناصب الإدارية والقيادية كرئيس الأطباء أو رئيس المنجمين فالمناصب لم يكن يتولاها إلا من كان مستحقاً لها دون النظر إلى دينه وطائفته

(١) النديم، الفهرست، ص٣٣٨.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣٨. ابن العبري ، مختصر الدول، ص١٥٨. بروكلمان، المرجع السابق، ج٤، ص٢١٣.

الفصل الرابع

النشاط الاقتصادي لأهل الذمة في بلاد الشام

في العصر العباسي

النشاط الزراعي.

النشاط الحرفي.

النشاط التجاري.

النشاط الزراعي

مارس أهل الذمة في بلاد الشام المجالات الاقتصادية كافة ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يمنعهم من ممارسة أي عمل يريدونه سوى أنهم منعوا من بيع الخمور والخنازير في أسواق المسلمين أو ادخالها أمصارهم على وجه الشهرة والظهور وإن كان لهم بيعها في أمصارهم وقراهم أو في موضع ليس من أمصار المسلمين ولو كان فيه مسلمون(١).

وقد قسم أبو يوسف أهل الذمة بالنسبة إلى أعمالهم الاقتصادية إلى ثلاث طبقات، أغنياء ووسط وفقراء فقال الموسرون وهم الصيارفة والبزازون وأصحاب الضياع والتجار والأطباء. ومتوسطوا الحال وهم الصناع والتجار الصغار والفقراء وهم العاملون بأيديهم كالخياطين والأساكفة والصباغين والخرازين والحراثين العاملين بأيديهم(٢).

من خلال هذا النص يجد القارئ أن أهل الذمة مارسوا النشاطات الاقتصادية الثلاث: الزراعية والحرفية والتجارية.

فقد اتسمت الحياة في الريف في بلاد الشام في مجال الزراعة بالطابع النصراني وقدرت المواسم والفصول بأعياد النصارى.إذ يقول المقدسي عند تحدثه عن إقليم الشام "ومن أعياد النصارى الذي يتعارفها المسلمون ويقدرون بها الفصول الفصح وقت النيروز والعنصره وقت الحر والميلاد وقت البرد وعيد بربارة وقت الأمطار"(٣). ومن أمثال الناس أيضاً "إذا جاء عيد بربارة فليتخذ البناء زماره وإذا جاء القلندس فتدفئ واحتبس وعيد صليب وقت قطاف

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧. الشيباني، محمد بن الحسن. (ت ١٨٩هـ/٨٠٤ م) شرح كتاب السير الكبير،إملاء محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة مصر، ج١، ص٥٧-٥٨. زيدان، عبد الكريم، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، بغداد، ط٢، ١٩٧٦، ج١، ص١١٠.

(٢) أبو يوسف، المصدر السابق، ص١٢٣-١٢٤، ١٢٢.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٢.

عيد الفصح: وهو العيد الكبير لدى النصارى، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد صلبه بثلاثة أيام وأقام في الأرض أربعين يوماً ثم صعد إلى السماء ويعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٤. المقريزي، الخطط، ج١، ص٧٣٣-٧٣٤.

النيروز: وهو اليوم الجديد وأهل الشام يحتفلون به في أول سنتهم ويصادف في اليوم الأول من كانون الثاني ويسمونه القلنداس. المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٣٨٨. البيروني، الآثار الباقية، ص٢٩٣. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٨.

عيد العنصرة: ويسمى عيد الخميس ويصادف في ٢٠ نيسان. القلقشندي، المصدر السابق، ص٤٥٥.

عيد الميلاد: وهو اليوم الذي ولد فيه المسيح ويصادف في ٢٤ كانون أول. القلقشندي، المصدر السابق، ص٤٥٥.

بربارة: ينسب إلى القديسة بربارة ويصادف عيدها في أول الشتاء في ٤ كانون أول. صالح بن يحيى، صالح بن الحسين (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧، ص٩.

العنب".[١]

وعيد لدّ وقت الزرع وشهورهم رومية.."[٢]. ومن أمثالهم أيضاً غطستم صيفتم ونورزتم شتيتم" لأنه بعد الغطاس يحمي الوقت وبعد النيروز يدخل فصل الشتاء[٣]. كما كان لهم غلبة واضحة على الريف إذ كانت غالبية سكان بعض القرى والنواحي من النصارى[٤].

كما أشار الرحالة والجغرافيون إلى كثرة الأراضي الزراعية والبساتين التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة، ومن أمثلة ذلك في بلاد الشام، دير الطور أو التجلي وهو بين طبرية واللجون مشرف على الغور ومرج اللجون وفيه عين ماء تنبع بماء غزير كثير... وحوله كروم يعتصرونها والشراب عندهم كثير[٥].

دير مران بالقرب من دمشق على تل مشرف من مزارع الزعفران ورياض حسنة[٦]. ودير سمعان بنواحي دمشق في موضع نزه وبساتين محدقة به[٧]. ودير فطرس ودير بولس وهما بظاهر دمشق في ناحية الغوطة ولهما البساتين الكثيرة والأشجار والمياه[٨]. ودير الزعفران على الجبل المحاذي لنصيبين كان يزرع فيه الزعفران[٩]. وكانت تكتنفه العيون والبساتين والكروم

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

عيد الصليب: يعملونه احتفالاً باكتشاف الصليب على يد هيلانة زوجة قسطنطين ويصادف في السابع من أيلول. الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٨١. القلقشندي، المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٧. المقريزي، المصدر السابق، ج١، ص٧٣٥. الحميري، محمد بن عبدوس (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤، ص٤٨٣.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٥.

غطستم وتعني عيد الغطاس. وهو اليوم الذي عمد فيه يوحنا المعمدان المسيح عليه السلام أي غسله في نهر الأردن ويصادف في اليوم السابع من كانون الثاني. الدمشقي، نخبة الدهر، ص٢٨١. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٥٥. المقريزي، الخطط، ج١، ص٧٣٥.

(٤) انظر فصل الحياة الاجتماعية، توزع النصارى في بلاد الشام.

(٥) الشابشتي، الديارات، ص٢٠٧. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١٩. العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٧.

(٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٣٣. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق٢، ص٢٨٢. الزيات، أديار دمشق وبرها ، ص٤٣١.

(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١٧.

(٨) الأصبهاني، الديارات ، ص١٢٧. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٥.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥١١.

الزاهية[١]. ودير المصلبة بظاهر مدينة دمشق وهو دير رومي قديم .. محكم الصنعة مونق البقعة في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين[٢]. ودير بلودان بنواحي دمشق بناؤه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم والفواكه والماء الجاري[٣]. دير العذارى بظاهر حلب على نهر قويق فيه أكثر بساتينها[٤]. ودير مارت ماروتا وهو دير صغير بظاهر حلب وله بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران[٥].

ودير كفتون ببلاد طرابلس مبني على جبل وله حوض كبير مملوء من شجر النارنج يحمل نارنجه إلى طرابلس يباع بها ويرتفق بثمنه الرهبان[٦]. ودير اسحق بين حمص وسلمية في موقع نزه وحسن على نهر جار وحوله كروم ومزارع[٧]. ودير ميماس وهو بين دمشق وحمص على نهر ميماس وإليه نسب وهو في رياض حسنة وعليه طواحين رومية[٨]. ودير بونا وهو بجانب غوطة دمشق ليس بكبير ولا رهبانه بكثير ولكنه في رياض مشرفة وأنهار متدفقة[٩]. دير زكي وهو بالرقة على الفرات وهو من أحسن الديارات موقعاً وأنزهها موضعاً وبناحيته من الغزلان والأرانب وما شاكل ذلك ما يصطاد بالجارح من طير الماء والحباري وأصناف الطير فهو جامع لكل ما تريده الملوك والسوقة[١٠]. ودير طور سيناء وهو الجبل الذي تجلى فيه لموسى عليه السلام ... وداخله عين ماء وخارجه عين أخرى .. وله مطابخ وأفران وطاحونتان ومعصرة زيتون ومعمل للخمر من البلح والعنب وآبار تختلف في العمق والقدم وخارج السور حديقة منسقة فيها أنواع الشجر والفواكه[١١].

---

(١) الشابشتي، الديارات، ص٣٨١.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٨.

(٤) ياقوت الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت. ص١٩١.

(٥) العمري، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٢.

(٦) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٥. النارنج: نبات هندي يزرع في المناطق الدافئة وهو من فصيلة الحمضيات شبيه بالاترج ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق مهند، دمشق، د.ن، ١٩٩٥، ج١، ص١٧٧.

(٧) العمري، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٨.

(٨) العمري، المصدر السابق، ج١، ص٣٣٠.

(٩) العمري، المصدر السابق، ج١، ص٣٥١.

(١٠) الشابشتي، الديارات، ص٢١٨.

(١١) المصدر نفسه، ص٣٠٠، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٠.

كما كانت خبراتهم الزراعية وخبرات الأمم السابقة من قبلهم قواعد لمن أتى من بعدهم من الأجيال فألفوا كتباً في الفلاحة ضمنوها تجاربهم ومشاهداتهم ومن أشهر الأمثلة على ذلك كتاب الفلاحة اليونانية للفيلسوف والحكيم قسطوس أو قسطا بن لوقا البعلبكي وكان من النصارى الملكيين من أهالي لبنان عاش في عصر الخليفة المقتدر(١). وكانت أهم مصادر قسطا خبراته وتجاربه العملية وخبرات من سبقوه من العلماء. إذ يورد في كتابه أمثلة كثيرة على ذلك منها قوله: "فوجدت أفضل أوقات الغرس كله في شهر تشرين الثاني في فصل الخريف ولا سيما في البلاد التي في مياهها قلة حتى يستقبل أنداء الشتاء وأمطاره كلها فترسخ(٢). "... ولست أرى أن يكون عمق حفرة أصول الكرم في الأرض الجافة الجلدة غير الندية دون ذراعين وفي الأرض الندية دون ذراع .." (٣). ويقول: "حفظنا عمن كان قبلنا من العلماء أنهم كانوا يستحبون غرس الكرم لأربع ليال تمضي من الشهر القمري .." (٤).

هذا وقد أنتجت أراضيهم الغلات والمحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها بلاد الشام كافة وكان من المزروعات التي اهتم بها أهل الذمة بزراعتها الكروم(٥). فانتشرت زراعة الكروم في أنحاء مختلفة من بلاد الشام فمثلاً كانت مدينة بعلبك غزيرة بالكروم(٦). فيها مزارع وعجائب وهي معدن الأعناب(٧). وجبل بصرى كرومه لا تنسى(٨). ومعرة النعمان مدينة كثيرة الشجر والسعة في التين والفستق وما شاكل ذلك من الكروم والأزبة. وبمنبج من الكروم الأعذاء على وجه الأرض في سائر ضياعها ما يزيد على الكثرة ويحمل أزبتهم إلى حلب وغيرها(٩).

---

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص٣٢٩. ابن العبري، مختصر الدول، ص١٤٩. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٤، ص٩٧.

(٢) قسطوس بن لوقا الرومي (ت في حدود ٣٠٠هـ/٩١٢م) الفلاحة الرومية، ترجمة سرجس ابن هليا الرومي، د.م، د.ن، د.ت. ص٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٥) ليونهارت، راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسورية وفلسطين، تاريخ الرحلة، سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م. ترجمة سليم التكريتي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨، ص٨٣.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٦٩.

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٠.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥١. بصرى: بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة حوران ، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٤١.

(٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٤، ١٦٦.

وبظاهر مدينة الخليل كروم محيطة بها من كل جانب وفيها أنواع الفواكه وأعظمها العنب[١]. وسمي جبل القدس وهو طور زيتا بجبل الخمر لكثرة ما يزرع فيها من الكروم[٢]. واشتد إعجاب المقدسي بأعناب القدس فقال: "عنبها خطير وليس لمعتقتها نظير"[٣]. وعدد أنواعاً من أعنابها كالعينوني والدوري والعاصمي[٤].

وبالقرب من الرملة قرية شهيرة بأعنابها تسمى قرية العنب[٥]. والفراذية قرية كبيرة باللجون وبها معدن الأعناب والكروم[٦]. بيت جالا أهلها من أصحاب الزنار يزرعون الكرمة[٧]. غزة بساحلها البساتين الكثيرة وأجل فاكهتها العنب والتين[٨]. وصيدنايا بلد من أعمال دمشق مشهورة بكثرة الكروم[٩]. كما اشتهر سكان القرى على قمم جبال لبنان وهم من النصارى بزراعة أشجار الكروم ويصنعون منها الخمرة الجيدة[١٠]. وعلى جانبي الطريق بين بيروت ودمشق وعلى قمم الجبال والسهول قرى مليئة بمزارع الكروم[١١].

وبخارج حماة سهل بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجرات الأعناب وفيه المزارع والمحارث[١٢].

---

(١) العليمي الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٨١.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٠٢. العليمي الحنبلي، المصدر السابق، ج٢، ص٦٢.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٨١.

(٥) ناصر خسرو، أبو معين ناصر خسرو القبادياني (توفي في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٩٧٠، ص٥٥.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٢.

(٧) زايد، رحلة دي لابوركير، ص٣٠٨.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٠٢.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٣٨.

(١٠) ليونهارت، رحلة المشرق، ص٥٠.

(١١) زايد، رحلة دي لابوركير، ص٣٢٠.

(١٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣١.

كما اشتهرت منطقة الجزيرة الفراتية بزراعة الكروم فكانت بهية المنظر كثيفة بالكروم والزروع وبشتى أنواع الشجر[١]. كذلك كانت مدن الثغور غنية بزراعة الكروم فمثلاً مدينة سميساط اشتهرت بزراعة الجوز والكروم وسائر الثمار الشتوية والصيفية[٢].

وقد حرص الرهبان أيضاً على زراعة الكروم في بساتين أديرتهم فلا يكاد بستان دير من أديرة النصارى يخلو من أشجار الكروم وذلك لسد حاجاتهم منه سواء للأكل أو تصنيعه خمراً أو زبيباً[٣].

ومن الطبيعي ان يكتسب المزارعون في بيئة زراعية خصبة خبرات تصبح مع الزمن قواعد ثابتة أو متطورة فكان المزارعون يلقحون كرومهم كما تلقح النخل بالطلع الذكر مما يدل على تجربة عملية في تلقيح أشجار العنب. وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل عندما قال مدينة زغر حارة وأهلها يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما تلقح النخل بالطلع الذكر وكما يلقح أهل المغرب تينهم بذكارهم[٤]. كما كان المزارعون يستخرجون من جانب البحر الميت أو من البحر نفسه مادة يسمونها قفر اليهود أو الحمر ويحلون تلك المادة في الزيت فإذا هم قلموا كرومهم عندما تبرز عيون الكرم أخذوا هذا المحلول بحيث يرسمون دائرة على ساق الغصن لمنع الدود من الرقي إلى عيون الكرم[٥]. وظلت عادة تحمير الكروم جارية إلى الآن وهي ما تسمى بالتشبيد[٦]. كما أفرد قسطا بن لوقا أبواباً في كتابه الفلاحة الرومية في ذكر الأرض المناسبة لزراعة الكروم وأوقات غرسه وتقليمه وحفظه من الحشرات والطرق التي تساعد على بقائه غضاً على الشجرة لمدة طويلة فقال: فينبغي أن لا يزرع إلا بالأرض الطيبة العذبة ويستحب غرسه في شهر شباط في الأيام التي يكون فيها القمر زائد النور وظاهر القوة وذلك من الليلة

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٧٤.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٥١.

(٣) الزيات، الديارات النصرانية، ص٣٢٠.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٩.

(٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٨١. الاصطخري، المسالك والممالك، ص٦٤.

قفر اليهود: أو كفر اليهود نسبة إلى موضع بغور أريحا كان يقال له في القديم كفر يهوذا. عباس، إحسان، الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، مج٢ (فلسطين)، ١٩٨٣، ص٣٥١.

(٦) القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، ج٢، ص٤٧٠

الرابعة من الشهر القمري إلى ما يصير منتصفاً في الضوء الانتصاف الأول[١]. وأحسن أوان التقليم من نصف شباط إلى عشر ليالٍ بقين من آذار[٢]. ويجب أن تكون مناجل التقليم مشحوذة[٣]. وإذا غرس في وسط الكرم الجرجير فإنه يسلم من الدود [٤].

ومن المزروعات الأخرى التي اهتم أهل الذمة بزراعتها كبقية المزارعين الآخرين شجرة الزيتون، فأقبلوا على زراعتها والاعتناء بها لما فيها من الفائدة والخير الكثير إذ شجع قسطوس المزارعين على زراعة الزيتون والعناية به والإكثار منه وحسن تعهده والقيام به أكثر من سائر الأشجار لما فيه من الفائدة والمعرفة .. لأن ما عاناه أحد إلا كثر ماله واتسع حاله.إلى جانب ما فيه من الشفاء الكثير لعديد من الأمراض[٥]. فلذلك حرص أهل الذمة على زراعته في أراضيهم، فعلى سبيل المثال، اشتهرت مدينة نابلس بكثرة الزيتون وكانوا يسمونها دمشق الصغرى[٦]. وقال عنها ابن بطوطة بأنها أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق[٧]، وبيت لحم في وهدة جبال كثيفة الأشجار أعني شجر الزيتون والتين والجميز[٨]. وطرابلس فيها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه وضرب الغلات الشيء الكثير[٩]. ولها من الضياع المشهورة المعروفة بالشفيقية والزيتونية والراعبية والحدث واميون وفيها من شجر الزيتون وأنواع الفواكه أكثر ما في غيرها[١٠]. ودير المصلبة بظاهر مدينة دمشق في بحيرة من أشجار الزيتون والكروم وشجر التين[١١]. كما انتشرت زراعة الزيتون في معظم بلاد الشام حتى

---

(١) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٣٥، ٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص٤١.

(٥) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٩٩. ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ج١، ص٣٧

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص١٧٤.

(٧) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق ، مج١، ص٣٦٣.

(٩) الإدريسي، المصدر نفسه ، مج١، ص٣٦٤.

(١٠) المصدر نفسه، ج١، ص٣٧٣.

(١١) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٩.

قيل عن إقليم الشام بأنه بلد الزيت والزيتون(١). وأنه أكثر بلاد الله زيتونا(٢). وريف الدنيا من الزيتون فلسطين إلى قنسرين(٣).

وأجود ما يختار من الأرض لزراعة الزيتون البقعة الجرداء البيضاء الخواره الجافة غير المتعفنة من كثرة النداوة ولا ينبغي أن يزرع الزيتون في الأرض السبخة ولا في الأرض الحمراء ولا في الأرض المتطامنة ذات العمق التي تدوم بها شدة الحر فيها ولا في الأرض المشققة(٤)، وأول أوان غرسه النصف من شهر تشرين الثاني وآخره اليوم العشرون من كانون أول وقد يغرس الزيتون في فصل الربيع في شهر نيسان(٥).

كذلك اهتم اهل الذمة بزراعة قصب السكر في أراضيهم حيث كثرت زراعته في المناطق التي يكثر بها النصارى واليهود. فكانت مدينة طرابلس شهيرة بزراعة قصب السكر. وكان بها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه الشيء الكثير(٦). كما اشتهرت بيروت بزراعة قصب السكر والنخيل(٧). ويقول النويري وأكثر ما كان يوجد قصب السكر بالسواحل الطرابلسية والبيروتية والعكاوية(٨).

كما كثرت زراعته في طبريا بدليل ما قاله المقدسي عن أهلها بأنهم عراة من شدة الحر ويمصون قصب السكر(٩). كما اشتهرت أيضاً أريحا بزراعة قصب السكر(١٠). وبالإجمال فإن زراعته كثرت بوجه خاص في المنطقة الممتدة من بحيرة طبريا شمالاً إلى البحر الميت جنوباً

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص١١٧.

(٢) الثعالبي، أبو منصور عبد الله بن محدبة إسماعيل (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري وحسن الصيرفي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م، ص١٥٧.

(٣) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص١١٥.

(٤) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص١٠٠.

(٥) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٧٢.

(٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٢.

(٨) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٧١.

(٩) المصدر نفسه، ص١٦١.

(١٠) Frescobaldi, Visit to the Holy Places, P. 69.

حيث يقول ياقوت الحموي: "ضياع الأردن فيها نهر الأردن وأكثر مستغلتهم السكر ومنها يحمل إلى سائر بلاد الشرق"[١].

وأجود الأماكن لغرس القصب الأماكن كثيرة النبات والحشيش التي نباتها ملتف ويختار أن تكون متسعة الفضاء لتصيبها الرياح، وأفضل ما سمد به القصب أخثاء البقر[٢]. ويكون أوان غرسه في شهر نيسان أما في الأماكن الباردة فغرسه يكون في الخريف[٣].

ومن المزروعات الأخرى التي مارسها أهل الذمة في بلاد الشام زراعة الحبوب ويأتي القمح في مقدمتها فاشتهرت البلقاء بزراعة الحبوب إذ يذكر المقدسي أن عمان على سيف البادية ذات قرى ومزارع ورستاقها البلقاء معدن الحبوب والأغنام[٤]. أما ما ذكره ياقوت عن البلقاء "البلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى قصبتها عمان وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبجودة حنطتها يضرب المثل[٥]. كما اشتهرت مدينة بالس على الفرات بكثرة غلاتها من القمح والشعير[٦]. وبحوران والبثنية ضياع أيوب ودياره مدينتها نوى معدن القمح والحبوب[٧]. كما اشتهرت الجزيرة الفراتية بوفرة الغلال والحبوب حتى غصت أهرائها بالقمح[٨].

كما حرصت الأديار أن يكون من بين منشآتها طواحين لطحن الحبوب فكان لدير طور سيناء مطابخ وأفران وطاحونتان[٩]. ودير مار يعقوب غربي قاره فيه نهر ماء يدور به طاحون وكامل القرايا حوله يطحنون بها حبوبهم[١٠]. ودير ميماس بين دمشق وحمص على نهر ميماس .. وعليه طواحين رومية[١١].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٤٧.

(٢) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٥.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٨٩.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٥.

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٠. البثنية، ومدينتها أذرعات وأهلها قوم من يمن ومن قيس. اليعقوبي، البلدان، ص٣٣١. وهي من نواحي دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٣٣٨

(٨) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٧٣.

(٩) الشابشتي، الديارات، ص٣٠٠.

(١٠) الزيات، أديار دمشق وبرها، ص٤٥٢.

(١١) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٠.

واتبع الفلاح الشامي طريقتين في زراعة الحبوب وفق المواسم المطرية. فمن ذلك المطر المسمى: الوسمي، وهو الذي يقع في فصل الخريف، وعند وقوع هذا المطر يخد شق الأراضي المكروبة بالسكك ثم يبذر الحب فيها ويعاد شق الأرض ليخفى عن الطير خشية التقاطه، فإذا نزل عليه المطر الثاني بعد ذلك نبت وبرز على وجه الأرض.وهو عند ذلك يسمى الأحوى (الضارب إلى السواد من شدة خضرته) ثم لا تزال الأمطار تسقيه حتى يصير غثاء، (يسمن قليلا) ثم يقع عليه بعد ذلك المطر المسمى بالمطر الفاطم وهو غالباً ما يكون بشهر نيسان ثم يعقد الحب بعد ذلك[١].ومن أراضي الشام ما يفوتها الوسمي فيزرع سكانها الحب عفيراً ومعنى ذلك أنهم يزرعون الحب في الأرض قبل سقوط الأمطار وينتظرون وقوع الأمطار عليه[٢].

وكانت لهم تجاربهم في حصاد وطحن الحبوب وخبزها. فالتبكير في حصد الزرع كله قبل شدة يبوسته أطيب لطعمه. وأحسن أوقات الحصاد التي تبدأ من أواخر الليل إلى أن يمضي من النهار الثلث أو نحوه وإذا قارب نصف النهار واشتد الحر فالأفضل ترك الحصاد لئلا يتناثر حبه[٣]. وينبغي أن تكون مواضع بيادر الحبوب مرتفعة عن الأرض بعيدة عن المساكن والكروم والأشجار وأن تكون التذرية في يوم ريح الشمال فإنه أفلح وأجمع للحب ويجب أن يرض مكان البيدر ويرش بالماء ويدحرج بالأثقال حتى تسلم الحبوب من أضرار النمل[٤]. وبعد التذرية ينصح أن يبقى في مكانه لمدة عشرة أيام ويقلب لتصيبه الشمس ليحافظ عليه أثناء جمعه بالأهراءات ويحفظ في أماكن جافة ودائمة التهوية[٥].

ومن طرقهم في حفظ الدقيق وخبزه أن يضعوا داخل الطحين خشبة من حشب السرو بعد رضها رضاً بالغاً فإن ذلك يحفظه من الفساد[٦]. وإذا عمد إلى الجيد المنقى الطيب فغسل ثم نشف وطحن وعجن وخبز خبزاً نضيجاً لم ينتقص البتة بل يزيد ... لان ما يشربه من الماء أثناء العجن أكثر مما يخرج منه من النخالة. وإذا كان البر دون الوسط كان خبزه ينقص عن وزن بره[٧].

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص٢٥٦.

(٣) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٢٩. ابن وحشية، الفلاحة النبطية، ج١، ص٤٢٥

(٤) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق، ص٣٠، ابن وحشية، المصدر السابق، ج١، ص٢٢٧

(٥) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق ، ص٣٠. ابن وحشية، المصدر السابق، ج١، ص٤٢٨

(٦) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق، ص٣٣.

(٧) قسطوس بن لوقا،المصدر السابق، ص٣٣.

ومن المزروعات التي حرصت الأديرة على زراعتها النباتات الطبية والعطرية إذ كان النصارى متخصصين في مهنة العطارة والطب[1]. ومن أشهرها نبات الزعفران. وهو نبات زهره أحمر مائل إلى الصفرة ذكي الرائحة ويستخدم في الصباغة والدواء والطيب[2]. ولشدة الطلب عليه حرص الرهبان على زراعته في الأراضي التابعة للأديرة والكنائس[3]. كدير مران في دمشق الذي كان مشرفاً على مزارع الزعفران[4]. ودير مارت ماروتا بظاهر حلب الذي كان من جملة مزروعاته الزعفران[5]. ودير الزعفران على الجبل المحاذي لنصيبين[6] ولعل تسميته جاءت لكثرة ما يزرع به من الزعفران. ومن المناطق الأخرى التي اشتهرت بزراعته مدينة سلمية استنبطت أرضها حتى زرع فيها الزعفران وأهلها أخلاط من الناس تجار ومزارعين[7]. واشتهرت منطقة جادية من قرى البلقاء بزراعته وإليها ينسب الجادي وهو الزعفران. [8]

أما استعمالاته الطبية أو العلاجية فهو قابض ومحلل يقوي الأحشاء وشربه يحسن اللون وهو محلل للأورام منوم إذا سقي في الشراب ويجلو البصر ويسهل التنفس ويقوي النفس إلا أنه مصدع يضرب الرأس[9].

كما اهتم الرهبان بزراعة الورود والرياحين في الأديرة فكان لدير مارت ماروتا بظاهر حلب .. بساتين قليلة ومباقل وفيه نرجس وبنفسج وزعفران[10]. ودير الخصيان بغور البلقاء بين

---

(١) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣١٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٣.

(٢) أبو القاسم الغساني، محمد بن إبراهيم المشهور بالوزير (ت في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي) حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار ، تحقيق محمد الخطابي، بيروت، دار العربي، ١٩٨٥، ص١٠٨ الزيات، الديارات النصرانية، ص٣٣٨.

(٣) الزيات، الديارات النصرانية، ص٣٣٨. وأديار دمشق وبرها ، ص ٤٣١.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٣١.

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٥١١.

(٧) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤.

(٨) الزمخشري، محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ/١١٣٦م)، كتاب الأمكنة والمياه والجبال، تحقيق إبراهيم السامرائي، بغداد، مطبعة السعدون، ١٩٦٨، ص٦٠.

(٩) النويري، نهاية الأرب، ج١١، ص٢٤٧. أبو القاسم الغساني، حديقة الأزهار، ص١٠٩.

(١٠) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٢.

دمشق وبيت المقدس. في وسط بستان ملتفة أشجاره. وروض قد أزهر بنبت الربيع ونواره[١].
ودير الرهبان نزله سليمان بن عبد الملك في روضة خضراء مونقة الزهر وذات حدائق وبهجة تحفه أنواع الزهر النضر والغض. ما بين أصفر فاقع وأبيض ناصع وأحمر ساطع (قاني) فهي مثل الثياب الحضرمية .. تحمل منها الريح نسيم المسك .. والعنبر[٢]. وكان لدمشق الدور الأكبر في زراعتها وصناعاتها وعدد القلقشندي من رياحين الشام الآس والورد والنرجس والياسمين والنسرين ويزيد على مصر في ذلك خصوصاً الورد حتى أنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان[٣]. كما كان ينقل منها دهن البنفسج [٤].

هذا وقد انتجت أراضيهم جميع المحاصيل الزراعية الأخرى جميعاً التي اشتهرت بها بلاد الشام واعتنوا بها وبطرق زراعتها وأوقات غرسها وزرعها. مثل الأشجار المثمرة كالتفاح والخوخ والكمثرى والمشمش والتين والرمان والسفرجل والأجاص واللوز والفستق والجوز والبلوط والسرو والنخل والموز[٥]. والحمضيات مثل الأترج والنارنج والليمون[٦]. والبقول مثل الحمص والعدس والفول والترمس والهليون[٧].

كما زرعوا أيضاً الخضروات كالفجل والجزر واللفت والكرنب الشامي والمصري وهو القنبيط والباذنجان والبصل والثوم والنعناع والهندبا والطرخون والفيجن والكزبرة والقرع والبطيخ والقثاء والخيار[٨]. والكتان والقطن[٩].

كما اهتم أهل الذمة كغيرهم من الفلاحين بتربية المواشي من الأبقار والأغنام والماعز وفي تربية النحل وتربية الطيور كالدجاج والحمام وصيد السمك[١]. فكانت بلاد الجزيرة الفراتية

---

(١) الأصفهاني، الديارات، ص٧٩.

(٢) الأصفهاني، الديارات، ص٨١. لم يشر الأصفهاني إلى مكان الدير. ولم يرد له ذكره في باقي المصادر وأغلب الظن أنه بالشام.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٩١.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨١.

(٥) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٨٠-٨٧، ٩٠-٩٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٦. الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٥٢.

(٦) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق، ص٩٨.

(٧) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق، ص٢٧، ٢٨، ١١٤.

(٨) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق ، ص١١٠-١١٦.

(٩) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق ، ص٢٨.

إلى جانب الزراعة تضيق على رحبها بالماشية وكان الفقراء وحتى المعدمون منهم يمتلكون أفدنة وحميراً وماعزاً[٢].

كما كانت لهم خبراتهم في تربية الخيول واختيار الأجود منها فقال قسطوس يستحب الفحل المتخذ للنتاج أن يكون حسن الخلق والفعال قصير القوائم لطيف الجسم معتدل طويل العنق غير ثنى ولا جذع ولا رهيف ولا طويل بل عريض الجنب مكتنز قصير الأرساغ[٣]. ويحمد نتاج الخيل في النصف الأخير من شهر آذار إلى الثامن عشر من حزيران ليكون الميلاد في هذا الوقت من السنة الداخلة وذلك لاعتدال الهواء وكثرة المراعي. ويقول: وقد رأيت علماء الروم يبدأون في نتاج الخيل من النصف من آذار ويستمرون في النتاج إلى الثامن عشر من حزيران ثم يعزلون فحولة الخيل عن الحجور". وبعد الولادة كانوا يهتمون برضاعتها وتدريبها حتى سن السابعة ففي هذه السن تبلغ الخيل قوتها وشدتها[٤].

وكثيراً ما عانى الفلاحون من أهل الذمة كغيرهم من الفلاحين الآخرين في بلاد الشام من سوء تصرف جباة الضرائب وطرق جبايتها والاعتداء على أملاكهم ومحاصيلهم. ومن أكثر المساوئ التي كانت تضر بالفلاح شيوع الضمان في جمع الضرائب فكان الفلاح يقع تحت وطأة المتغلبين من التجار والمرابين لكي يحصل على الأموال الواجبة عليه فيشترون محصولاتهم وحيواناتهم بأسعار رخيصة دون مستوى السوق بكثير. ويورد التلمحري مثالاً على ذلك ما حدث في مدن الجزيرة الفراتية أيام الخليفة المنصور وواليه موسى بن مصعب، فيقول في سنة ١٥٥هـ/٧٧١م أرسل الخليفة المعدلين إلى الجزيرة لمسح الأرض وتعديل الضريبة عليها لإخضاع أكبر عدد ممكن من السكان للجزية وإرهاق الأرض بمزيد من الضرائب ..[٥] ولما طولب كل امرئ بدفع الجزية ولم يقو على دفعها كاملة قبض الأمير على الضامنين وفرض عليهم مقداراً معيناً من المال بالتساوي فعاد هؤلاء بدورهم وفرضوا ذلك المبلغ من المال على القرى الواقعة ضمن دوائر جبايتهم ويعلق التلمحري ويقول: ويبدو أن الأمور لم تجر في نصابها الصحيح فيما بعد وفشلت خطة الجباية هذه لأن الضامنين تجاوزوا حدود صلاحياتهم فظلموا

---

(١) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص ١٢٩، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٠-١٤٣.

(٢) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٧٤.

(٣) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق ، ص١٢١. غير ثنى ولا جذع: أن لا يكون صغير السن فالثنى ما كان عمره سنتين والجذع ما استكمل سنتين ودخل الثالثة. المعجم الوسيط، ج١، ص١٢٣.

(٤) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق، ص١٢١، ١٢٥.

(٥) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٩٧.

الفقراء والأيتام والأرامل في نواحيهم غير مشفقين على أحد منهم لم يفعلوا هذا بأمر من الوالي ولكنهم أقدموا عليه بدوافع شخصية وما أكثر الذين اغتبطوا بهذا الكيد والعسف وراحوا يشترون أمتعة ومواشي المحتاجين من أبناء القرى ويملأون بها دورهم حتى أثروا على هواهم[١]. وأقرضوا بربا فاحش وأقدموا على انتزاع أبناء الفقراء من أحضانهم واتخاذهم عبيداً وإماء لهم. واشترى أصحاب الأموال غلال الفلاحين سلفاً ودفعوا ديناراً عن كل خمسين أو ستين جريباً من القمح من الحنطة ودفع آخرون ديناراً عن كل سبعين جريباً من الحنطة[٢]. وأقرض ذوو الأموال أيضاً ديناراً عن كل خمسين رطلاً من الخمر وآخرون ستين أو سبعين وفي أحوال نادرة جداً ثمانين رطلاً بدينار بينما كانت الحنطة تباع في الأسواق ثلاثين أو خمساً وثلاثين جريباً بدينار ولم يصل ثمن أربعين جريباً من الحنطة إلى دينار إلا في القليل النادر وكانت أسعار الخمرة أيضاً معتدلة جداً وبيع الخروف بدرهم والعنز بدرهم والثور بخمسة دراهم والحمار بأربعة دراهم. وهذا الفرق في الأسعار يبين مدى استغلال التجار لحاجة الفلاح إلى الأموال فيضطر إلى بيع ممتلكاته بأقل الأسعار لكي يستطيع أن يسدد ما عليه من الضرائب. وعندما لا يستطيع الفلاح أن يسدد ما عليه من الضرائب المتراكمة يضطر أن يلجأ إلى المرابين في المدينة وكان المرابون يقرضونهم بربا فاحش وعندما يحين موعد السداد يبيع الفلاحون ما لديهم من أمتعة محصولات حتى يجمعوا المال المطلوب[٣].

ونتيجة لعدم تمكن عدد من الفلاحين من سداد ما عليهم من ديون لجأوا إلى الفرار من الريف والهجرة إلى المدن واتخذت الدولة تدابير حازمة شملت جميع مدن الجزيرة للحد من ظاهرة الهجرة وإعادة الجالين إلى بلادهم. إذ يشكل ترك الأرض مهما كانت الأسباب عبئاً على بيت المال لما ينشأ عنه من ترك الزراعة وتراجع في الوارد، كما تشكل هجرتهم من ناحية أخرى عبئاً على دافعي الضريبة الباقين من سكان القرية لأنه كان يقع عليهم دفع ضريبة من لا يقدر على دفعها أو من هرب منها حتى يتم جمع الضريبة المقررة على القرية أو على الإقليم، الأمر الذي جعل أهل القرية الباقين تتبع الجالين لإعادتهم إلى قراهم وأجبارهم على دفع قيمة الضريبة المترتبة عليهم. كما كان سكان القرى مجبرين على تسليم الآبق إلى السلطات بسبب

---

(١) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٩٧. وقد حذر أبو يوسف هارون الرشيد من نظام الضمان (القبالة) لما يلحق بالفلاح من العسف الشديد من جراء سوء تصرف الجباة وطمعهم. أبو يوسف، الخراج، ص١٠٥. انظر أيضاً الفصل الثاني الدولة وأهل الذمة، الضرائب.

(٢) التلمحري، المصدر السابق، ص١٩٨-١٩٩.

(٣) التلمحري، التاريخ المنحول، ص٢٦٧-٢٧٠.

شدة العقوبة المفروضة على من يخفى أحداً من هؤلاء الشاردين، كما كانت تخصص مكافأة مجزية لكل من يسلم شارداً[١]

فعين المشرف على أمور الجلاء رجلاً فارسياً ليقوم بإعادة النازحين إلى مدينة ماردين واسمه كليل بن زادان فناصب العرب العداء وأمر أعوانه بالانتشار في المدن والتحري عن كل امرئ ترك مدينة ماردين هو وأبوه أو جده منذ أربعين سنة أو خمسين سنة وأمر بإلقاء القبض عليه وإعادته إلى المدينة دون أن يجرد من أمواله فلم تبق قرية مهجورة أو خربة خاوية إلا شحنها بالسكان ولم يكتف بذلك بل عمد إلى الأراضي التي انتقلت ملكيتها إلى العرب بعد هرب سكانها الأصليين (السريان) وأعادها الى أهلها القدامى وأمرهم بزراعتها[٢].

وحدث الشيء نفسه في باقي مدن الجزيرة[٣] وبعث أمير البلاد برفقه الجباة واسمين وأختاماً من رصاص، وأمرهم بوسم كل من ألقوا القبض عليه،باسم موطنه الأصلي، واسم مدينته، وإعادته إلى هناك. فصار رؤساء الأقاليم يذهبون تباعا، بأبناء مناطقهم إلى المدينة لوسمهم. فيختم الواسم على يد الرجل اليمنى، اسم مدينته، وعلى اليد اليسرى، اسم بلاده. ويعلق في عنقه ختمان نقش على الأول اسم قريته وعلى الثاني اسم إقليمه. مع غرامة مقدارها درهم واحد لكل ثلاثة رجال، وبعد الانتهاء من ذلك يدون اسم الرجل وهيئته وسيماؤه وقريته وإقليمه في سجل خاص. وقبض المسؤولون على جمع كبير من الغرباء وختموهم بأسماء القرى التي اعترفوا بأنهم نزحوا عنها. وقد يكون أحدهم في واقع الحال لا ينتمي إلى تلك القرية بالذات أو حتى دخلها في حياته مرة واحدة ... ولما ثبت للواسم أن عمله ليس شاملاً، خرج إلى القرى والأرياف ليطبق على القادمين والرائحين ويسمهم بأختام. فمشطوا البلاد أكثر من عشرين مرة حتى أتوا على آخر من تبقى دون وسم[٤].

ولم يقتصر هذا الظلم على الفلاحين السريان بل كان المسلمون كالسريان يبيعون معظم ما ملكت أيمانهم لدفع ضريبة الصدقات . ويرى أن المسلمين اعترضوا مراراً على هذا العسف، وطالبوا المسؤولين بالعودة إلى الشريعة الإسلامية التي كان يطبقها السابقون (خلفاء بني أمية) واستيفاء القمح بدل القمح، والماشية بدل الماشية، فيكفونهم شر هذا التقدير المجحف. وصمموا

---

(١) دينيت، دانييل، الجزية والإسلام، ترجمة وتقديم فوزي جادالله، مراجعة إحسان عباس، بيروتن منشورات مكتبة الحياة، ص١٧٢.

(٢) التلمحري، المصدر السابق، ص١٨٥.

(٣) التلمحري، تاريخ المنحول، ص٢٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٢١٦-٢١٧.

على رفع شكاية إلى أمير الجزيرة موسى بن مصعب إلا أنهم خابوا إذ أبى قبول شكواهم. وفكروا بالتوجه إلى بغداد، فمكثوا في بغداد قرابة ستة أشهر دون أن يفوزوا بشيء(١).

كما حدث الشيء نفسه في فلسطين ففي أيام الخليفة هارون الرشيد جلا بعض الناس عن أراضيهم في فلسطين فوجه الرشيد هرثمة بن أعين لعمارة تلك الأرض المهجورة فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها إلى الرجوع ووعدهم بتخفيض الخراج عنهم ولين معاملتهم فعادوا إلى أرضهم وسموا اصحاب "التخافيف" وهناك فريق آخر من الفلاحين طلبوا أن يعودوا إلى فلاحة أرضهم دون شروط على أن يدفعوا عنها قيمة الخراج فأذن لهم بذلك وردت عليهم أرضهم وسموا أصحاب الردود(٢).

كما عانى الفلاحون في بلاد الشام بما فيهم الذميون والمسلمون من النزاعات القبلية المستمرة والاعتداء على قرى الأطراف المتنازعة مما كان يؤثر سلباً على حياة الفلاح وعلى الزراعة. فمن تلك الأحداث ثورة أبي الهيذام عامر بن عمارة بن حزيم المري وهي إحدى الثورات القبلية المتميزة التي وقعت في غوطة دمشق بين قبائل قيس البدوية واليمانية القروية وهم أتباع الدولة ومؤيديها. وقد استمرت المواجهات فيها سبع سنين من ١٧٠-١٧٧هـ/٧٨٦-٧٩٣م حاول فيها القيسيون السيطرة على الريف وطرد القبائل اليمنية من الغوطة أو على الأقل إخضاعهم لهم وقام بينهم عدة مواجهات(٣). وامتدت أثار تلك الثورة إلى فلسطين وقد عانى النصارى في القدس وبيت لحم وغزة وعسقلان وبيت كفرين من اعتداءات الجنود على ممتلكاتهم وأديرتهم من أجل الحصول على الكنوز والأموال(٤). ومن أجل التخفيف على الفلاحين فقد أعفى المأمون الفلاحين عن واجب إيواء العساكر في منازلهم فصار النصارى يدعون له ليلاً ونهاراً(٥).

وكثيراً ما تعرض الفلاحون أيضاً إلى الاعتداء على حياتهم الشخصية من الجنود فكانت تقوم الثورات في البلاد بسبب ذلك، كثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٢٢٧هـ/٨٤٠م خبر ثورة الفلاحين نقلاً عن بعض أصحابه دون ذكر اسمه

---

(١) التلمحري، تاريخ المنحول، ص٧٩-٨٠. في هذا النص إشارة على تفضيل العباسيين لأخذ ضريبة الخراج نقداً وتذمر الناس من ذلك.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص١٤٩-١٥٠.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ٢١١. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٦، ص٦٤ وما بعدها. ابن الاثير، الكامل، ج٧، ص٢٩٦.

(4) Senick. Christianity in the patriarchate, P12.

(٥) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص٢٩.

واكتفى بوصف صاحبه بأنه خبير بأمره[١]. ويقول الطبري في سبب خروج أبي حرب تميم اليماني على السلطان أن أحد الجنود أراد النزول في داره وهو غائب عنها وفيها أهله فمانعته ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر بها وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه فأخذ أبو حرب سيفه ومشى إلى الجندي فضربه به حتى قتله ثم هرب وألبس وجهه برقعاً كي لا يعرف[٢]. هذا هو السبب المباشر الذي دفع بأبي حرب اليماني للخروج على السلطان فالتجأ إلى أحد الجبال في الأردن وأخذ يدعو الناس ويحرضهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "ويذكر السلطان ويعيبه " وما زال ذلك دأبه حتى استجاب له القوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى وكان يزعم أنه أموي فقال الذين استجابوا له هذا هو السفياني المنتظر[٣]. فلما كثر أتباعه من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من أهل تلك الناحية فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية ... فاتصل خبرهم بالمعتصم .. فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف من الجند فلما صار إليه وجده في عالم من الناس .. زهاء مائة ألف فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله حتى كان أول عماره الناس الأرضين وحراثتهم وانصرف من كان من الحراثين مع أبي حرب إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أراضيهم وبقي أبو حرب في نفر زهاء ألف أو ألفين فناهزه رجاء .. وأخذه أسيراً إلى سجن المطبق في سر من رأى[٤].

الملاحظ في هذه الثورة أنها لاقت قبولاً واسعاً وسريعاً عند الفلاحين وأهل القرى وقد اتبعه خلق كثير من الحراثين ممن عجزوا عن دفع التزاماتهم إلى الدولة فأعلنوا تمردهم عليها وهذا ما عبر عنه قائد المعتصم حين رآهم فقال: "ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره"[٥].

وقد أكثر الفلاحون من التمنيات بعودة نظام الحكم الأموي لأنهم كانوا يرون أن الأمويين كانوا أكثر إنصافاً من العباسيين في جباية الضرائب وهذا مما دعاهم إلى الانضمام إلى ثورة السفياني المنتظر أملاً منهم بعودة النظام الأموي إلى البلاد أملاً في إنصافهم وتخليصهم من الأعباء الضريبية فلا غرابة إذن أن نرى هذه الأعداد الكبيرة من الفلاحين الذين أصبح كسبهم يأتي عن طريق الأرض وزراعتها من مسلمين وغيرهم من أصحاب الطوائف الأخرى مطالبين

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١١٦. اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٠.

(٢) الطبري، المصدر السابق، ج٩، ص١١٦-١١٧.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١١٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص٤٨٠.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص١١٦-١١٧. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٦، ص٦٩.

بخفض الخراج عنهم ورفع الضرائب أو تخفيفها عن كاهلهم مما جعل المسؤولين يعيدون النظر في الضرائب المعمول بها خاصة الخراج والعمل على تخفيفه وترغيب الفلاحين على أن يبقوا في الأرض ولا يغادروها[١].

كما عانى الفلاحون في بلاد الشام من أعمال السخرة والاعتداء على أراضيهم وفرض الضرائب الإضافية عليهم. فقد جاء في تاريخ الرهاوي أنه في أيام الخليفة الواثق عانى الفلاحون من اعتداءات الولاة والموظفين ففي زمن القطاف كان الولاة يمنعون الناس من قطف كرومهم قبل أن يأخذوا من كل كرمة مقداراً معيناً، كما كانوا يأخذون أيضاً من المعاصر مقداراً معيناً معروفاً. وفي زمن الحصاد كانوا لا يسمحون لأحد منهم ان يحصد حقله قبل أن يستوفوا منه ديناراً أو دينارين وكذلك عند الجرجر وجني الزيتون وعلى الطرق وعند أبواب المدن. أما الذي اخترع هذه القوانين الجائرة كلها فهو أحمد بن أبي داود (دُواد) ويسمى أبناء عشيرته (آل إياد) وتعاظم شرهم .. حتى إذا ذهب واحد منهم وحل فدادين[٢] النصارى وحولها إلى أرضه لم يكن باستطاعة أصحابها ممانعته كما كانوا يسخرون الفلاحين لأشغالهم. وكان أصحاب القرية في ضيعتهم يأتون إلى بني إياد ويلتمسون منهم أن يأخذوها باي ثمن شاءوا وهكذا فقد استولى أحمد على قرى كثيرة وكان سكان القرى الغربية يتلقون الإضطهاد نفسه من بني إياد وعمالهم. أعني من الكتبة أصحاب النفوذ وكان المسلمون أنفسهم مع النصارى يخافونهم ويرهبونهم وكل هذه القوانين سنت في زمن أحمد بن أبي داود[٣].

ومن هذا القبيل أيضاً ما حدث زمن الحسن بن عبد الله بن حمدان ناصر الدولة (ت ٣٥٨هـ/٩٦٩م) إذ يذكر ابن حوقل أن الحسن بن حمدان عمد إلى نصيبين واكتسح أشجارها وبدل ثمارها وعور أنهارها واستصفاها واستصفى أراضي من دخل بلاد الروم. واشترى بعضها واغتصب البعض الآخر من أهلها ولم يبق إلا القليل وجعل مكان الفواكه الغلات بالحبوب

---

(١) حمارنة، صالح، ثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم ٢٢٧هـ/٨٤٢م. المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام. (فلسطين) مج٣، ١٩٨٣، ص٧٨.

(٢) الفدان، يساوي ٤٠٠ قصبة ويقدر بـ ٦٣٦٨م٢. هنس، المكاييل الإسلامية، ص٩٨.

(٣) مجهول، تاريخ الرهاوي، ج٢، ص٥٣-٥٤. أحمد بن أبي داود (دُواد) بن جرير أبو عبد الله القاضي الإيادي. استلم منصب قاضي القضاة أيام الخليفة المعتصم والواثق وهو الذي كان يمتحن العلماء في أياميهما ويدعوا إلى القول بخلق القران. وقلد المتوكل ولده محمد بن أحمد القضاء مكان والده ولم تكن طريقته مرضية وكثر ذاموه وقل شاكروه توفي قبل والده بعشرين يوماً وكانت وفاتهما سنة (٢٤٠هـ/٨٥٤م). الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٤، ص٣٦٥. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٨١ وما بعدها.

والسمسم والقطن والأرز وصار ارتفاعها أضعاف ما كانت عليه وزادت ربوعها، وسلمها إلى من بقي من أهلها وصاروا يدفعون الخراج مقاسمه النصف من غلاتها إلى أي نوع كانت على أن يقدر الدخل ويقومه عيناً إن شاء أو ورقاً ويعطي الحراث ثمن ما وجب به بحق المقاسمة فيكون دون الخمسين. ولم يزالوا على ذلك مع ولده الغضنفر (ت ٣٦٩هـ/٩٨٠م) ... وأهلها حتى وقتنا هذا على أقبح ما كانوا عليه وفيه من تقدير من وليهم عليهم يستغرق أكثر الغلة وتقويم ما يبقى من سهم المزارع بثمن يراه المقدر وحمل ما وقع بسهمه إلى مخازنهم وأهرائهم ويرضخ له منه بما يسمح به لبذره[١].

فكان ذلك سبباً في هجرة العديد من سكان البلاد وتركهم لأراضيهم إلى بلاد الروم فتحولت أحوالها إلى النقص والاستحالة ، بعد أن كانت أحوال البلاد في الشام والجزيرة معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار فصارت منذ سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م بين قوم يتطاول أحدهم على الآخر وأكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصله لوقته لا يرغب في عماره ولا يلتفت إليها بروية ولا إشارة[٢].

النشاط الحرفي

كانت الحرف مفتوحة للمسلمين وغيرهم، وكان الناس أحراراً في اختيار المهنة التي يريدون، وكان غالبية أصحاب الحرف من الموالي وأهل الذمة ويبدو أن العرب في هذه الفترة لم يشاركوا في الصنائع لأنفتهم منها ولرسوخهم في البداوة [٣].

ويدخل أصحاب الحرف في غمار العامة وهم في مرتبة دنيا في المخطط الاجتماعي فكان الفقير هو العامل بيده مثل الخياط والصباغ والإسكافي والخراز ومن أشبههم[٤]. وخير تقدير لحالتهم الاقتصادية قول أبي الفضل الدمشقي .. وأما الصنائع العملية وهي المهن فقد قيل قديماً الصناعة في الكف أمان من الفقر وأمان من الغنى وذلك أن الصانع بيده لا يكاد كسبه يقصر عن

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٣. يرضخ له: أعطاه قليلاً من كثير. المعجم الوسيط، ج١، ص٣٥٠.

(٢) ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٩١، ١٧٢.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) المقدمة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت ص٤٠٤. الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٠٧.

(٤) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٤.

إقامة ما لا بد له منه ولا يكاد كسبه يتسع لاقتناء ضيعة أو عقد نعمة وأيضاً فإنه مع ذلك إذا ميز الناس دخل في أدون طبقاتهم[١].

وكان يشار إلى الحرفة بالصنف[٢]. وأصحاب المهن[٣]. وأهل الصناعات[٤]. وأصحاب الحرف والصناعات[٥]. وللحرفة "عرف" و"سنة" خاصة بها. وهي مقبولة لدى القاضي والمحتسب عند النظر في الخلافات بين أهل الحرفة[٦]. ويعترف الماوردي بعرف أهل الحرف في أحكام الحسبة[٧]. كما أن كتب الحسبة تشير إلى هذا العرف وتقبله[٨].

وكان لدى أصحاب الحرف تنظيم مهني فلكل حرفة رئيس من أعضائها تعينه الحكومة أو تعترف به وهو شيخ الصنف. وهناك الأستاذ (المعلم) وهو المتقدم في الحرفة. ويليه الصانع الذي أتقن الحرفة وبإمكانه فتح حانوت خاص به والعمل مستقلا[٩]. وأدنى درجة في الحرفة تتمثل بالمبتدئ الذي ينتسب إلى الحرفة ولا يزال في مرحلة التعلم[١٠]. ولما كان دخول أي فرد جديد في حرفة من الحرف من شأنه أن ينافس أصحابها الأصليين فإنهم كانوا لا يدربون أحداً على طرق صناعتهم إلا أن يكون قد أتى ليحل محل أحدهم وفي هذه الحالة يقبل بشروط[١١].

---

(١) الدمشقي، أبو الفضل جعفر بن علي (ألف في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م)، الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة الأعراض ورديئها وغشوش المدلسين فيها، حققه وقدم له فهمي سعد، بيروت، دار ألف باء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م، ص٩٤.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥١.

(٥) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٨.

(٦) وكيع، محمد بن خلف بن حيان، (ت ٣٠٦هـ/٩١٨م) أخبار القضاة، بيروت، عالم الكتب، د.ت، ج٢، ص٣٥١، ٣٧٢.

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٣٠٠. الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٨٣، ص٢٨٥.

(٨) ابن الأخوة القرشي، معالم القربة، ص٥٣، ٥٦.

(٩) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٦٨.

(١٠) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٠٨. منيمنة، سارة، التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية، مجلة الفكر العربي، دمشق، تشرين أول-تشرين ثاني ١٩٨٢، العدد ٢٩، السنة ٤، ص١٤٤. وسيشار له فيما بعد هكذا. منيمنة، التكوين الوظيفي، عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، الكويت، إبريل، مايو، يونيو، ١٩٨٠. مج١١، عدد ١، ص٩٥.

(١١) منيمنة، المرجع السابق، ص١٤٤. عاشور، المرجع السابق، ص٩٥.

وكان لكل مهنة أو حرفة سوق خاصة بها بحيث كان أهل كل مهنة لا يختلطون بغيرهم[١]. وكانت الحرف والأسواق تحت إشراف المحتسب ومهمته مراقبة معاملات البيع والشراء والأوزان والمكاييل أو الغش في الصناعة ومراقبة الأخلاق العامة في السوق[٢].

وكانت المهنة تعتبر رابطة أساسية بين أصحابها إذ يقبل اليهودي والمسيحي والمسلم بالشروط نفسها فهم يتساندون ويتعاونون ففي إحدى وثائق الجنيزه إشارة إلى مثل هذا التعاون فكان دخل العمل الذي يعمله اليهودي في يوم الجمعة يعود له ودخل العمل في يوم السبت يعود إلى شريكة المسلم[٣]. وقد شمل تعاون أصحاب الحرف ضمان سوية مقبولة للمهنة. وإقرار مستوى أسعار الصناعة وحماية أصحابها من التعدي[٤].

وكان أهل الصنايع يشاركون في بعض الأحداث العامة ففي سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م اشترك العامة ومنهم أهل الصنايع والحرف في الدفاع عن مدينة دمشق أيام ولاية طغج عامل هارون بن خمارويه عندما حاصرها القرامطة[٥].

وكثيراً ما كانت تقع الفتن والاشتبكات بين اصحاب الحرف إذ يروي ابن الأثير في حوالي سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م أنه وقعت فتنه في بلاد الجزيرة بين أصحاب الطعام وبين البزازين فظهر أصحاب الطعام عليهم أول النهار فانضم الاساكفة إلى البزازين فأستظهروا بهم وقهروا أصحاب الطعام وهزموهم وأحرقوا اسواقهم وتتابعت الفتنة بعد هذه الحادثة. واجترأ أهل الشر وتعاقد اصحاب الخلقان الاساكفة على أصحاب الطعام واقتتلوا قتالاً شديداً ثم ظفر اصحاب الطعام فهزموا الأساكفة ومن معهم وأحرقوا سوقهم وقتلوا منهم فتدخل أمير الجزيرة الحسن بن عبدالله بن حمدان وناس من العلماء وأهل الدين فاصلحوا بينهم[٦].

ومع أن الحرفة كانت مفتوحة للجميع من أصحاب الديانات، إلا أن هناك بعض الحرف كانت فيها أكثرية من دين واحد ويعود ذلك في بعض الأحيان إلى الوراثة ، فكانت الحرفة تنتقل من الأب إلى الابن ومن جيل إلى جيل وهكذا قضت الظروف لأبناء الحرف الواحدة أن يتقنوها

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه ، ص٥٦.

(٢) ابن الأخوة، معالم القربة، ص ص ٢١١-٢١٨. ٢٢٣، ٢٣٨، ٢٥٣-٢٥٩، ٣٣٥٣٤٢.

(3) Goitein, A Mediterranean Society, vol 2, P296

(٤) الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٦٨.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١٠، ص١٠٠، ١٠٨٢، ١١٢. المسعودي، التنبيه، ص٣٣٨.

(٦) ابن الأثير ، الكامل، ج٧، ص٥٧.

إتقاناً تاماً وأن تبقى في العائلة نفسها [١]. كما كانت تعتبر بعض الصناعات بنظر العرب البدو من الصناعات الوضيعة وانفوا من امتهانها ونظروا إلى أصحابها نظرة دونية مثل الدلالين والحاكة والأساكفة والحجامين والحلاقين[٢] فتركزت مثل هذه الصناعات بيد اليهود[٣]. كما اختص النصارى واليهود بالصيرفة بسبب تحريم الإسلام للربا. وابتعاد المسلمين عن التعامل بمثل هذه المهن[٤].

فكان هناك صناعات وحرف كثيرة تخصص بها أهل الذمة في بلاد الشام ومن هذه الصناعات:

صناعة الزجاج:

تقدمت صناعة الزجاج في بلاد الشام تقدماً ملحوظاً في العصر العباسي وكان للصناع اليهود دور كبير في هذه الصناعة[٥]، حيث تخصص يهود الشام في تصنيع الزجاج والأواني الزجاجية وكانت بأيديهم معظم صناعة الزجاج[٦]. ومن أشهر المراكز الشامية التي اشتهرت بتصنيع الزجاج مدينة صور فقد احتفظ زجاج صور دائماً بشهرته القديمة الراجعة إلى شفافيته غير العادية. وذلك راجع إلى مهارة الصناع وكلهم تقريباً من اليهود. وإلى جودة المواد الأولية (البوتاس المستخلص من الرماد) التي ينتجها البلد نفسه. وكان التجار يصدرون الزجاج إلى

---

(١) كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٧٧، ص١٦. حتي، تاريخ سورية، ج٢، ص٢٨٩.

Goitein, Studies in Islamic History, P. 26.

(٢) الأبشيهي ، المستطرف ، ج٢، ص٣٢٢. الحجامة: امتصاص الدم من جسم المريض بواسطة كأس الحجام ويكون مليء بالثقوب الصغيرة.

Stillman, The Jews and Arabs, P. 170.

(٣) الجاحظ: رسائل، ج٣، ص٣١٦.

(٤) الجاحظ، المصدر نفسه، ج٣، ص٣١٦. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(5) Goitein, Studies in Islamic History, P. 26

(٦) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٤٧٣. هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمه أحمد رضا. مراجعة وتقديم عز الدين فودة. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ج١، ص١٩١.

Moshe, A History of Palestine, P. 238.

جهات بعيدة ويحصلون منه على أرباح كثيرة[١]. وقد أشاد معظم الجغرافيين بزجاج صور فهذا الإدريسي يقول: وبها يعمل جيد الزجاج والفخار[٢]. كذلك أشار الرحالة بنيامين التطيلي إلى ذلك عند كلامه عن يهود صور فقال بأنه على أيديهم يصنع الزجاج الصوري النفيس الشهير بالعالم[٣]. وذكر آشتور بأن أهالي البندقية الموجودون في صور تعلموا صناعة الأواني الزجاجية الفنية وأعمال التطعيم على يد الصناع اليهود[٤].

كما كانت حلب أيضاً من المراكز التي اشتهرت بصناعة الزجاج وقد تحدث القزويني عند زيارته إلى مدينة حلب عن عجائب سوق الزجاج والتي كانت تحمل إلى سائر البلاد التحف والهدايا[٥]. وكانت مادة المعدن التي تستخدم في عمل الأواني الزجاجية تؤخذ من جبل البشرى في جهات دير القائم الأقصى[٦].

وكانت لدمشق الشهرة نفسها التي كانت لحلب فهذا ابن بطوطة يصف مدينة دمشق ويقول: ".. وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع أواني الزجاج العجيبة"[٧]. ومن المدن الشامية الأخرى التي اشتهرت بصناعة الزجاج الخليل[٨] وأنطاكية[٩] وصيدا[١٠] وعكا[١١]. كما اشتهرت مدينة الرقة بأصناف الفخار ذي البريق المعدني الذي اكتشف بها بكميات كبيرة، كما عثر في هذه المدينة أيضاً على كسر أواني زجاجية في أحد القصور العباسية تعود

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩١.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج١، ص٣٦٥.

(٣) التطيلي، الرحلة، ص٩٢.

(٤) آشتور، أ. التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى. ترجمة عبد الهادي عبله، مراجعة أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٩٨٥، ص٤٠٠

(٥) القزويني ، آثار البلاد، ص ١٨٣، ١٨٤

(٦) الغزي، نهر الذهب، ج١، ص١٠٠. دير القائم الأقصى: على شاطئ الفرات من الجانب الغربي في طريق الرقة من بغداد. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٦.

(٧) ابن بطوطة، الرحلة، ص٨٣.

(8) Frescobaldi, Visit to the Holy Places, P. 133

(٩) التطيلي، الرحلة، ص٨٧

(١٠) حتي، مختصر تاريخ لبنان، ص١٥٧

(11) Moshe, A History of Palestine, P. 238

فترتها إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[١]. وينسب إلى مدينة الرقة صنف من الزجاج المموه بالمينا استخدم فيه التمويه بصورة كثيفة وربما كان هذا الصنف من الزجاج من أقدم ما عرف من الزجاج المموه بالمينا[٢].

والمينا لفظة فارسية وتعني صناعة جوهر الزجاج. وهو اسم لأكاسيد معدنية تصهر بمادة زجاجية. وتزين بها الحلي وأواني الذهب والفضة فتكسبها رونقاً وجمالاً، وقد تخصص القسم الأغلب من الصابنة بهذه الصناعة وكانوا يحرصون كل الحرص على حفظ أسرارها ولا يبوحون للغير عنها[٣].

ولكثرة الطلب على الصناعات الزجاجية في العصر العباسي والتي أصبحت تعتبر من لوازم المنزل ومن متممات الرفاهية تقدمت صناعته وتنوعت حتى صار يضرب المثل بجودته فقيل "أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام"[٤].

ولعل أبدع ما أنتجه صناع الزجاج في بلاد الشام مصابيح أو مشكاوات أو على الأصح أغطية مصابيح كانت توضع بداخلها مسارج زيتية مثبتة بأسلاك في حافة الغطاء وكانت هذه المصابيح تعلق بثلاث سلاسل أو أكثر من الفضة أو النحاس تتصل بمقابض بارزة مثبتة في زجاجها وكانت هذه المصابيح مزخرفة في أغلب الأحيان بأشرطة تملؤها كتابات أو جامات وفروع نباتية تقليدية تكسب هذه المشكاوات بهاء وبهجة[٥]. وقد وصف ابن الفقيه مسجد دمشق فقال فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل[٦].

وفي زمن الأمين ثار أهل دمشق على واليهم منصور بن المهدي عندما أمر صاحب شرطته داود بن عيسى بأخذ قلة من المسجد وإرسالها إلى الأمين الذي كان معجباً بالبلور. فلما

---

(١) عبد الخالق، هناء، الزجاج الإسلامي في متاحف ومخازن الآثار في العراق، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦، ص٩٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٩٠.

(٣) الحسني، الصابئون، ص١٢٩

(٤) الثعالبي، لطائف المعارف، ص١٤٢.

(٥) كريستي ، أ.هـ، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الأوروبية، في تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ترجمة زكي حسن، دشمق، دار الكتاب العربي، طرابلس، مكتبة السائح، ١٩٨٤، ص٥٧.

(٦) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص١٠٧.

علم إمام الجامع الأموي التفت إلى المصلين وقال لا صلاة بعد القلة، فصارت مثلا. واستمرت الفتنة حتى عادت زمن المأمون[١].

صناعة الفسيفساء والقاشاني:

كانت دمشق مركز صناعة واسعة للفسيفساء[٢]. وهي فصوص صغيرة تكون إما من الزجاج الملون وبعضه شاف كالجامات. وإما من الحجر المعجون تغشى بالذهب ويطبق عليها زجاج رقيق ثم يعجن الشيد أي الجص ونحوه بالصمغ العربي ويبسط على الحائط وترصع فيه هذه الفصوص على أشكال شتى ونقوش محكمة تتألف منها صور ورسومات وكتابات تتلألأ بالذهب والأصباغ الزاهية[٣]. ومنه ما هو بجامع دمشق وقبة الصخرة في مدينة القدس[٤]. وكانت معظم الكنائس والأديار مزدانة في جدرانها وسقوفها وهياكلها بهذه الفصوص المذهبة على أشكال شتى من التمثيل والتصوير وقد تنافس فيها كل من النصارى من الملكيين واليعاقبة والنساطرة من أهالي البلاد وتوارثها الخلف عن السلف بعد أن نقلوها وتعلموها من اليونان والرومان[٥]. فعندما سأل الحجاج طبيبه عن أهل الشام قال له أنهم نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفقهم وصناعتهم وشجاعتهم[٦]. فتعلم الشاميون صناعات كثير منهم وصبغوها بالصبغة الشامية فصار لها طابعها المميز بدليل ما قالته فان برشم عن الفسيفساء، ومع تسليمها ببعض مشاركة القسطنطينية بأشغال دمشق فقد رأت في إمعان النظر في فسيفساء دمشق ومقابلتها بما عاينته من آثار الفسيفساء الباقية في أيا صوفيا في القسطنطينية وبعض أبنية سالونيك أن طرائق الفن هي واحدة في كل هذه الأشغال ولكن لدمشق أسلوب خاص في تأويلها وزيادة في تمثيلها وتلوينها بمقدار لا يشاهد في فصوص القسطنطينية اقتبسته دمشق من بيئتها الشرقية[٧].

---

(١) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق مأمون الصاغرجي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٩، ج٢٥، ص٢٦٨. وسيشار له فيما بعد هكذا: ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق. خريسات، التوسع العمراني، ص٢٠.

(٢) حتي، تاريخ العرب، ص٤١٥.

(٣) الزيات، حبيب، الفسيفساء وصناعها قديما من الروم الملكيين، مجلة الشرق، السنة ٣٥، ١٩٣٧، ص٣٣٩.

(٤) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٨٥.

(٥) الزيات، الفسيفساء، ص٣٤٦.

(٦) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص١٤.

(٧) الزيات، الفسيفساء، ص٣٤٦، نقلا عن:

Van Berchem, Max, Materiaux Pour Um Corpus Inscribition Um Arabicarum Deuxleme Partie Syrie Du Sud Tom les Mosaiques de Lamosyuee des Ommayyades a'Dam as Vol. 2, 1927.

وقد تكون خارطة كنيسة مادبا من الدلائل الأخرى على محلية هذا الفن، هذه الخارطة الفسيفسانية التي ترسم معالم المنطقة من البحر المتوسط حتى عمان والبتراء ومن منطقة دمشق حتى دلتا النيل. وتبرز الخارطة مدينة القدس كمركز رئيسي كما تبرز نهر الأردن. والكثير من المواقع في مدينة جبيل على شاطئ المتوسط حتى قلعة الكرك. فإنه من المنطقي أن لا يجهد الصناع الأجانب نفسهم ويفنوا نظرهم وهم يدققون في تقريب قطع الفسيفساء الصغيرة ليخلدوا مدن المنطقة ومراكزها الحضارية. إن عملاً من هذا النوع لا يمكن إلا أن يقوم به مواطن أحب أرضه ومدنها وشعبها وتراثها[١].

كما تعود خارطة مادبا إلى القرن السادس الميلادي وهو العصر الذي كانت تزدهر في مدينة مادبا مدرسة فنية لتعليم فنون الفسيفساء وكانت قد أنشئت قبل ذلك بوقت طويل لأن دقة القطع الفسيفسائية العائدة إلى ذلك العهد تشير بوضوح إلى أن هذا الفن قد قطع مراحل تطورية كثيرة. بالإضافة إلى أن استمرار هذا الفن في أكثر من عهد واحد بشكل تطوري يدل على أنه كان متوارثاً عبر الأجيال[٢]. كما دونت المكتشفات الأثرية أسماء كثير من عمال الفسيفساء المحليين[٣]

كما راجت في دمشق إلى جانب صناعة الفسيفساء صناعة القاشاني وهو اسم يطلق على نوع من القرميد المصقول المسدس الشكل وقد رسمت عليه أحياناً صور زهور مألوفة ويستعمل لتزويق الأبنية والجدران من الداخل والخارج وكان أبرز ألوانه الأزرق النيلي والأزرق الفيروزي والأخضر ثم الأحمر والأصفر أحيانا وكان هذا الفن معروفاً في الزمن القديم عند العيلاميين والآشوريين وظل مألوفاً في دمشق حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي[٤]. كما شاعت صناعة القاشاني في مدينة القدس وكانت محصورة في الأرمن[٥]. ولعل هذه المهنة كانت متوارثة فيهم عبر الأجيال.

---

(١) عطية، بديع التاريخ القديم، بحث في الموسوعة الأردنية، عمان، ١٩٨٩، ج١، ص٢٢٤.

(٢) عطية، التاريخ القديم، ص٢٢٤-٢٢٥.

(٣) بيشة، مناهضة الصور، ص٣.

(٤) حتي، تاريخ العرب، ص٤١٥.

(٥) ربابعة، أحمد، الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة. المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، "فلسطين" مج٢، عمان، ١٩٨٣، ص١٧٣.

صناعة الخمور:

تخصص النصارى واليهود بصناعة الخمور، فقد أبيح لهم بيعها وشراؤها شريطة ألا يظهروها في طريق المسلمين[١]. فاشتهر سكان العديد من القرى والمدن الشامية بصناعتها لكثرة ما كان يزرع فيها من الكروم. وكانت مدينة بيت راس[٢] من المدن القديمة التي اشتهرت بخمورها واستمر سكانها في صنعه في العصور التالية.

قال حسان بن ثابت[٣]: (الوافر)

كأن خبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

فنشربها فتتركنا ملوكا وأسد ما ينهنهنا اللقاء

وقال أبو نواس [٤]: (الوافر)

وتبسم عن أغرّ كأن فيه مجاج سلافة من بيت راس

ومن المدن الأخرى التي نسب إليها الخمر مدينة صرخد قال الشاعر[٥]: (الطويل)

ولذا كطعم الصرخدي تركته بأرض العدى من خشية الحدثان

---

(١) أبو يوسف، الخراج، ص١٢٧. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٨٥.

(٢) بيت راس: اسم لقريتين في كل واحدة منهما كروم كثيرة ينسب إليها الخمر إحداها بالبيت المقدسوقيل بيت راس كورة بالأردن والأخرى من نواحي حلب. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٢٠.

(٣) حسان بن ثابت، حسن بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو الأنصاري (ت٥٤هـ/٩٧٣م) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وتعليق وليد عرفات، تولى طبعه، أمناء سلسلة جب التذكارية، ص ١٧. ابن خردانبة، المسالك والممالك، ص٧٨. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٢٠، والمشترك وضعا، ص٧٥.

(٤) ابو النواس، ديوان ابي النواس، ص ٣٨٨. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١١٣.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤٠١. صرخد: بالقرب من حوران من أعمال دمشق، المصدر نفسه، ج٣، ص٤٠١.

واشتهرت قرية جدر ايضاً بالخمر ونسبت إليها، قال الأخطل: [١] (البسيط)

كـأنني شـارب يـوم اسـتبد بـهم | من قرقف ضمنتها حمص أو جدر

وقيل جدر قرية بالأردن (أم قيس) قال الشاعر: [٢] (المتقارب)

فمـا أن رحيـق سـبتها التجـا | ر مـن أذرعـات فـوادي جـدر

كما اشتهر أهل بعلبك بصناعة الخمور لكثرة الأعناب فيها[٣]. واشتهرت مدينة صيدنايا بكثرة الكرمة والخمر الفائق[٤]. ومن أطيب الخمور خمور القدس إذ قيل عن خمرها "ليس لمعتقها نظير"[٥].

وكان الرهبان أرباب خبرة واسعة في صناعة الخمور وكان المولعون من المسلمين بالشراب من أهل الشأن والشعراء وغيرهم يغشون الأديار فيجدون صدوراً رحبة فيشربون ويطربون فعلى سبيل المثال دير مران بناحية من دمشق نزل به هارون الرشيد، وقصف فيه وشرب، وكان معه حين نزل به الحسين بن الضحاك الخليع فقال فيه أبياتاً منها[٦]: (البسيط)

يـا ديـر مـران لا عريـت مـن سـكن | قـد هجـت لـي شجناً يـا ديـر مـران
سـقياً ورعيـاً لمـران وسـاكنه | يـا حبـذا قـاطن بـالدير مـن كانـا
حـث المـدام فـإن الكـأس مترعـة | ممـا يـهيج دواعـي الشـوق أحيانـا

---

(١) الأخطل، ديوان الأخطل، شرح راجي الأسمر، لبنان، دار الكتاب العربي، ١٩٩٢، ص٧٨. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٢٠. جدر: قرية بن حمص وسلمية. المصدر نفسه، ج٢، ص١١٣.

(٢) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص١١٤.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٠.

(٤) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٣، ص٤٣٨.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٠.

(٦) الأصبهاني، الديارات، ص١٥٤-١٥٥. الحسين بن الضحاك الخليع: شاعر من ندماء الخلفاء ولد ونشأ في البصرة، شعره رقيق عذب، كان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر ويفيد منها توفي في بغداد سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) الأصبهاني، الأغاني، ج٧، ص١٤٦ وما بعدها.

وقال الشاعر في دير الرصافة[1]: (الخفيف)

ليس كالدير بالرصافة دير فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بتة ليلة فقضيت أوطارا ويوما ملأت قطرية لهوا

ودير كفتون ببلاد طرابلس قال فيه الشاعر[2]: (البسيط)

أدير كفتون تكفى كل نائبة من الهموم وتلقى كل سراء
من كل خضراء في الأشجار رمانه وكل صهباء في الكاسات حمراء

ولم ينفرد النصارى بصنع الخمور وبيعها بل شاركهم في الاتجار بها اليهود فكانوا يصنعونه في بيوتهم وخماراتهم ويبيعونه للرحالة وغيرهم[3]. وكان يوجد في مدينة حمص خمارات عديدة لليهود فقد روى ياقوت في معجمه أن أبا نواس اجتاز مدينة حمص فرأى كثرة خماريها وشهرة الشراب فيها فأعجبه ذلك وأقام بها مدة مغتبطاً ومصطبحاً وكان في المدينة خمار يهودي يقال له لاوي فقال لأبي نواس: كيف وجدت مدينتنا وحالنا فيها؟ فقال له: حدثنا جماعة من رواتنا أن هذه هي الأرض المقدسة .. فقال له الخمار؟ أيما أفضل عندك هذه الأرض أم قطربل؟ فقال: لولا صفاء شراب قطربل وركوبها كاهل دجلة ما كانت إلا بمنزلة حانة من حاناتها[4].

إلا أن خمور النصارى كانت أحب إلى الشاربين ولا سيما معتقات الأديار حيث تميز خمارو النصارى باعتصارها وتميزوا بنظافة الآنية وحسن الملبس والإجادة في اختيار الأشربة وتصنيعها[5]. وكانت لهم طرقهم في حفظه وتطييب طعمه ورائحته قال قسطوس إذا نقع تفاح حلو أو سفرجل حلو أو ورق شجر السرو أو ثمرها في ماء في إناء يوماً وليلة ثم يصفى ذلك الماء

---

(١) الأصبهاني، الديارات، ص٩٠.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣٣٥.

(3) Adler, Jewish Travellers. P. 180 .Gucci, Visit to the Holy Places, P. 122

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧١. أسعد، تاريخ حمص، حمص، ق٢، ص١٥٣.
قطربل: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧١.

(٥) الزيات، الديارات النصرانية، ص٣٢٢.

ويمزج به الشراب وقت شربه فإنه يطيب طعمه وريحه[١]. وأطيب أنواع الخمور ما صنع من العنب الأحمر، أما أمتنها وأكثرها تغذية وتقوية ما صنع من العنب الأسود[٢]. كما كانوا يصنعون من عصير التين ومن البر والشعير والأرز وسائر الحب أشربه يسكر منها من يشربها كذلك كان يتخذ من العسل شراب يقارب شراب العنب، إلا أن شراب العنب أشرف هذه الأشربة وأكثرها منافع[٣].

وكانت تفرض في بعض الأحيان قيود على بيع الخمور ويمنع تداولها مما كان بلا شك يترك أثراً على صناعته، ففي سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م سعى أحد ابناء المعتصم ويسميه ميخائيل السرياني "عدو النصارى" باستصدار أمر من أبيه بعدم السماح بإظهار الخمر في أي مدينة أو الطرق فصار الناس يومئذ طعمه للعمال الذين كانوا يتشددون أو يترفقون في تنفيذ هذا الأمر حسبما يشاؤون أو بقدر ما يأخذون. [٤] وفي عهد الخليفة المتوكل أمر بمنع النبيذ في جميع أعماله ولا يباع ولا يشترى حتى صار لا يوجد خمر يرفع به القداس وعدم وجوده فصار النصارى يأخذون عيدان الزرجون يبلوها بالماء ويعصرونها حتى لا يعدموا القربان[٥]. وفي سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م خرج أمر الخليفة القاهر بتحريم القيان والخمر وسائر الأنبذة[٦].

كما كانت تفرض على الخمور أحياناً ضرائب خاصة، ففي نصيبين كانت هناك ضرائب على الشراب تسمى بضرائب اللطف[٧]. وذلك لشهرة الجزيرة بكرومها وكثرة خمورها حتى فاضت المعاصر في إحدى السنين بالخمر[٨]. وفي سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م أصدر الوزير علي بن عيسى بإبطال جباية الخمور فيها[٩]. ثم عادت للظهور وبلغ مجموع أموال اللطف في عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م في مدينة نصيبين خمسة آلاف دينار[١٠].

---

(١) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٩.

(٣) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص٦٠.

(4) Michel Le Syrien, Vol 3, p 97

(٥) ابن المقفع، سير البيعة المقدسة، مج٢، ج١، ص٤.

(٦) مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص٢٦٩. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص١٧٢.

(٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٣.

(٨) التلمحري، التاريخ المنحول، ص ١٧٣.

(٩) مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص٢٩.

(١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٣.

صناعة الحرير:

اشتغل اليهود في الأعمال الحريرية ابتداء من تفكيك غزله إلى نسجه وصباغته. وكانت هذه الصناعة متشعبة ذات تخصص عال وكان اليهود منهمكين في صناعته في كل أقطار البحر المتوسط وربما ترجع مهارة اليهود في ذلك لاتصال تجارهم المبكر مع الصين بالإضافة إلى توفر دودة القز في البلاد الشامية[١].

وكانت مدينة دمشق من المراكز الرئيسية لصناعة الحرير فقد تحدث الإدريسي عن حرير دمشق فقال: "ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى سائر كل بلد ويتجهز منها به إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعده منها ومصانعها في كل ذلك عجيبة يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم ويقارن ثياب تستر وينافس أعمال أصبهان ويشف على أعمال طرز نيسابور من جليل الحرير المصمتة وبدائع ثياب تنيس وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال"[٢]. ومن المدن الشامية الأخرى التي اشتهرت بصناعة الحرير أيضامدينة حلب فقد كانت المنسوجات الحريرية من ضمن صناعاتها[٣].كما اشتهرت عسقلان بقزها الفائق وخيرها الدافق[٤]. وازدهرت صناعة الحرير في باقي مدن الساحل مثل غزة[٥] وأنطاكيا وطرابلس وصور[٦] وعكا وبيروت واللاذقية[٧]. كما كانت قنسرين مركزاً مرموقاً في إنتاج الحرير[٨]. ويذكر أن النساء اليهوديات شاركن في صناعته في جميع مراحله العملية[٩].

---

(1) Goitein, Studies in Islamic History, P. 261.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٦٩.

(٣) الغزي ، نهر الذهب، ج١، ص١٢٨.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٤.

(٥) أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص١١٤.

(٦) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٠. ليونهارت، رحلة المشرق، ص٣٣.

(٧) رنيسمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٠٣.

(٨)لومبارد، الجغرافية التاريخية، ص٢٤٠.

(٩) Adler, Jewish Travellers, P. 135

The Jewish Encyclopedia New York: Ktav Publishing House, 1904. Vol. 7. P. 132.

صناعة النسيج:

عمل النصارى في صناعة النسيج وكانوا يتعيشون منها[١]. ولم يجتذب اليهود كثيراً إلا في مراحل تصنيعه العالية النهائية فكان نسيج الكتان على الأقل في مراحله الأولى العمل الرئيسي لسكان البلاد من النصارى[٢].

وكان من أهم اسباب تقدم النسيج في بلاد الشام كثرة الطلب على المنسوجات الشامية وتوفر خامات النسيج ومستلزماته فانتشرت زراعة القطن في معظم الاراضي الشامية فكانت الأراضي الممتدة من بيروت إلى دمشق ملينة بمزارع القطن[٣]. واشتهرت مدينة طبرية بزراعة القطن[٤]. والحولة كانت معدن الأقطان والأزهار[٥]. كما زرع الكتان في سهول فلسطين[٦]. واشتهرت مدن الجزيرة الفراتية بزراعة القطن فامتازت حران بجودة أقطانها[٧]. وعربان كانت كثيرة الأقطان يجهز منها الثياب القطنية إلى الشام[٨]. كما اشتهرت نصيبين بجودة أقطانها[٩].

وهذه الوفره في زراعة الاقطان والكتان ساعدت على تقدم الصناعات النسيجية فاشتهرت مدينة حلب بالمنسوجات الحريرية والقطنية والعباءات واللبابيد والجوارب والمناديل وما شاكل ذلك [١٠]. وكان يصنع في انطاكيه الثياب المصمته الجياد والعتابي والتستري والاصبهاني وما شاكلها[١١]. واشتهرت طبرية بشقاق المطارح والبز، وقدس بالثياب المنيره

---

(١) القسطالي ، نعمان، الروضه الغناء في دمشق الفيحاء، د. ن، ١٨٧٩، ص١٢١.

(2) Goitein, Studies in Islamic History, p 261.

(3) Fresscobaldi, Visit to the Holy Palces, p88.

(٤) زايد ، رحلة دي لابوركير، ص٣١١.

(٥) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٦٠.

(٦) رنسيمان، الحروب الصليبية ، ج٣، ص٦٣.

(٧) المقدسي ، احسن التقاسيم، ، ص١٤١.

(٨) ابن حوقل، صورة الارض، ص٢٠٠. عربان: وهي بليده بالخابور من أرض الجزيرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٩٦.

(٩) ابن حوقل، صورة الارضن ص١٩٣.

(١٠) الغزي، نهر الذهب ، ج١، ص١٢٨.

(١١) الادريسي ، نزهة المشتاق، ج٢، ص ٦٤٥.

والبلعيسية والحبال(١). كما ضرب المثل بميازر الرمله، وكان البزازون فيها من أغنياء البلدة(٢).

كما اشتهرت مدينة دمشق بصناعاتها النسيجية الفاخرة التي حملت اسمها في الاسواق الغربية حيث اطلق عليها الدمساك(٣). او الدمسكس Damasks المشتق من اسمها "Damascus"(٤). ونافست صناعاتها النسيجية والحريرية أفخر الصناعات واحتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة(٥).

وعمل النصارى بصناعة البسط والسجاجيد سواء الحريرية او الصوفية ووجدت صناعتها في المناطق التي يكثر فيها النصارى فعندما استولى الصليبيون على انطاكية وجدوا من الغنائم بخلاف الذهب والفضه والأحجار الكريمة والأواني الفاخرة سجاجيد وأقمشة من الحرير الخالص(٦). كما اشتهرت مدينة طبرية بصناعة السجاد وسجاجيد الصلاة التي كانت تدعى بالسجاد الساماني وكان صناعها من اليهود(٧). وقال المقدسي عن أهلها بأن أكثرهم ينسجون الحصر ويفتلون الحبل(٨). وأعناك من نواحي حوران كان يعمل فيها بسطاً وأكسية جيدة تنسب اليها(٩). كما اشتهرت مدينة الرملة بصناعة السجاد فقد جاء في احدى وثائق الجنيزة انه كان من بين جهاز العروس سجادة رملية(١٠).

---

(١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨١.

(٣) العبادي، أحمد مختار، الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية، مجلة عالم الفكر، الكويت، ابريل-مايو-يونيو، ١٩٨٠م ، ج١١، عدد١ ، ص١٤٥.

(٤) كريستي ، الفنون الاسلامية، ص ٦٢.

(٥) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، مج١، ص ٣٦٩.

(٦) هايد، تاريخ التجارة ، ج١، ص١٩٠.

(٧) أشتور ، التاريخ الاقتصادي، ص ٧٤. Moshe, Ahistory of Palestine, p 230

(٨) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٦٢

(٩) ياقوت الحموي،، معجم البلدان، ج١، ص ٢٢٢.

(10) Goitein, Studies in Islamic History, p 266.

صناعة الزيت والصابون

راجت صناعة الزيت في بلاد الشام وسمي زيتها بالركابي لانه كان يحمل على الابل وكان يضرب به المثل في الصفاء والنظافة[١]. وكانت اشهر مدينة بصناعة الزيت هي مدينة نابلس وكان يحمل زيتها إلى مصر ودمشق[٢].

كما اشتهرت اللجون في الزيت والزيتون[٣].وأشار ناصر خسرو إلى كثرة الزيت في مدينة القدس وقال فيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم منتي ألف منْ من زيت الزيتون[٤]. وعندما دخل الروم مدينة حلب سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م، صبوا في جباب الزيت الماء حتى فاض الزيت على وجه الارض[٥]، كما اشتهرت مدن الجزيرة الفراتية بكثافة الزيتون وصنع الزيت[٦].ومن الدلائل على توفر مادة الزيت في بلاد الشام أنه فرض على بعض سكان المدن المفتوحة أن يقدموا للفاتحين في بداية الفتوحات الإسلامية مع جزية الدينار الزيت والخل والعسل[٧].

وكان يتم عصر الزيت بطرق بسيطة اذ يورد قسطوس إحدى هذه الطرق ويقول بعد أن ينقى الزيتون مما فيه من الورق يرش بالملح وينشر على ثوب في الشمس وبعدان يجف بعض الجفاف يطحن برحى يدويه طحناً رفيعاً حتى لا تتكسر البذور لانها تضر بطعم الزيت ثم يجعل بعد طحنه في زنبيل من قضبان شجرة الغرب ويجمع ما يسيل منه عن الزيت فاذا انقطع سيلانه ثقل الزنبيل ببعض الثقل وجمع ما يسيل منه من الزيت واذا انقطع سيلانه بولغ في تثقيل الزنبيل حتى يخرج ما بقي منه من الزيت[٨]. وبعد أن يجمع الزيت يلقى فيه كف من الملح والبورق بعد دقهما ويحرك بعصى من شجر الزيتون ويترك حتى يصفو ثم يفرغ في أواني زجاجية أو فخارية

---

(١) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ١٢٢.

(٢) ابن بطوطه ، رحلة، ص ٥٦.

(٣) ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان، ص ١١٧. اللجون، بلد بالاردن بينه وبين طبريه عشرون ميلاً، ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج٥، ص١٣.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامة، ص٥٦. المن: يساوي شرعاً رطلين. هنتس، المكاييل الإسلامية، ص٤٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية ، ج١١، ص ٢٣٩.

(٦) التلمحري ، التاريخ المنحول، ص ١٦١.

(٧) انظر: الفصل الأول، عهود الصلح.

(٨) قسطوس بن لوقا، الفلاحة الرومية، ص ١٠٣، شجرة الغرب: هي شجرة الحور من الفصيلة الصفصافية. المعجم الوسيط، ج٢، ص٦٤٧.

مدهونه من داخلها ويحفظ بعيداً عن الحرارة والرطوبة. كما كانت لهم خبراتهم العملية في ازالة المرورة لتطييب طعم الزيت كأن يلقى فيه شيء من عروق الاترج الحقلية فانه يطيب طعمه واذا ألقي بالزيت المنتن أعواد من شجر الزيتون بعد دقها صلح وطاب طعمه[١].

وإلى جانب صناعة الزيت راجت صناعة الصابون واشتهرت مدينة نابلس والرملة في صناعة الصابون فقد ورد في إحدى وثائق الجنيزة الذي يعود تاريخها إلى ٤٣٢هـ/١٠٤٠م بأن صابون الرملة كان يباع في الفسطاط بأربعة دنانير للقنطار وكان يدعى بالصابون الشامي[٢]، كما اشتهرت أيضاً مدينة سرمين بصناعة الصابون وكان ينقل صابونها إلى مصر والشام[٣]. كما أشار ابن حوقل إلى أن مدينة بالس كان يعمل بها الصابون الكثير[٤]. وكان اصحاب هذه الصناعة يستخدمون فيها مادة الدردار المستخرجة من رماد عيدان شجر الدردار او من عشبة الشمان التي تنبت في البلقاء[٥].

صناعةالصياغة والتكفيت:

كانت مهنة الصياغة في العصر العباسي من المهن المحصورة في طائفة النصارى[٦]. وقد راجت هذه الصناعة في العصر العباسي لاشتداد الطلب عليها من قبل الطبقة الغنية فاتصل أصحابها بالخلفاء والحكام[٧]. وقد وظف الصياغ مهارتهم في استخدام الذهب والفضة في صنع أدوات الزينة الاعتيادية والأدوات الذهبيه كالمزهريات والكؤوس والسلاسل الدقيقة والملابس والبسط الموشاه بالذهب وغيرها من أدوات الترف التي كان يزين بها المنازل على اختلاف أنواعها[٨]، كما رصعت التحف والأدوات الذهبية بالاحجار الكريمة كالألماس والياقوت والزمرد

---

(١) قسطوس بن لوقا، المصدر السابق، ص ١٠٤

(2) Moshe, Ahistory of Palestine, p 231.

القنطار: القنطار الواحد يساوي من حيث الاساس ١٠٠ رطل، هنتس، المكاييل الاسلامية، ص٤٠.

(٣) ابن بطوطه ، الرحلة ، ص٦٣.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٥

(٥) غوانمة، يوسف، التاريخ الإسلامي، بحث في الموسوعة الأردنية، ج١،ص٢٧٩.

(٦) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٨.

(٧) ترتون، أهل الذمة، ص١٠٠.

(٨) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٢٨. زيادة، نقولا، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ص١٩٩٠، ص١١٥.

والفيروز والمرجان والعقيق واللؤلؤ. ونقشت عليها زخارف جميلة تنم عن دقة الصنعة وجمال الفن ورواج صناعة الذهب والفضه وتقدمها[١].

وبرع الصياغ في صناعة تكفيت التحف المعدنية بالذهب والفضة والتكفيت يعني تطعيم المعدن بمادة أقيم كتطعيم النحاس بالفضة أو الفضة بالذهب[٢]. وذلك بأن تحفر الزخارف على سطح الآنية أو الحلية والمراد زخرفتها حفراً عميقاً ثم يملأ هذا الجزء المحفور بالفضة أو الذهب أو المينا أو النحاس الأحمر[٣]. وكانت تعرف عادة باسم الصناعة الدمشقية Damascening[٤].

كما امتلأت الكنائس والأديرة بالأواني المعدنية النفيسة وخاصة تلك التي صنعت لاستعمالها في الطقوس الدينية وغالبيتها من الفضيات والمذهبات التي أسالت لعاب الطامعين فيها فتعرضت للنهب والمصادرات ففي عهد الخليفة المنصور أمر بخلع الباب الذهب الذي عمله قسطنطين لكنيسة القيامه وحمله إلى بيت ماله[٥].وصادر كنوز الكنائس وباعها لليهود[٦]. كما كسب الصاغة اموالاً كثيرة احياناً عن طريق غشهم فكانت لهم طرقهم المختلفة في السرقة والغش[٧].

صناعة البناء:

اشتهر النصارى بحرفة البناء، ويبدو ان طائفة الأرمن بصفه خاصة اشتهروا بنشاطهم المعماري وامتازوا ببراعتهم المهنية وطرزهم وأنماطهم وإليهم يرجع الفضل في بناء الكثير من

---

(١) الدمشقي ، الإشارة إلى محاسن التجاره ، ص ٤٤-٥٠، الغزي، نهر الذهب، ج١، ص ٩٤. الدوري المرجع السابق، ص١٢٨

(٢) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص١١٨.

(٣) كريستي ، الفنون الاسلامية الفرعية، ص ٢٦.

(٤) المرجع نفسه ، ص٢٧.

(٥) ماري بن سليمان، اخبار فطاركه كرسي المشرق، ص ٧٠

(6) Theophanes, The Chronicle, p119.

انظر ايضاً ، الفصل الثالث، العلاقات الاجتماعية، وما تعرضت له الكنائس من احداث النهب والسرقة.

(٧) ابن الفوطي، الحوادث الجامعه، ص ٣٨، الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبه، تحقيق الباز العريني باشراف محمد مصطفى زياده، القاهرة، مطبعة لجنة التاليف والترجمة، ١٩٤٦م، ص٧٨.

المساجد والقصور واقامة التحصينات الحربية كالحصون والقلاع وأسوار المدن[١]. كما أشارت بعض المراجع إلى أن اليهود أيضاً ساهموا في أعمال البناء[٢].

وقد ترك هؤلاء البناءون عدداً من الصروح المعمارية المتميزة في جميع المدن الشامية كالمساجد والأضرحة وقنوات المياه والقصور[٣]. واتخذت العناصر المعمارية مظاهر زخرفية مثل المقرنصات كما استخدمت الالواح الرخامية والفسيفساء والنحوتات الجصية والحجرية في زخرفة وتزيين واجهات المنازل والقصور[٤].

ونتيجة لنشاط عملية البناء نشطت عملية قطع الحجارة من المحاجر الكثيرة التي انتشرت في البلاد الشامية والتي كان يستخرج منها الحجارة والرخام ذات الالوان المختلفة وقد كان العمال يجدون مشقة بالغة في قطع الحجارة لضخامتها[٥].

واشتهرت معظم مدن الشام بحجارتها وكانت بعلبك أشهرها، حتى قيل ليس بأرض الشام ابنية حجارة أعجب ولا أكبر منها[٦]. كما اشتهرت مدينة الرملة بكثرة الرخام وقد زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة، وكان الرخام يقطع بمنشار لا أسنان له وبالرمل المكي (يستعمل في الصياغة) ويعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا بالعرض فيخرجون منه الواحاً كألواح الخشب. وهناك انواعاً وألواناً من الرخام من الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض ومن كل لون[٧]. فعندما أمر المعتصم ببناء مدينة سامراء، أحضر العمال والبنائين من سواحل بلاد الشام فاقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام[٨].

وقد رافق البناؤون والحجارون الحملات العسكرية للاشتراك في عمليات الهدم. وبناء الحصون وتجديد بناء ما هدم منها، ففي سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م، وجه المنصور عبد الوهاب بن

---

(١) رنسيمان، الحروب الصليبية ، ج٣، ص٦٣٥.

(2) Ye` or, The Dhimmi, p68.

(٣) سوفاجيه، جان، دمشق الشام، ترجمة افرام البستاني، تحقيق أكرم العلبي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦م، ص٤١.

(٤) ديماند، أ. س، الفنون الاسلامية، ص١٠٨، ١٠٩،

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٨، ٤٨، ٥٣.

(٦) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص١٦٢، ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان، ص ١١٨.

(٧) ناصر خسرو، المصدر السابق، ص ٥٤-٥٥.

(٨) اليعقوبي ، البلدان، ص ٢٥٨.

ابراهيم الامام الذي كان والياً على الجزيرة وثغورها في جنود من أهل خراسان لاعادة بناء ملطية وتحصينها، فجمع الفعله من كل بلد، وفرغ من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر[١].

وفي سنة ١٤٩هـ/ ٧٦٥م غزا العباس بن محمد أرض الروم وأوكل إلى فريق من البنائين تشييد حصن زياد وأخذ من تبقى منهم إلى الداخل لمحاصرة حصن "كمخ"[٢]. فكانوا يتعرضون للموت والقتل فأمر المنصور ان يعفى الصناع والقرويون من العمليات العسكرية ويرتبهم في خدمات لا تعرضهم للموت[٣]. وفي عهد الخليفة الرشيد قام الحجارون بتدمير الكنائس الواقعه غربي نهر سنجه وبحجارتها تم بناء سور مدينة الحدث[٤].

صناعة الصباغة :

كانت الصباغة مزدهره ازدهار صناعة النسيج وكانت مركزه بأيدي اليهود حتى كادوا أن ينفردوا بها أينما كانوا قال الجاحظ : "ولا تجد اليهودي الاصباغاً او دباغا او حجاماً أو قصاباً او شعابا"[٥]. وعندما تحدث المقدسي عن إقليم الشام قال: واكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين في هذا الإقليم يهود[٦]. كما وجد بنيامين التطيلي ان اليهود كانوا يحتكرون صناعة الصباغة في المدن التي وجدوا بها ولو كان واحداً في بلد فانه كان يشتغل بهذه الصناعة[٧].

وقد راجت صناعة الصباغة في بلاد الشام لتوفر النباتات الصابغة فمثلاً فقد اشتهرت اريحا بزراعة النيل[٨]. والوسمة وهو نوع من انواع النيل[٩]. كما كان ينقل النيل من زغر وبيسان[١٠].

---

(١) التلمحري ، التاريخ المنحول، ص١٢٥، ابن الاثير، الكامل ، ج٥، ص ١٢٧.

(٢) التلمحري، المصدر السابق، ص ١٣٥، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ٢٨. حصن زياد: بأرض ارمينية ويعرف اليوم بخرتبرت وهو بين أمد وملطية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٦٤. كمخ: مدينة بالروم ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج٤، ص ٤٧٩.

(٣) التلمحري ، التاريخ المنحول، ص ١٤٦.

(4) Michel Le Syrien, , vol 3, p 8.

ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٣.

(٥) الجاحظ، رسائل ، ج٣، ص ٣١٦.

(٦) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٣.

(٧) التطيلي، الرحلة، ص ٩٠، ٩٩، ١٠٤، ١٠٨.

(٨) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٧٤.

(٩) ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٢٨. Moshe, Ahistory of Palestine, p 239.

(١٠) ابن حوقل ، صورة الارض، ص ١٦٩، المقدسي ، احسن التقاسيم، ص ١٨٠.

وأنتجت ضواحي دمشق ووادي نهر العاصي نبات (الفوّة)، وكان البحر يلقي على شاطئ صور الأرجوان تلك الصدفه المعروفه من قديم الزمان يستخرج منها اللون الأحمر الأرجواني[١].

كما مهر اليهود في الحصول على دودة القرمز وهي حشيشة في اصلها وردة حمراء لا تنبت إلا في ثلاث مواضع من الأرض، في ناحية المغرب بأرض الاندلس وفي تارم من ناحية شيراز وفي أرض فارس ولا يعرف مواطن هذه الحشيشة الا اليهود فكانوا يتولون قلعها في الشهر الثاني عشر من السنة الشمسية فتيبس تلك الدودة ويصبغون بها "الابريسم (الحرير) والصوف[٢]. كما استعمل الزعفران للصباغ باللون الأصفر واشتهرت مدينة سلمية بزراعته[٣].

بالإضافة إلى الأصبغة السابقة كانوا يستعملون مواد أخرى للصباغة مثل ماء الورد أو المسك أو العنبر، وكانوا يعصرون الريحان العربي، أو الريحان الفارسي، أو شيئا من الرياحين، ويغمسون الثياب في الماء المستخرج منها، وقد يستعملون ماء النباتات الأخرى مثل نبات المدر أو السدر أو الشيح أو القيصوم أو البشام. أو ما أشبهها وذلك بعصر هذه النباتات أو بطبخها واستعمال الماء المتحصل منها لغمس الثياب فيها لصباغتها[٤].

وكان لاقبال الناس في هذا العصر على ارتداء الملابس المزركشة والملونه إلى جانب شيوع التخصص بالألوان فكان اللون الأسود الشعار الرسمي، والاخضر شعار العلويين، في حين كانت الملابس الصفراء المصبوغة بالزعفران محببة لدى المغنيين[٥]. أن تفنن الصباغون في مهنتهم فكان بعضهم يختص بالصبغ بصبغة واحده، وبعضهم بالأصباغ المركبة عن طريق خلط الاصباغ الاولية، وقد يصبغون الغزل قبل حياكته. فيلفون الغزل ويدرجونه أي يعصبونه ثم يصبغونه، فيكون كل خيط من خيوط النسيج مبقعاً أي ان بعضه مصبوغا وبعضه الأخر يكون أبيضاً، وكان هذا النوع يسمى (العصب) ويكون الثوب المنسوج بالعصب ذا ألوان متعددة. وأما

---

(١) هايد، تاريخ التجارة ، ج١، ص ١٩٠-١٩١.

(٢) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص ٢٤.

(٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٣٤.

(٤) بطاينة، محمد ضيف الله، الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، ١٩٨٨، ص١٥٤.

(٥) آشتور، التاريخ الاقتصادي، ص ١١٥، الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٢٥.

إذا طبعت الألوان على الألبسة أو نقشت بعد إنجاز نسجها كانت تسمى (الوشي)[١]. وهذا التنوع في الألوان يدل على فن راق في صناعة الصباغة[٢].

كما مهر أهل الذمة بصناعات متعددة أخرى مثل الصناعات الخشبية الثقيلة والخفيفة فشاهد ناصر خسرو في مدينة عكا عمالاً يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي[٣]. وفي صور دار الصناعة (صناعة المراكب) ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم[٤] كما كان يجيد الصابئة صناعة القوارب الخشبية على اختلاف أحجامها وأوساقها[٥].

اما الخفيفة مثل الملاعق والصحون فكان يصنع في بعلبك أوان خشبية وملاعق لا نظير لها في البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفه تسع في جوفها واخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة فيخيل للرائي أنها واحدة، وكذلك الملاعق يصنعون منها عشراً واحدة بجوف واحدة ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه واذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظهر للرائي أنها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعه[٦].

كما مهروا ايضاً في صنع صناعات دقيقة مثل أقفال الأبواب والسكاكين والأمواس والإبر وعصا الكحل[٧]. وصنع الأحذية والصناعات الجلدية[٨]، وصناعة الشمع والعسل[٩]. وتصنيع المأكولات المشتقة من الحيوانات كاللبن والسمن والجبن[١٠]. وصناعة الورق والأقلام والمداد فاشتهرت طبرية بصناعة الكاغد الجيد[١١]. كما شاهد ناصر خسرو مصانع الورق في طرابلس وقال ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه[١٢].وكان

---

(١) بطاينة، الحياة الاجتماعية، ص ١٥٥.
(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٢٥.
(٣) ناصر خسرو، سفرنامه ، ص ٥٣.
(٤) اليعقوبي، البلدان، ص٣٣٧
(٥) الحسني، الصابئون، ص١٢٩.
(٦) ابن بطوطه، الرحلة، ص ٧٩.
(7) Goitein, Studies in Islemic History, p 251-258.
(8) Adler , Jewish Trarvllers, p 135.
(٩) ابن بطوطة، الرحلة، ص٨٧، الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٩٤.
(١٠) ابن بطوطه، الرحلة ، ص ٨٧. ربابعة، الصناعة في فلسطين، ص١٦٦.
(١١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٠، ابن بطوطه ، الرحلة ، ص ٨٧.
(١٢) ناصر خسرو، سفر نامة، ص٤٨

الورق القادم من دمشق او من طرابلس أو من صور الى مصر ينفق قبل حلول الظلام ويكون عليه علامه تجارية تشير إلى مكان الصنع واسم الصانع[١].

كما امتهن اليهود مهنة السحر وخاصة طائفة السامرة[٢]. كما مهر النصارى بحرفتي التنجيم والطب[٣]. اما الأعمال الوضيعة والتي انف العرب من امتهانها كالقصابه والحجامه والدلالة والحياكه[٤]. كانت جميعها من مهن اليهود[٥]. إلى جانب انهماك اليهود بحرفة نسخ الكتب وخاصة نسخ أوامر المشنا وتفسير التوراة ففي أحد رسائل الجنيزه يطلب فيها شخص يهودي في الرملة من صديقه في القدس ان يرسل اليه ببعض الكتاب لأن الكتبه كانوا في الرملة قليلين[٦].

النشاط التجاري

نال أهل الذمة في بلاد الشام حظهم من الإزدهار التجاري كبقية أفراد المجتمع فكان لهم دورهم في التجارة الداخلية والخارجية، وامتلك تجارهم المقومات والاسس التي تساعدهم على الإشتغال بالتجارة فتوفر لديهم رأس المال الوفير ومهروا في أعمال الاقتصاد وأصول التجارة وفنون الحساب وتعدد اللغات[٧].

وكان لهم نشاطهم الواضح في المؤسسات المالية ففي النصف الاول للقرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي أشار الجاحظ عند ذكره للنصارى بقوله، ومما عظمهم في قلوب العامه ان منهم كتاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفه.. بينما لا تجد اليهودي الاصباغا ودباغا أو حجاما أو قصابا أو شعابا[٨].

---

(1) Moshe, A history of Palestine, p. 235.

(٢) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب، ج٦، ص ٥٦٠.

(٣) الجاحظ ، رسائل ج، ٣، ٣١٤، المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٣، ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة، ص ٣٨.

(٤) الابشيهي، المستطرف، ج٢، ص ٣٢٢.

(٥) الجاحظ، رسائل ، ج٣ ، ص ٣١٦.

(6) Moshe, A history of Palestine, p 232.

(٧) الغزي، نهر الذهب، ج١، ص ٢٠٤، ليونهارت ، رحلة المشرق، ص ٣١.

(٨) الجاحظ ، رسائل ، ج٣، ص ٣١٦.

ويتحدث المقدسي عن الوضع في بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي فيقول: وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفه والدباغين بهذا الأقليم يهود وأكثر الأطباء والكتبه نصارى[١].

ثم جاء ابن الفوطي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وقال : "ومنهم الجهابذة وما يسرقون في القبض والتقبيض ومنهم الصيارفه واحتجاجهم ببضاعة دار الضرب[٢].

من تلك النصوص يجد القارئ أن النصارى واليهود كانوا يعملون بأعمال الصيرفه والجهبذة سواء كان ذلك في العراق أو في الشام، كما تشير تلك النصوص إلى التحول الكبير الذي حصل في وضع اليهود فمن امتهانهم المهن البسيطة إلى الى امتهانهم مهن الصيرفة ومنافستهم للنصارى حتى كادوا أن يبعدوهم عنها واستفرادهم فيها في الشام.

كما أوضح ابن الفوطي عمل كل من الجهابذه والصيارفة ، فالجهابذة هم الذين يشتغلون بالتسليف وإقراض الناس مقابل فائدة معينة ؛ فالجهابذة بمثابة تجار يشتغلون بتسليف الأموال مقابل فائدة معينة [٣].

أما الصيارفة فهم الذين يحتجون ببضاعة دار الضرب وجاء معنى هذا عند ابن الأخوة بأنهم كانوا يتوسطون بين الناس ودار الضرب بأخذ الفضة والذهب من الناس لصكهما دافعين لأصحابهما نقودا تعادلهما في القيمة الاسمية وبهذا كانوا يستفيدون من الفرق بين القيمتين ويحققون أرباحاً كثيرة [٤].إلى جانب المهمة الأولى للصراف وهي تقييم النقود من حيث الجودة ووزنها وهذا ما يتطلبه تعدد العملات وأثر التداول على وزن النقود وهي مهمه ضرورية للمعاملات التجارية، كما يقوم الصراف بتحويل النقود من الذهب إلى الفضة أو (بالعكس) أو

---

(١) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٨٣.

(٢) ابن الفوطي، الحوادث الجامعه، ص ٣٨.

(٣) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٩١.

Goitein , Amediterranien Society, vol, 1, p249, 331.

(٤) ابن الأخوة، معالم القربه ، ص ١٢٤، الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٩٢. دفتر، ناهض عبد الرزاق، دور الضرب والقائمون عليها وأنواع المسكوكات في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لبلاد الشام، ١٩٩٠، ص٧.

صرفها لأغراض التجارة خاصة، ولم يكن سعر التحويل يعتمد على النقود وحدها بل علـى حالـة الأسواق والاعتبارات التجارية وسعر الذهب والفضـة[١].

وكان الصيارفه يفيدون من الودائع لأغراض صرف العملات مقابل فائدة وإصدار سفاتج مقابل أجور وللإقراض أو التسليف ويشترك الجهبذ مع الصراف في العمليتين الأخيرتين كما يفيد من النقد المودع لديه في المضاربة أو في المساهمة في الشركات[٢].

ولاشتراك الجهبذ والصراف في الإقراض والتسليف فإن المصادر والمراجع المتأخرة قالت بأن الجهبذ (القسطار) هو الصيرفي الناقد[٣]. وهو الذي يتولى قبض الأموال وصرفها وهـو مأخوذ من كلمة الصرف وهو صرف الذهب والفضة بالميزان. وكان يقال له فيما تقـدم جـهبذ[٤]. لكن المصادر المعاصرة للعصر العباسي فرقت بين الجهابذة والصيارفة كما ورد فـي الأمثلـة السابقة.

ومن المعروف أن مدلول كلمة جهبذ لـم يكن ثابتاً فـي العصور الإسلامية الأولـى، بـل تطور بتوسع واجبات الجهبذ ومهامه فقد كان الجهابذة ابتداء كتاباً ماليين في بيت المال يقومون بتدقيق نوعية النقود والأموال الواردة إلى بيت المال وعمل حسابات بما يرد اليه. وفـي العصر العباسي توسع الجهبذ إلى الأعمال المصرفية حيث يفهم من نص ابن الفوطـي انهم كـانوا تجاراً حققوا من التجارة أرباحاً وافره ثم وسعوا اعمالـهم وصاروا يتعاملون بالإئتمان مـن تسليف الأموال وقبول الودائع فصاروا اصحاب بيوت مالية كما استعان بـهم رجال الدولـة والأغنيـاء لحفظ أموالهم وإدارة ضياعهم[٥].

---

(١) الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٩٢.

Goitein , Amediterranian Society, Vol. 1 p 234.

(٢) الدوري ، المرجع السابق، ص ١٩٤.

Goitein, Op, Cit, vol1, p 247

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ٩٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٣٨. الزيات، حبيب، الصيارفه في الإسلام، مجلـة المشـرق ، مـج ٣٥، السنة ١٩٣٧م، ص ٤٩١.

(٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ١٩١. كـاتبي، غيداء، الجهبذه في العراق وتطورها خـلال القرن الرابع الهجري، مجلة دراسات ، مج٢٦، عدد ٢، ١٩٩٩، ص ٣٥٢.

وكانت السفتجة أهم أداة للمعاملات المستندة إلى الإئتمان، وتعني بأن يعطي (رجل) مالا لآخر وللأخذ مال في بلد المعطي فيوفيه إياه ثم (أي هناك) فيستفيد أمن الطريق[١]. أي أنها وجدت كوسيلة لتجنب أخطار المواصلات وكات تجري باتفاق فردي[٢].

ثم لوحظت أهمية السفتجة في التحويل فشاع استعمالها في القرن الرابع الهجري حتى صارت عاملاً مهما في الحياة الاقتصادية فأخذ الولاة يرسلون ما زاد من دخل ولاياتهم إلى بغداد بسفاتج، ففي سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م، أرسل والي مصر والشام سفاتج بـ ١٤٧,٠٠٠ دينار[٣]. اذ كانت القوافل تتعرض للنهب وقطاع الطرق فعلى سبيل المثال في سنة ١٩٣هـ/٨٠٨م حملت الأموال من مصر إلى بغداد ولما صارت بفلسطين وثب اهل الرمله على المال فقالوا هذا عطاؤنا قد ساقه الله الينا فأخذوا عطاءهم كاملاً وادخلوا الباقي بيت المال[٤].

أما أهم فائدة للفستجة فهي استعمالها من قبل التجار لتصفية حساباتهم بين الأقطار المختلفة لكتابة السفاتج على وكلائهم[٥]. واستعملت السفتجة أيضاً لتسوية الديون في المعاملات التجارية. فهي تعني في علم الاقتصاد حواله صادره من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين في تاريخ معين لاذن شخص ثالث او لإذن الدائن نفسه او لإذن الحامل لهذه الحواله[٦]، فكان لكل سفتجة تاريخ معين والسفتجه كلمة فارسية وتسمى بالعربية الرقعه[٧].

ثم استعملت السفتجة كاستعمال صكوك المسافرين في الوقت الحاضر Travellers Cheques إذ يروي التنوخي على لسان دقاق بالبصرة، أودع رجل غريب سفتجة بأجل فكان

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٢٩٨. القاموس المحيط، ج١، ص ٤٣٢.

(٢) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٩٥.

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص١٤٦.

(٤) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري، (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح وفن كست، اعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى بغداد، بيروت، مطبعة الاباء اليسوعية، ١٩٠٨م، ص١٤٦

(٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٩٦.

(٦) القاموس المحيط، ج١ ، ص ٤٣٢.

(٧) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٨، ص١١٥-١١٨.

Goitein ,Amediterranian Society, vol,1 , p242.

يتردد إلى أن حلت، ثم قال أدعها عندك وآخذها متفرقة فكان يجيء كل يوم ويأخذ بقدر نفقته إلى أن نفذت[١].

والوسيلة الثانية من وسائل الائتمان التعامل بالصك، والصك يعني الكتاب وهو أمر خطي بدفع مقدار من النقود إلى الشخص المسمى فيه وهي كلمة فارسية معربة والأصل (صك) ولا يزال أثرها حتى هذا العصر في كلمة (Cheque) [٢].

وجاء وصف للتعامل بالصك على لسان ناصر خسرو عندما تحدث عن المعاملات التجارية في سوق البصرة فقال والعمل في هذا السوق هكذا، كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه صكاً، ثم يشتري كل ما يلزمه ويحول الثمن على الصراف فلا يستخدم المشتري شيئاً غير صك الصراف طالما يقيم في المدينة[٣]. ومن المرجح أنه كان يتم التعامل بالصك في معظم الأسواق في باقي أقاليم الدولة العباسية، اذ يذكر جوايتن انه من بين مهام وكيل التجار إيداع الأموال لديه ويكون الدفع من خلاله[٤].

فاستفاد الجهابذة والصيارفة من عملهم هذا اذ كانت المعاملات المصرفية ناشطة في تلك الفترة و خاصة ان الفقهاء حاولوا ايجاد وسائل مشروعة للخلاص من التعامل بمثل هذه المعاملات فقد كتب محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ/٨٠٤م) كتاب المخارج في الحيل، سمح فيه عملياً بيع البضائع دون رؤيتها، واجاز التأخير في الدفع ونقل الديون وتخفيف الدين في حالة الدفع المعجل والدفع بأقساط[٥].

ونسج الخصاف أبو بكر أحمد بن عمر الشيباني (ت ٢٦١هـ/٨٧٤م) على منواله في كتابه الحيل والمخارج بعد حوالي ثلاثة ارباع القرن، سمح فيه التأخير في الدفع والبيع بالفائض، ان طلب شخص من تاجر ألف دينار والتاجر يطلب ربحاً عليها مئة دينار فكان يشتري التاجر منه داراً بالف دينار ويقبضها ثم يبيعها إليه بألف ومائة دينار فيكون حصل على المائة دينار [٦].

---

(١) التنوخي، نشوار المحاضرة، ج٨، ص٢٢٢.

(٢) ابن منظور ، لسان العرب، ج١٠، ص ٤٥٧.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامة، ص١٤٦.

(4) Goitein, Jews and Arabs, p118.

(٥) الشيباني، المخارج في الحيل ، نشره واعتنى بتصحيحه يوسف شخت، ليبزج، ١٩٣٠، ص٧٧.

(٦) الخصاف، كتاب الحيل والمخارج، نشره وصححه يوسف شخت، هنوفر، ١٩٢٣م، ص١٩،٤٣، ص٩.

كما أن فرق تنوع العملات المصكوكه في مختلف انحاء البلاد وتقلب اسعار العملات قدم حافزاً قوياً للمصارف ولكن تداول كميات كبيرة من المال على شكل عملات ذهبية وفضية في المقام الأول هو الذي شجع الناس إلى اللجوء إلى الصيارفة وكان الأغنياء زبائن للصيارفة حيث اشرفوا لهم على ادارة أموالهم وتلقوا الدفعات لحسابهم وكان وجود هؤلاء ضرورياً جداً لكبار الموظفين، الذين كانوا يدفعون الرشاوي إلى صيارفهم لعدم تسجيل حسابات هذه المبالغ كما نشأت مؤسسات مصرفية في كل مدينة ونشأت شوارع الصيرفه في المدن الكبرى[1]. ومن اشهر هؤلاء التجار الذي شاع ذكره في فلسطين وكان من أصحاب البيوت المالية التاجر اليهودي يعقوب بن كلس الذي كان يعمل وكيلاً للتجار في الرملة وهو من أهل بغداد خرج منها إلى الشام[2] ونزل بمدينة الرملة واقام بها وصار وكيلاً للتجار لما عجز عن أداء أموالهم هرب إلى مصر سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م واشتغل بالتجارة وصارت له صلات بكافور الأخشيدي، وكسب ثقته ودخل في خدمته وتدرج حتى عينة في ديوان الخاص، وارتفع شأنه بعد أن اسلم (نتيجة طموحه) سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م، ورد اليه زمام ديوانه بالشام ومصر فضبطه على حسب ارادته وكان لا يمضي دينار ولا درهم الا بتوقيعه وبعد وفاة كافور لقي عنتاً لعداء الوزير جعفر ابن الفرات او نتيجة مطالبات ديوانية فخرج إلى افريقية سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م، وانضم إلى خدمة المعز الفاطمي بواسطة يهود كانوا معه ولعله عرفه بشؤون مصر وبعد ان فتحت البلاد جاء مع المعز إلى القاهرة وعينه سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م احد اثنين يتوليان الخراج وجميع وجوه البلاد[3].

وكان من مهام وكيل التجار القيام بأعمال الجهبذ والصيرفي وارسال واحضار بضائع التجار الاجانب، وايصال الرسائل إلى اصحابها بوساطة التجار المسافرين، كما كان التجار يودعون أموالهم لديه ويكون الدفع من خلاله[4]. ويقوم بجباية العشور من التجار الاجانب فكان على علاقات دائمة مع الدولة[5]. ولم يكن هناك انتخاب رسمي لهذا المنصب، وان كان ابن

---

(١) أشتور، الحياة الاقتصادية، ص١٣٤.

(٢) في أيام الخليفة المتقي ٣٢٩-٣٣٣هـ/٩٤٠-٩٤٤م شهدت بغداد مجاعة ووباء وفيضانا، كما ازدادت الفتن بسبب تحركات الفرق العسكرية على اختلافها. فأنتقل كثير من تجارها مع الحاج إلى مصر والشام، الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري، ص٣٤٠ . ابن العبري، تاريخ الزمان، ص٥٧.

(٣) ابن الصيرفي، حسين الدين علي بن مجيب بن سليمان(ت٥٤٢هـ/١١٤٧م) الاشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، عن النسخة الوحيدة المحفوظة في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس، مقتطف من مجلة المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية، مج٢٥، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية ١٩٣٣ ص١٩-٢٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص٢٧-٢٩. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٩٢.

(4) Giotein, Jews and Arabs, p118

(5) Moshe, Atistory of Palestine, p248

الوكيل كفوءاً لهذا المنصب استطاع ان يستلم بعد والده، وعادة يكون وكيل التجار من كبار التجار الناجحين ومن ذوي السمعة الحسنة [١].

ومن أشهر صيارفة الشام يعقوب بن الفرج الجهبذ النصراني الذي كان بحلب وهو الذي هجاه البحتري اقبح هجاء وأقذعه فقال[٢]: (المتقارب)

وان حال من دون حقي فلم ... يسلمه "يعقوبها" "ابن الفرج"
ايتلف يعقوب مالي لديـ ... ـه ويعقوب متشد لم يهج
اذا شد عروة زناره ... على سلحة ضخمة وانتفج

وقال أيضا[٣]: (المتقارب)

وتزعم ان الذين ابتدوا ... علوم النصارى رعاع همج
بأنك لم تتو مالي ولم ... تطلب على عويص الحجج
فان كنت ادهنت او خنت أو ... لهجت بظلمي فيمن لهج

ورغم كل هذا الا ان الدولة لم تستطع الاستغناء عن خدماتهم ففي سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م أمر المقتدر الا يستخدم احد من اليهود والنصارى الا في الطب والجهبذة[٤].

والخلاصة ان الجهابذه والصيارفه قاموا بدور مهم في التجارة في العصر العباسي اذ كان الجهابذه والصيارفه يشتغلون بالتسليف والأقراض كما كان الصيارفة يتوسطون بين الناس ودار الضرب ويقبلون الودائع بالاضافة إلى صرف النقود وقد شجعوا التجار بتسهيلهم الأئتمان فكانت بيوتهم المالية بمثابة بنوكٍ في هذا العصر[٥].

---

(1) Goitein, Op. Cit, p118.

(٢) البحتري، ديوان، ج١، ص٤٢٠. انتفج: نفج ونفج الشيء ارتفع. المعجم الوسيط، ج٢، ص٩٣٧.

(٣) البحتري، ديوان، ج١، ص٤٢٢، الزيات، الصيارفه في الاسلام، ص٤٩٤.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٣، ص١٨٤. Hirschler, The Social Isolation. P97.
لأن الدولة لم تستغن عن وجود خازن جهبذ في الدواوين السلطانية والخاصة عارف باموال الذهب والفضة وشروط النقود، بصير بكل خلل أو حيف يطرأ عليها، الزيات، الصيارفة في الاسلام، ص٤٩٢.

(٥) الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٩٥.

فكانت هذه التسهيلات المالية والتوسع في وسائل الائتمان من العوامل التي ادت تنشيط وازدهار التجارة في العصر العباسي وخير دليل على نشاط التجارة في بلاد الشام ما قدمه الجغرافيون المعاصرون من وصف لمدن واسواق بلاد الشام، فكانت يافا مدينة صغيرة على البحر الا أنها خزانة فلسطين وفرضه الرملة وميناءها جيد[١]. صور من احصن الحصون على شط البحر عامره خصبة[٢]. وبعلبك مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة بينه الرخص والخصب[٣]. وبيروت بها الغلات الوافرة وتجارات البحر عليها داره وواردة وصادره [٤]. معرة النعمان مدينة كثيرة الخير والسعة[٥]. ومنبج مدينة خصبة وحصينة وكثيرة الأسواق الأزلية وفيها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم ما لم له شبهاً الا ببخارا ويحمل ازبتهم إلى حلب وغيرها[٦]. وقال عنها الإدريسي فيها أسواق عامرة وتجارات دائرة وأحوال متصرفة وغلات قائمة وأرزاق واسعة[٧]، ومدينة القدس فيها عدد من التجار وكبار الملاك الذي يملك بعضهم خمسين ألفَ منْ منْ زيت الزيتون يخزنونه في الآبار والأحواض يملأونها بهذا الزيت المقدس ويبيعونها إلى كل أطراف العالم[٨]. ويصف المقدسي أسواقها ويقول: ولا أنظف من أسواقها ... وفيها كل حاذق وطبيب.. ولا تخلو كل يوم من غريب[٩]. ومدينة لد ينزل بها الرفاق الواصلة من الشام إلى مصر والقافلة من مصر إلى الشام[١٠]. والرملة مدينة فلسطين وهي على

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤.

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٢

(٤) المصدر نفسه ، ص١٦٢

(٥) المصدر نفسه، ص١٦٤

(٦) المصدر نفسه، ص١٦٦

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٥١.

(٨) ناصر خسرو، سفر نامة ، ص٥٦

(٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٦

(١٠) البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٤٦٤.

الجادة فحاج الشام والثغور ينزلونها[١]. والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة[٢]. وكانت الرملة تسمى في الشام والمغرب فلسطين[٣].

وحلب كانت عامرة غاصة بأهلها كثيرة الخيرات على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات[٤]. وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق ويذهب اليها التجار من جميع هذه البلاد[٥]. حمص كانت كثيرة الزرع والضرع[٦]. أنطاكية كانت بعد مدينة دمشق أنزه بلاد الشام.. ولهم مياه تجري في أسواقهم ودورهم وسككهم[٧]. اللاذقية مدينة عامرة آهله كثيرة الخصب والخيرات[٨] مدينة بالس على شط الفرات من غربية وكان الطريق اليها عامراً ومنها إلى مصر وغيرها سابل وكانت فرضة لأهل الشام على الفرات فعفت آثارها ودرست قوافلها وتجارها بعد سيف الدولة[٩]. الرقة ولهم نهر عيسى الأعظم يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير إلى فرضه عليها الأسواق وحوانيت التجار لا تنقطع في وقت من الأوقات[١٠]. وكانت الرقة أكبر ديار مضر[١١]. الرصافة قصور بناها خلفاء بني أميه وحولها مساكن وقرى عامرة وبها أسواق فيها بيع وشراء وأخذ وعطاء[١٢] دمشق أجل مدينة بالشام[١٣]. وكانت المستودع الكبير الذي ترد اليه منتجات الشرق كله بكميات هائلة[١٤]. وأسواقها من أفضل

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص١١٦.

(٢) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٦٤.

(٣) ناصر خسرو، سفر نامه ، ص٥٥.

(٤) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٦١، ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٣.

(٥) ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص٤٤.

(٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٦٢

(٧) المصدر نفسه، ص١٦٥

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٤٠

(٩) الاصطخري، المسالك والممالك، ص٦٢، ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٥

(١٠) اليعقوبي، البلدان، ص٢٥٠

(١١) الأصطخري، المسالك والممالك، ص٧٥

(١٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ٦٤٠

(١٣) المصدر نفسه، مج ١، ص٥٩. ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٠

(١٤) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٥.

أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً[١]. وكما لم تكن على هذه الحصانة حتى زارها أحمد بن طولون وقد رأى صور ومنعتها واستدارة حائطها على مينائها فأمر ببناء ميناءها وجعل على الباب قنطرة فالمراكب تدخل كل ليلة إلى الميناء وتجر السلسلة مثل صور[٢] وقيسارية ليس على بحر الروم بلد أجل منها ولا أكثر خيرات منها، تفور نعماً وتتدفق خيرات[٣].

اما حماة فكانت أسواقها جامعة لجميع الصناعات والتجارات بديعة التقسيم والترتيب[٤]. كما وصف ابن حوقل مدن الثغور وما كانت عليه من السعة والخير قبل وقوعها بأيدي الروم فقال: كانت طرسوس تشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكراع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والأموال والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله آخر من ثغور المسلمين لكافر ولا لمسلم[٥]. وملطية كانت مدينة كبيرة من أجل الثغور وأشهرها وأكثرها سلاحاً وأجلدها رجالاً[٦]. وأذنه مدينة جليلة عامرة ذات أسواق وصناعات وصادر ووارد[٧] وأنطرسوس على ضفة البحر صغيرة القدر بها أسواق عامرة[٨] والحدث ومرعش لهما أسوار حصينة وبهما أسواق ويقصد إليهما بالتجارات[٩].

هذا وكانت العلاقات التجارية ناشطة بين جميع المدن الشامية من جانب وبين باقي مدن الخلافة العباسية من جانب آخر واستمرت هذه العلاقات قائمة حتى في فترة استقلال الولايات عن المركز، فنشأت وحدة اقتصادية هائلة قائمة على التبادل التجاري بين أنحاء اقطار الدولة كافة[١٠] أفاد منها التجار مسلمين وغير مسلمين، فكونوا فيما بينهم شركات لتسهيل أمور البيع

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٦٠. ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص٧٩، ٨٦.

(٢) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٦٣-١٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣١.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٨، في سنة (٣٣٧هـ/٩٤٨م) دخل الروم طرسوس، وأوقعوا بأهلها بأساً شديداً، ابن كثير، البداية النهاية، ج١١، ص٨٤.

(٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ١٦٦، في سنة ٣١٩هـ/٩٣١م دخل الروم ملطية وملكوها، ابن حوقل، ص١٦٦. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٧٠

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٤٧. أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة بنيت سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م، . ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٣٣.

(٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، مج٢، ص٦٤٤.

(٩) المصدر نفسه، مج٢، ص٦٥٢.

(١٠) أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص٩١

والشراء ففي احدى وثائق الجنيزة إشارة إلى شركة بين حائك مقدسي يعيش بالفسطاط أسمه هبة الله المقدسي، وشريك آخر له اسمه صديقا وكان الحائك يدفع ١٥ دينارا بينما يدفع صديقا ٥٠دينارا، وعلى هبة الله (الحائك) بيع الناتج إلى البزازين في أسواق النساجين في قيسارية ويكون الربح على النصف[١] كما عثر على رسالة أخرى من تاجر يهودي إلى شريكه المسلم مكتوبة باللغة العربية وبالخط العبري[٢]. وقد أباح الفقهاء مشاركة المسلم لليهودي أو النصراني بشرط ان يلي المسلم البيع والشراء[٣]. كما ورد في وثائق الجنيزة عدد من أسماء التجار اليهود الذين كانوا يتاجرون بالقمح وينقلونه بوساطة السفن من فلسطين إلى الفسطاط، كما نقلوا أيضاً التين من طرابلس إلى الإسكندرية[٤]. كما ورد ذكر عدد من أسماء التجار اليهود والمسلمين والمتحولين إلى الإسلام الذين كانوا يتجرون بالزيت وينقلونه من فلسطين إلى المدينة المنورة بوساطة الجمال[٥]. ومن بين البضائع الاخرى التي تاجر بها اليهود مادة النيلة فقد ورد في إحدى الرسائل أن النيلة وحبوب الوسمة كانت ترسل من فلسطين إلى صقلية والمهدية وتشير الرسائل إلى زيادة سعر النيلة في مدينة صور لشدة الطلب عليها. كما تاجر اليهود أيضاً بالملح والمنسوجات كاللينين (الكتان) والشاش الشامي والحرير والصوف والقرفة التي أحضروها من الشرق لبيعها في مصر كما أحضروا الشاش القبرصي إلى الرملة وكان يصل سعر الرطل منه دينارين[٦].

وكان تجار أهل الذمة ينشطون في المواسم والأعياد تبعاً لازدياد نشاط التجارة فقد أشار الرحالة والجغرافيون إلى قيام الأسواق الكبيرة وازدياد حركة البيع والشراء في باحات الكنائس في المناسبات الدينية ومن تلك الأسواق ما كان يرتبط بقدوم الحجاج النصارى إلى مدينة القدس فقد تحدث الحاج اركولف (Arculf) الذي زار البلاد عام ٨١هـ/٧٠٠م وأقام في مدينة القدس تسعة شعور، "أنه في عيد الصليب الذي يصادف في ١٥ أيلول تتجمع في القدس أعدادٌ كبيرة من جنسيات مختلفة للتجارة وكانت تتحول شوارع المدينة المقدسة إلى مجمع للقاذورات وأرواث

---

(1) Moshe, A History of Palestine, p230.

(2) Goitein, A mediterranian Society, Vol.2, p.299.

بالنسبة للكتابة بالاحرف العبرية واللغة العربية كان هذا شائعاً في تلك الفترة وذلك لصعوبة الخط العربي

Ibid, Vol.2, p299

(٣) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢٧٠

(4) Moshe, A History of Palestine, p.226

(5) Ibid, P. 236

(6) Moshe, A History of Palestine, p.238

الدواب من الخيل والجمال والبغال ما يجعل المشي عليها مستحيلاً إلاأن العناية الإلهية كانت ترسل أمطاراً غزيرة فتنظف كل هذه الأوساخ"[١]. وبعد الانتهاء من عيد الصليب كان يكسد بيع بعض البضائع مثل الحرير والزيت[٢].

ولعل مثل هذه الأسواق كانت تقام في باقي المزارات التي يقصدها الحجاج بدليل ما قاله ياقوت الحموي أنه في جبل الطور المطل على طبرية على رأسه بيعة واسعة محكمة البناء مونقة الأرجاء يجتمع في كل عام بحضرتها سوق[٣].

كما كان التجار النصارى واليهود يرافقون الحجاج المسلمين إلى بلاد الحجاز الا أنه لم يكن يسمح لهم بمصاحبة الحجيج إلى أبعد من مدينة العلا التي كانوا يبايعون بها الحجاج الزاد وغيره[٤].

كما كانت تتحول أماكن الفداء إلى أسواق موسمية يزدحم فيها الباعة والتجار فقد ذكر المقدسي ان المدن البحرية بها رباطات يقع فيها النفير وتقلع اليها شلنديات الروم وشوانيهم مع اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثمائة بمائة دينار وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم ويحمل اليهم اصناف الأطعمة للبيع فتكون سوق رائجة خاصة ان الناس ينفرون إلى تلك المناطق عندما يدق النفير معلناً بقرب وصول المواكب. إن كان ليلاً أو قدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهاراً دخنوا من كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة، فلا يكون ساعة الا وقد انفر بالقصبة وضرب بالطبل على المنارةونودي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع احداث الرساتيق ثم يكون الفداء فرجل يشتري رجل وآخر يطرح درهماً او خاتماً حتى يشتري ما معهم.."[٥] ويذكر المقدسي الرباطات الأخرى التي كان ليتم بها الفداء وهي غزة وميماس

---

(1) The Travels of Bishop Arculf in the Holy Land, A.D. 700. In Early Travels in Palestine, p.1.

أما بالنسبة الىسهولة تنظيف شوارع المدينة فقد أشار إلى ذلك ناصر خسرو وقال ان شوارع القدس مبلطة بالحجارة وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلوها مسطحة بحيث تغسل كلها وتنظف حين نزول الأمطار، ناصر خسرو، سفر نامة، ص٥٦.

(2) Moshe, Ahistory of Palstine, P247.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١٤٧

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٠٨، القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٦٠، العلا: اسم لموضع من ناحية وادي القرى بينها وبين الشام، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٤٤، وسبب منع الذميين دخول الحجاز لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أجلاهم من الحجاز، الشافعي، الأم، ج٣، ص٢١٦.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٧-١٧٨.

وعسقلان وماحوز وأزدود وبينا ويافا وأرسوف[١] كما كان التجار يرافقون الحملات العسكرية ويقيمون أسواقاً تجاريه في معسكرات الجند[٢].

أما أنواع التجارات التي اشتغل بها أهل الذمة فقد تاجروا في كافة أنواع التجارات الا أنه كان يلاحظ تركز بعض التجارات بأيديهم، فمثلاً كانت تجارة الخمور وبيع المسكرات محصورة في أيديهم وذلك لعدم تعامل المسلمين بمثل هذه التجارات فكانوا يسيطرون على صناعتها وتجارتها في الأرياف والمدن[٣]. كما كانت تجارة الحرير سواء كان خاماً او مصنعاً من السلع التي تاجر بها اليهود وكانت الأقمشة المصبوغة تأتي على رأس تلك السلع[٤]. كما تاجر تجار أهل الذمة ببيع السلع الثمينة كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمينة والثياب الفاخرة والعطور مما قربهم من الأعيان وأرباب الأموال[٥].

وكانت تجارة الرقيق من التجارات التي كان يؤثرها اليهود والنصارى فوجدوا دائماً في أسواق الرقيق[٦]. ويذكر ان المسلمين تحللوا من الإفلات من حرمةالخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان تاركين لليهود والنصارى هذا العمل[٧]. وهذا ما كان يعيبه الجاحظ على النصارى فيقول: " ومما يدل على قلة رحمتهم وفساد قلوبهم أنهم اصحاب الخصاء من بين جميع الامم والخصاء أشد المثلة وأعظم ما ركب به انسان ثم يفعلون ذلك باطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم ولا نعرف قوماً يعرفون بخصاء الناس حيث كانوا الا ببلاد الروم والحبشة وهم في غيرها قليل وأقل[٨].

ولتهافت الناس على شراء الرقيق واتخاذ الغلمان جنوداً في ايام ابن طولون وبني حمدان في شمال بلاد الشام[٩] فقد شاعت تجارة الرقيق وكان التجار يحضرونهم من أماكن متعددة فكان يأتي من البحر الغربي الخدم الصقالبة والروم والإفرنجيون واللمبرديون والجواري الروميات

---

(١) المصدر نفسه، ص١٧٨.

(٢) التلمحري، التاريخ المنحول، ص١٤٥-١٥٦.

(3) Adler, Jewish Travellers, p.147

(4) Goitein, Studies In Islamic History, p.261.

(٥) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣١٦، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٨.

(٦) نعيسة، يهود دمشق، ص٢٦.

(٧) متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص١٥٨.

(٨) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣٢٢-٣٢٣.

(٩) ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص١٢٧. زيادة، تجارة بلاد الشام الخارجية، ص١٢٨

والاندلسيات[١]. وقد صادف وصول برنارد الحكيم إلى مدينة باري وجود ثلاث سفن هناك تحمل ثلاثة آلاف من الرقيق المسيحيين لحملها إلى البلاد العربية[٢].

كما أحضروا من الصين الحرير والثياب الحريرية والديباج والجواري والخصيان[٣]. ومن الخزر العبيد والإماء والدروع والمغافر[٤]. ومن الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز[٥]. ومن بلاد ا لروم أواني الفضة والذهب والدنانير الخالصة والعقاقير والديباج والبراذين الفره والجواري وعلماء الحراثة وبناء الرخام والخصيان[٦]. ومن النوبة الرقيق[٧]. ومن فرغانة الرقيق من الأتراك[٨]. ومن خوارزم السمور والسنجاب والسيوف والدروع والرقيق من الصقالبة[٩].

وكان للرقيق أسواق خاصة في بلاد الشام فكان في سوق الرقيق في مدينة حلب اجناس من الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس[١٠]. كما وجد في دمشق ثلاثة أسواق مخصصة لبيع الرقيق ويجري البيع في هذه الأسواق في يومي الأثنين والخميس ومعظم رواد تلك الأسواق كانوا من الأثرياء من أهل البلد[١١]. وقد جاء وصف لسوق الرقيق في مدينة سامراء في كتاب البلدان لليعقوبي فقال:" وسوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق[١٢]. وربما هذا الوصف كان مشابها لأسواق الرقيق في المدن الشامية.

---

(١) ابن خردانبة، المسالك والممالك، ص١٢.

(2) The Voyage of Bernard The Wise,p.24

كانت مدينة باري من المدن الايطالية التي تمارس التجارة مع الشرق بهمة ونشاط، هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١١٢.

(٣) الجاحظ، التبصر في التجارة، ص٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ٣٤.

(٥) ابن خردانبة، المسالك والممالك، ص١٥٣.

(٦) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٥.

(٧) ناصر خسرو، سفر نامه، ص٨١.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٢٥.

(٩) المصدر نفسه، ص٣٢٥.

(١٠) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٥٤.

(١١) العلبي، أكرم حسن، خطط الشام، دمشق، دار الطباع، ١٩٨٩، ص٤٤٧،٤٤٨.

(١٢) اليعقوبي، البلدان، ص٣٦٠.

وقد خلد المتنبي في قصيدته الدالية أشهر الخصيان وهو كافور الإخشيدي فقال[١] (البسيط)

صار الخصيُّ أمام الأبقين بها	فالحرّ مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ	لو أنه في ثياب الخز مولود
لا تشتر العبد الا والعصا معه	أن العبيد لأنجاس مناكيد

كما اشتغل بعض اليهود في تجارة الشرق ومارسوا تجارة التوابل في اليمن ومصر وبلاد الشام[٢]، كما أنه من المرجح أن اليهود في بلاد الشام كانوا على صلة بيهود أوروبا الذي أطلق عليهم ابن خرداذبة الرهدانية او الراذانية[٣] وكان هؤلاء منخرطين في تجارة الشرق وقد قدم ابن خرداذبة وصفاً شيقاً لمسلك هؤلاء التجار والبضائع التي كانوا يحملونها فقال[٤]:

سلك تجار اليهود الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجية (فرنسا) في البحر الغربي فيخرجون بالفرما[٥] ويحملون تجاراتهم على الظهر إلى القلزم وبينها خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي (البحر الأحمر) من القلزم[٦] إلى الجار[٧] (ثغر المدينة) وجدة ثم يمضون الىالسند والهند والصين فيحملون من

---

(١) المتنبي ، أبو الطيب (ت ٣٥٤هـ/٩٦٦م) ديوان ابي الطيب المتنبي، بشرح العلامة أبي البقاء عبدالله العكبري البغدادي، ضبط نصوصه وأعد فهارسه وقدم له عمر فاروق الطباع، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٧، ج١، ص٣٨٦.

(٢) أشتور، التاريخ الأقتصادي، ص٣٩٢. Adler, Jewish Travellers, p.86.

(٣) الرهدانية الراذانية: نسبة إلى نهر الرودانوس (الرون) الذي يسميه العرب رودنة حيث كان يقيم هناك جماعات من اليهود. لومبارد، الجغرافيا التاريخية، ص٢٧٦، التطيلي، الرحلة، ص١٦ هامش رقم (٢) أما هايد فقد عرف الكلمة بأنها مرادفة لعبارة جوابو البلاد وهم الرحالة رحالة: هايد، تاريخ التجارة، ص١٤٢.

(٤) انظر خارطة رقم (٣).

(٥) الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر واكثر متاجرهم فيها النوى والشعير والعلف لكثرة اجتياز القوافل بهم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٥٥.

(٦) القلزم: على ساحل البحر قرب أيلة والغور واليها ينسب بحر القلزم. ياقوت الحموي، ج٤، ص٣٨٧.

(٧) الجار: مدينة على ساحل بحر القلزم، بينها وبين المدينة يوم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٩٢.

الصين المسك والعود والكافور والدارصيني (القرفة) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك الفرنجة فيبيعونها هناك وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون دجلة إلى الأبلة ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين وكل ذلك متصل بعضه ببعض"[١].

وكان من بين البضائع الشرقية التي يتاجر بها اليهود الحرير والقرفة فقد جاء في إحدى وثائق الجنيزة ان اليهود كانوا يتاجرون بأنواع المنسوجات المختلفة ومن بينها الحرير كما أنهم احضروا القرفة من الشرق الأقصى الى صور ليتم بيعها في مصر ومن بين هؤلاء التجار كان تاجر اسمه يعقوب بن اسماعيل[٢].

أما بالنسبة للضرائب التي فرضت على التجار فكان التاجر المسلم يدفع ربع العشر، والتاجر الذمي يدفع نصف العشر ويدفع التاجر الحربي العشر، وذلك إذا بلغت قيمة البضاعة مائتي درهم فصاعدا وإن كانت قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لا يؤخذ منه شيئ[٣]. اما بالنسبة للخمور والخنازير فإنها كانت تقوم وتؤخذ منهم الضريبة المقرره العادية[٤].

ومن المضايقات المالية التي عانى منها التجار في بلاد الشام، سياسة الشراء بالإكراه واحتكار بعض المواد التجارية من قبل الولاة والحكام وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل أيام حكم سيف الدولة لمدينة حلب فقال"... وإذا ورد إلى حلب من متاع من خسيس ونفيس اشتراه من جالبه وباعه هو لأهلها على اقبح صورة واخس جهة كما كانت تجارة الخل والصابون محتكرة من قبله فهو يعمله ويبيعه وليس بها مبيع ولا مشتري الا وله فيها مدخل قبيح[٥].

---

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٥٣.

(2) Moshe, Ahisory of Palestine

(٣) أبو يوسف، الخراج، ص١٣٣، ١٣٥، ١٣٦. حسين، فالح، العشور ضرائب التجارة في صدر الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة. العددان ٢٩، ٣٠، آذار - حزيران، ١٩٨٨، ص٤٢.

(٤) ابو يوسف، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٦٣.

كما أشار إلى معاناة التجار من المصادرات فقال عن الرقة والرافقة ان حظهما قل من كل مال وضعفت بما حملهما سيف الدولة من الكلف والنوائب ومصادرة أهلها مرة بعد أخرى[١].

كما كانت حوانيت التجار عرضة للنهب والسرقة وخاصة في حالات الفوضى والإضطرابات. ففي سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م حدثت في نصيبين اشتباكات بين أهل باب الروم والباب الشرقي، واقتتلوا قتالاً شديداً وأحرقت المنازل والحوانيت ونهبت الأموال ونزل بهم قافلة عظيمة تريد الشام فنهبوها[٢].وجاء في كتاب تجارب الأمم أنه في سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م حارب سيف الدولة الروم بعد أن حاولوا تملك حلب وأخرجهم من البلد وقتل اكثر من معه وأحرقوا داره وملكوا الريف فقاتلهم أهل حلب من وراء السور واستغل رجال الشرطة إنشغال المسلمين فنهبوا منازل الناس وخانات التجار وقيل للناس الحقوا بمنازلكم فإنها قد نهبت فنزلوا عن السور وأخلوه فاستغل الروم خلو السور وصعدوا وأشرفوا على البلد ورأوا الفتنة فيه والنهب فدخلوا وقتلوا من لقيهم ولم يرفعوا السيف حتى كلوا وضجروا وخلصوا أسراهم ونهبت خزائن سيف الدولة وامتعة التجار وأحرقوا الباقي[٣].

ومع اشتداد الهجمات البيزنطية على حدود البلاد الشمالية وسواحل البحر الشامي تأثرت حركة التجارة في البلاد وتقلصت فهذا ابن حوقل يتحدث عما حل بسواحل الشام فيقول: "وقد الح الروم في هذا الوقت على سواحل الشام بالغارة ونواحي مصر، فهم يختطفون مراكبهم من كل أوب ويأخذونها من كل جهة ولا غياث ولا ناصر، ومن للمسلمين بناظر، والملك فيهم هامل شاغر، والملك جماع مناع، والعالم يسرق ولا يشبع، ويفتي بالباطل على ما يبلغ، ولا يخاف معاداً ولا مرجعا، والفقيه ذنب أدرع، فيكل بلية يشرع، وبكل ريح يسري ويقلع، والتاجر فاجر مسقع لا يعاف حراماً ولا مطمعاً والديار والأعشار بيد الأعداء مستسلمة، والأملاك مغتصة مصطلمه، والأرض من أربابها إلى الله تعالى متظلمة، وهذه جمل صفة بحر الروم وجزائره..."[٤].

وقد حقق الروم مساعيهم في التدخل بأمور التجارة ففي سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧م نزل ملك الروم على انطاكية وأقام عليها يومين ورحل ونزل على معرة مصرين وامن أهلها من القتل

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٦٣.

(٣) مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص١٩٢-١٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص٢٣٩.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٨٥-١٨٦.

وفتح معرة النعمان وحماة وحمص وطرابلس وعرقة وجبلة واللاذقية وانطرسوس وخرب من القرى ما لا يحصى وعاد إلى حصار انطاكية حتى تمكن من فتحها سنة ٣٥٨/٩٦٨م بمساعدة أهل بوقا وكانوا نصارى[١].

وما كادوا يسيطرون عليها حتى اتيحت لهم فرصة التدخل في شؤون حلب بعدان استولى عليها قرعوية وغلامه بكجور بعدان ثارا على سيف الدولة الحمداني وطلب المغتصبان مساعدة الروم وأقرا بسيادة الإمبراطور وعقدا معاهدة مع حاكم انطاكية الرومي في سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م ومن بين هذه المواد فقرات خاصة بالتجارة، وتقول هذه الفقرات على سبيل المثال: أنه لايجوز اعاقة لروم الذاهبين إلى حلب في تجارتهم وأن يصحب القوافل الرومية حراسة كافية لضمان امنها حتى تصل المدينة. ويتبع ذلك قواعد تحدد العشور المفروضة على البضائع، وفي قائمة هذه البضائع الذهب والفضة والديباج الرومي والحرير الخام والأحجار الكريمة مثل الجواهر واللؤلؤ والسندس (نوع من الحرير) والثياب والكتان والبهائم وغير ذلك من التجارات[٢]. وأن قطع الطريق على قوافل الروم المتجه إلى حلب فعلى اميرها ان يعطيهم ما ذهب، وكذلك ان قطع على القافلة أعراب او مسلمون في بلد الامير فعلى الأمير غرامة ذلك[٣].

ويعلل أبن حوقل سبب ذلك لوقوع البلاد "بين قوم يتطاول احدهم على الآخر واكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصله لوقته، لا يرغب في عمارة ولا يلتفت اليها بروية ولا اشارة"[٤].

يتضح مما سبق أن الذميين ما رسوا المجالات الاقتصادية كافة ولم يكن في الشريعة الإسلامية ما يحول دون تمتعهم بحرية العمل ففي مجال الزراعة كان لهم غلبة واضحة على الريف فقدرت المواسم والفصول بأعياد النصارى، كما انتجت أراضيهم المحاصيل الزراعية التي اشتهرت بها بلاد الشام كافة، وكانت الحرف والمهن مفتوحة أمام جميع أصحاب الديانات في المجتمع، وتركزت بعض الصناعات في أيديهم، كما كان لتجار أهل الذمة دور في تنشيط التجارة في العصر العباسي عن طريق تنشيطهم للمعاملات المالية وتسليف التجار وتسهيل معاملاتهم فنشأت مؤسسات مصرفية تقوم مقام البنوك في العصور الحديثة. ونتيجة امتلاك

---

(١) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٠٩.

(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص١٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٩.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٧٢.

تجارهم المقومات والأسس التي تساعدهم في الاشتغال بالتجارة فإنهم جمعوا بين تجارة البر والبحر. ولم تتجاوز الضرائب التي فرضت على تجارهم أكثر من العشر.

وكان لتزايد الهجمات البيزنطية في الربع الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، على حدود الدولة الشمالية وعلى السواحل الشامية أن تأثرت أحوال التجارة وتعطلت قوافلها إلى جانب وقوع البلاد بأيدي حكام لا هم لهم سوى ما يجمعونه من الأموال، فتعرض التجار للمصادرات وعانوا من سياسة الإحتكار والشراء بالإكراه مما أثر على أحوال التجارة في البلاد.

نتائج الدراسة

توصل البحث الى النتائج التالية:

عاش أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي متمتعين بكامل حقوقهم المدنية والدينية ينعمون بسياسة التسامح الديني ولم يكن هناك أي انعزال اجتماعي بين طوائف المجتمع آنذاك. ونال مثقفوهم وعلماؤهم مكانة مرموقة داخل المجتمع فتولوا المناصب الإدارية والقيادية.

سمح الخلفاء العباسيون لأهل الذمة في بلاد الشام بتنظيم أنفسهم داخلياً والإشراف على أبناء طوائفهم دون تدخل من جانب الدولة سوى أخذ موافقة الخلافة على تعيين رؤسائهم المنتخبين على اعتبار انهم موظفون رسميون لديها وأن تعرض أحدهم للعزل والطرد فذلك ناتج عن سوء استعمالهم للحرية المعطاة لهم وتعيين رؤسائهم دون علم الدولة.

كانت المضايقات المالية والضريبية التي تعرض لها الذميون وغيرهم من السكان من باب حرص الدولة على تنظيم الأمور وتركيز دعائم الدولة أو قد يحدث ذلك بسبب استغلال بعض الولاة والعمال لمراكزهم والإساءة إلى الذميين وغيرهم لحساب مصالحهم الخاصة.

كانت فترة قوة الخلافة وسيادتها فترة ازدهار وحرية للذميين فمع صراحة النصوص الإسلامية التي تنص على عدم سماح بناء وترميم الكنائس ودور عباداتهم إلا أنها بقيت تبنى وتجدد تحت إشراف المسؤولين وبموافقة أصحاب أولي الأمر والسلطة. بينما كانت فترات الفوضى السياسية وانحلال الأمن فرصة لإثارة الطائفية بين السكان والاعتداء على الكنائس والأديرة ونهب محتوياتها من قبل الثوار والطامعين.

كان لتوتر العلاقات الإسلامية البيزنطية وتكرار الغارات البيزنطية على حدود الدولة الإسلامية وتعرض سكان تلك المناطق للأسر والتشريد والقتل وتدمير المساجد وحرقها أثر سلبي على النصارى داخل البلاد وخاصة الملكيين منهم فتعرضت كنائسهم للهدم والتدمير من باب تخفيف الضغط على المسلمين هناك. كما كان الملكيون داخل المجتمع الإسلامي موضع شك وريبة لإمكانية الاتصال فيما بينهم وبين الدولة البيزنطية وخاصة في المناطق الحدودية مما دعا الدولة لاتخاذ بعض الإجراءات التميزية كإلزامهم بملابس معينه واستغلال ذلك من قبل معارضيهم من أبناء الطوائف المسيحية الأخرى ومحاولة الدس عليهم لدى الخلفاء من أجل إبعادهم عن السلطة وإضعاف كنيستهم.

كان لتسلط الذميين على المسلمين من خلال مناصبهم الإدارية في الدولة ما يثير غضب الفقهاء والعلماء المسلمين ومطالبة الخلفاء بعدم السماح للذمي بالتحكم بالمسلم فلم يكن أمام الخلفاء لإرضاء جمهور رجال الدين سوى إصدار المراسيم بعزلهم عن الوظائف الإدارية وكانت غالبية تلك المراسيم وقتية بدليل استمرار موظفيهم في الخدمة طيلة العصر العباسي. وبالمقابل كثيراً ما وقف بعض القضاه والفقهاء إلى جانب الذميين محاولين إنصافهم في حالة ظلمهم والتعدي على حقوقهم وتذكير المسؤولين باتباع وصايا الرسول بالإحسان إليهم وعدم السماح للعمال بإيذائهم .

أن معظم القيود الاجتماعية التي فرضت عليهم كانت شكلية في الغالبية مثل التمييز في الملابس والركوب أو تحديد الوظائف وكانت معظم التدابير المتخذة لذلك وقتية.

كان المجال أمام أهل الذمة مفتوحاً في الحقل الاقتصادي ولم يكن في الشريعة الإسلامية ما يحول دول تمتع الذميين بحرية العمل. فكانوا يمارسون النشاطات الاقتصادية كافة ويختارون العمل الذي يريدون. وكان لهم دورهم الواضح في المجال الزراعي والصناعي والتجاري. وكانت لهم تخصصاتهم التي أبدعوا فيها فأنتجوا كثيراً من الصناعات الشامية التي كان لها شهرة بالغة في الأسواق الداخلية والخارجية وحين تشكلت الأصناف لتنظيم العمل كانت الأصناف مفتوحة للمهنيين دون النظر الى دين أو مذهب أو أصل وهذا لم تشهده المجتمعات الأخرى إلا في العصور الحديثة.

كان لهم دورهم الواضح في تنشيط التجارة في العصر العباسي عن طريق تسهيلهم لمعاملات التجار فظهرت مؤسسات مصرفية تقوم مقام البنوك في الأيام الحالية.

يتضح مما سبق ان أهل الذمة كانوا من رعايا،، الدولة الإسلامية ويستظلون بظل الأحكام الإسلامية ومجرياتها بحقهم وفق نظر أولي الأمر واجتهادهم في إطار هذه الشريعة والظروف المحيطة.

ملاحق البحث

١- نسخة مرسوم الخليفة المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م في سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م بالزام اهل الذمة ببعض القيود الأجتماعية.

٢- نسخة مرسوم الخليفة المقتدر بالله ٢٩٠-٣٢٩هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م. بعزل كتاب أهل الذمة وعمالهم من دوواوين الدولة في سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م.

٣- نسخة عهد صادر من الخليفة الراضي ٣٢٢-٣٢٩هـ/ ٩٣٤-٩٤٠٠م.

يتعين جاثليق للنصارى النساطرة في مدينة السلام ومن تضمه منهم ديار الاسلام في سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م.

ملحق رقم (١)

نسخة مرسوم الخليفة المتوكل ٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م في سنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م بالزام أهل الذمة ببعض القيود الإجتماعية.

الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص ١٧٢-١٧٤.

وكتب الى اعماله في الآفاق:

بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن الله تبارك وتعالى بعزته التى لاتحاول وقدرته على ما يريد، اصطفى الإسلام فرضيه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيد به أولياءه. وكنفه بالبر، وحاطه بالنصر، وحرسه من العاهة، واظهره على الأديان، مبرءاً من الشبهات، معصوماً من الآفات، محبواً بمناقب الخير، مخصوصاً من الشرائع بأطهرها وافضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها، وأكرم أهله بما أحل لهم من حلاله، وحرم عليهم من حرامه، وبين لهم من شرائعه وأحكامه. وحد لهم من حدوده ومناهجه، واعد لهم من سعة جزائه وثوابه، فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه، وفيما حض عليه فيه ووعظ: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)[١]، وقال فيما حرم على أهله سنة ٢٣٥.

مما غمط فيه أهل الأديان من ردئ المطعم والمشرب والمنكح لينزههم عنه وليظهر به دينهم، ليفضلهم عليهم تفضيلا: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة ...)[١] إلى آخر الآية، ثم ختم ما حرم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه، ممن عند عنه وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطافهم، فقال عز وجل : (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم ...)[٢] ، وقال عز وجل : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ...)[٣] وقال: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل

---

(١) سورة النحل، آية ٩٠.

(٢) سورة المائدة، أية ٣.

(٣) سورة المائدة ، أية ٣.

(٤) سورة النساء ، اية ٢٣.

الشيطان...)[٤]، فحرم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء، وأصده عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزرا، وأولاها عند ذوى الحجى والألباب تحريما، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات، فجعلهم أهل الايمان والأمانة، والفضل والتراحم واليقين والصدق، ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر، ولا الحمية ولا التكبر، ولا الخيانة ولا الغدر، ولا التباغى ولا التظالم بل أمر بالاولى ونهى عن الأخرى، ووعد وأوعد عليها جنته وناره، وثوابه وعقابه، فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم ، بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية، وأجكامهم المرضية الطاهرة، وبراهينهم المنيرة، وبتطهير الله دينهم بما أحل وحّرم فيه لهم وعليهم، قضاء من الله عز وجل في إعزازه دينه، حتماً مشيئةً منه في اظهار حقه ماضية، وإرادةً منه في إتمام نعمته على أهله نافذة (...ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة...)[٥]، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين، والخزى في الدنيا والآخرة على الكافرين.

وقد رأى أمير المؤمنين- وبالله توفيقه وإرشاده- أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته وفي نواحي أعماله، أقربها وأبعدها، وأخصهم وأخسهم على تصيير طيالستهم التي يلبسونها، من لبسها من تجارهم وكتابهم، وكبيرهم وصغيرهم، على ألوان الثياب العسلية، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم، ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم أخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ يكون استدارة كل واحدة منهما شبراً تاماً في مثله ، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه، تلقاء صدره، ومن وراء ظهره، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرة عليها تخالف ألونها ألوان القلانس، ترتفع في أماكنها، التي تقع بها ، لئلا تلصق فتستر ولا ما يركب منها على حباك فتخفى، وكذلك في سروجهم بإتخاذ ركب حشب لها ، ونصب أكر على قرابيسها ، تكون ناتئة عنها، وموفية عليهان لا يرخص لهم في إزالتها عن قرابيسهم ، وتأخيرها إلى جوانبها، بل يتفقد ذلك منهم، ليقع ماوقع من الذي أمر امير النؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يتبينه الناظر من غيرتأمل، وتأخذه الأعين من غير طلب، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة بشد الزنانير والكساتيج مكانم المناطق التي كانت في أوساطهم، وأن توعز إلى عمال فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم إليهم فيه، وتحذرهم إدهانا وميلا، وتتقدم اليهم في إنزال العقوبة بمن

(١) سورة المائدة ، أية ٩٠.

(٢) سورة الأنفال، أية ٤٢.

خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين الى غيره، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التى أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها، وأخذهم بها إن شاء الله.

فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره، وأنفذ إلى عمالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله، وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وملائكته، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه، ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه حفظاً يحمل به ما حمله، وولاية يقضي بها حقه منه ويوجب بها له أكمل ثوابه، وأفضل من يده، إنه كريم رحيم.

وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين.

ملحق رقم (٢)

نسخة مرسوم الخليفة المقتدر بالله ٢٩٠-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م بعزل كتاب أهل الذمة وعمالهم من دوواوين الدولة في سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م

القلقشندي، صبح الأعشى ، ج١٣، ص ٣٨٦

وفي أيام المقتدر بالله، في سنة خمس وتسعين ومائتين، عزل كتاب النصارى وعمالهم، وأمر أن لا يستعان بأحد من أهل الذمة، وكتب إلى عماله بما نسخته:

عوائد الله عند أمير المؤمنين توفى على غاية رضاه ونهاية أمانيه، وليس أحد يظهر عصيانه إلا جعله الله عظة للأنام، وبادره بعاجل الاصطلام: (والله عزيز ذو انتقام)[١]، فمن نكث وطغى وبغى، وخالف أمير المؤمنين، وخالف (محمداً صلى الله عليه وسلم)، وسعى في إفساد دولة أمير المؤمنين، عاجله أمير المؤمنين بسطوته وطهر من رجسه دولته (...والعاقبة للمتقين...)[٢].

وقد أمر أمير المؤمنين بترك الاستعانة بأحد من أهل الذمة، فليحذر العمال تجاوز أوامر أمير المؤمنين ونواهيه.

---

(١) سورة آل عمران، آية ٤.

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٢٨.

ملحق رقم (٣)

نسخة عهد من الخليفة الراضي ٣٢٢-٣٢٩هـ/٩٣٤-٩٤٠م

بتعيين جاثليق للنصارى النساطرة في مدينة السلام ومن تضمه منهم ديار الاسلام في سنه ٣٢٦هـ/ ٩٣٧

ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مج٣، ص ٣٦٤-٣٦٨

هذا كتاب أمر بانشاءه سيدنا ومولانا أمير المؤمنين لعبد يشوع الجاثليق البطرك، أما بعد، فالحمد لله العميم إحسانه، العظيم سلطانه، الواجب حمده، الغالب جنده، الكامل فضله، الشامل عدله، المعروف بغير رؤية تدركه ولا نظر، الخالق من غير روية يجيلها ولا فكر، العالم بالاشياء ما ظهر منها وما بطن، المتعالي عن التكييف ببعد الأوهام وغوص الفطن، الذي أبتدع المخلوقات على غير تمثيل، واخترع المصنوعات بغير قياس اتبعه ولا دليل، وأقام شواهد البينات على وحدانيته، ومعجزات البراهين على عجائب حكمته، ما أيقنت معه العقول والبصائر، وشهدت له القلوب العارفة والضمائر، أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شارك في ملكه أحداً، ولا ولد فيكون مولوداً، ولا ولد فيكون محدوداً، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

والحمد لله الذي اختار محمداً من أشرف العرب منصباً، وأكرمها أماً وأباً، وبعثه بالبرهان الساطع، والحق الصادع، والحجج الواضحة، والخلائق الصالحة ، والناس في مجاهل الضلالة حائرون، وعن مناهج الهدى جائرون، على حين فترة من الرسل، واشتبه من السبل ويفرق من الملل، واستمرار من الزيغ والزلل، فلم يزل الأمر به مبلغاً، وبجهده في إمحاض النصيحة للأمة مستفرغاً، حتى طمس معالم الباطل، ودفع عن وعد الصلاح لي الماطل، وأضحى الاسلام مرفوعاً رايته، بعيدة غايته، منتشرة في الآفاق دعوته، مؤيدة بالنصر المبين كلمته، وأنجز الله تعالى له ما وعد في إعلاء دينه على الدين كله وإظهاره، وإعزازه اشياعه وأنصاره، ونسخ الملل السالفة بملته التي ختم بها الأديان، وأنزل عليه الكتاب المبشر بما فيه من الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاة تزلف محله، وتوازي شرفه وفضله، ما طرف طرف النهار بسدفة العشي، وصرف صرف المكروه بلطف الله الخفي.

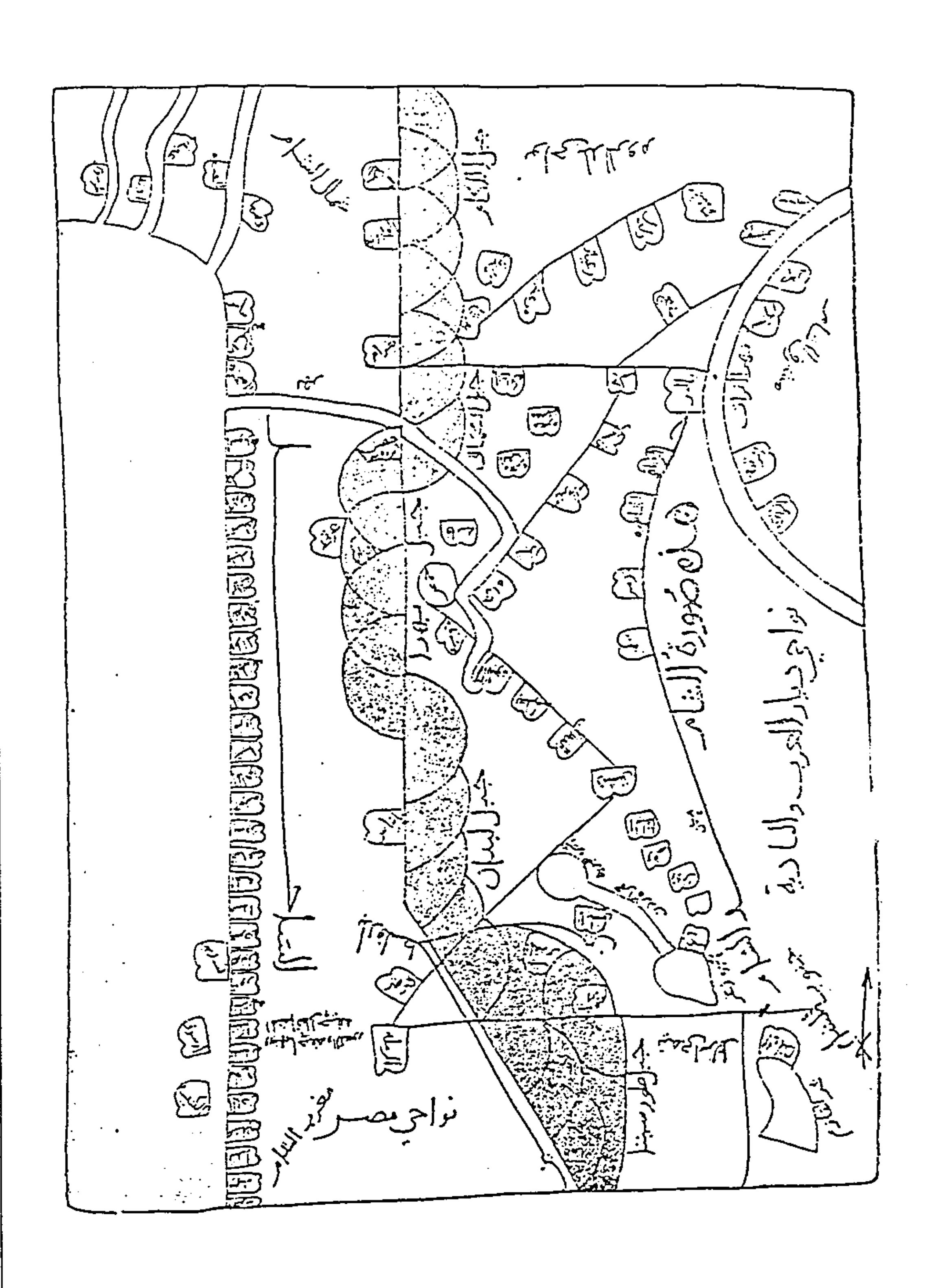
والحمد الله على ان حاز لأمير المؤمنين من شرف الخلافة ميراث أبائه وصرف إليه منها ما هو أحق بارتداء ردائه، وبوأه من الإمامة العظيمة مبتدأ، تخر الجباه سجداً لجلاله، وينسب مفاخر الدين والدنيا إلى جماعه، واطلع بإمامته نجوم العدل فما تغور، وأقام بها أسواق الخيرات فما تكسدبضائع طالبيها ولا تبور، وحمى بحسن رعايته، حمى الدين فما يذعر سربه، ولا يكدر شربه، ولا يفل غربه، وخص الرعية من رأفته بمنحة أرهفت شذاتها، وثقفت بعد الالتواء قناتها، وجمعت اشتات صلاحها، ويسرت دواعي فلاحها، فهي محظوظة في كنف عدله، مغتبطة خروجها من حزن العيش إلى سهله، بنعمته التي شحذت في الطاعة بصائرها، واستخلصت مبادرتها في المتابعة ومصابرتها ، وشفعت ظواهرها في العكوف على الدعاء لآبائه، وبسطت آمالها بعد الانقباض واحصدت مرائرها. وهو يستوزع الله عز وجل شكر هذه النعمة، ويستجزل بالتخدث بها حطة منها وقمسة. وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب.

وان أمير المؤمنين بما وكله الله اليه من أمور عباده، وحمله أعباءه في أرضه وبلاده، يرعي الأمة من اهتمامه عيناً يقظى، ويوليها في عامة متصرفاته حراسة شاملة وحفظاً. ويتفقد أحوالها، تفقداً يصلح بالها، ويصلح حبالها، ويعشب مرادها، ويُكثب مرادها، ويعم بذلك عموماً يشترك فيه المسلم منها والمعاهد، والداني والمتباعد، وطوائف الملل من أهل الكتاب الذين خفرهم عهد الشرع وذمته، وكنفتهم حياطته وحمايته، ليفئ عليهم ظل الحسنى بأجمعهم، ويقترن مرآهم في النظر لهم بمسمعهم.

ولما أنهيت حالك لأمير المؤمنين، وانك أمثل أهل نحلتك طريقة، وأقربهم الى الصلاح مذهباً وخليقة، وأحواهم للخلال التي أجمعوا علىتمييزك بها عنهم وانفرادك، واستحقاقك للاسعاف من بينهم بمأمولك ومرادك، وكونك حالياً بشروط الجثلقة المتعارفة عندهم بأدواتها، مشهوداً لك بنعوتها الكاملة وصفاتها، وحضر جماعة من النصارى الذين يرجع أليهم في استعلام سيرة أمثالك، واستطلاع أنباء مضارعيك وأشكالك، وذكروا أنهم تصفحوا أحوال ذوي الديانات فيهم، واستثبتوا باديهم منها وخافيهم، بحكم مساس حاجتهم الى جاثليق ينظر في أمورهم، ويراعي مصالح جمهورهم، فاتفقوا باجتماع من آرائهم، والتئام من قلوبهم وأهوائهم، على اختيارك لرياسة دينهم، ومراعاة شؤونهم، وتدبير وقوفهم، والتسوية في عدل الوساطة بين قويهم وضعيفهم، وسألوا إمضاء نصبهم عليك بالاذن الذي به تستقرى قواعده، وتصدق مواعده، وتستحكم مبانيه، وتقوى أواخيه، فأوعز باسعافهم في ما سألوه بالإيجاب، وإلحاقهم في ما طلبوه جناح الاطلاب، وبرظ الاذن الامامي الأشرف، لا زالت أوامره بالتوفيق معضودة، بتريبك جاثليقاً لنسطور النصارى بمدينة السلام، ومن نضمه منهم ديار الاسلام، وزعيماً لهم ولمن

عداهم مـن الـروم واليعاقبـة والملكيـة فـي جميـع البـلاد، وكـل حـاضر من هـذه الطـوائف وبـاد، وانفرادك عن كافة أهل نحلتك، بتقمص أهبة الجثلقة المتعارفة في أماكن صلواتكم، ومجامع عباداتكم، غير مشارك في هذا اللباس، ولا مسوغ فـي التحلـي بـه لمطـران أو اسـقف أو شمـاس، حطاً لهم عن رتبتك، ووقوفاً بهم دون محلك الذي خصصت بـه ومنزلتك . وأن ولـج أحـد مـن المذكورين باب المجاذبة، لك والخلاف، وراع سرب المتابعة لك وأخالف، وأبـى النـزول علـى حكمك، وعدل إلى حربك عن سلمك، كانت المقابلة به لاحقة، والعقوبة بـه علـى شقانقه حانقة، حتى تعتدل قناته، وتلين بالقرع صفاته، ويزدجر أمثالـه عن مثل مقامه، وينحـرس قـانونك ممـا يقدح في نظامه.

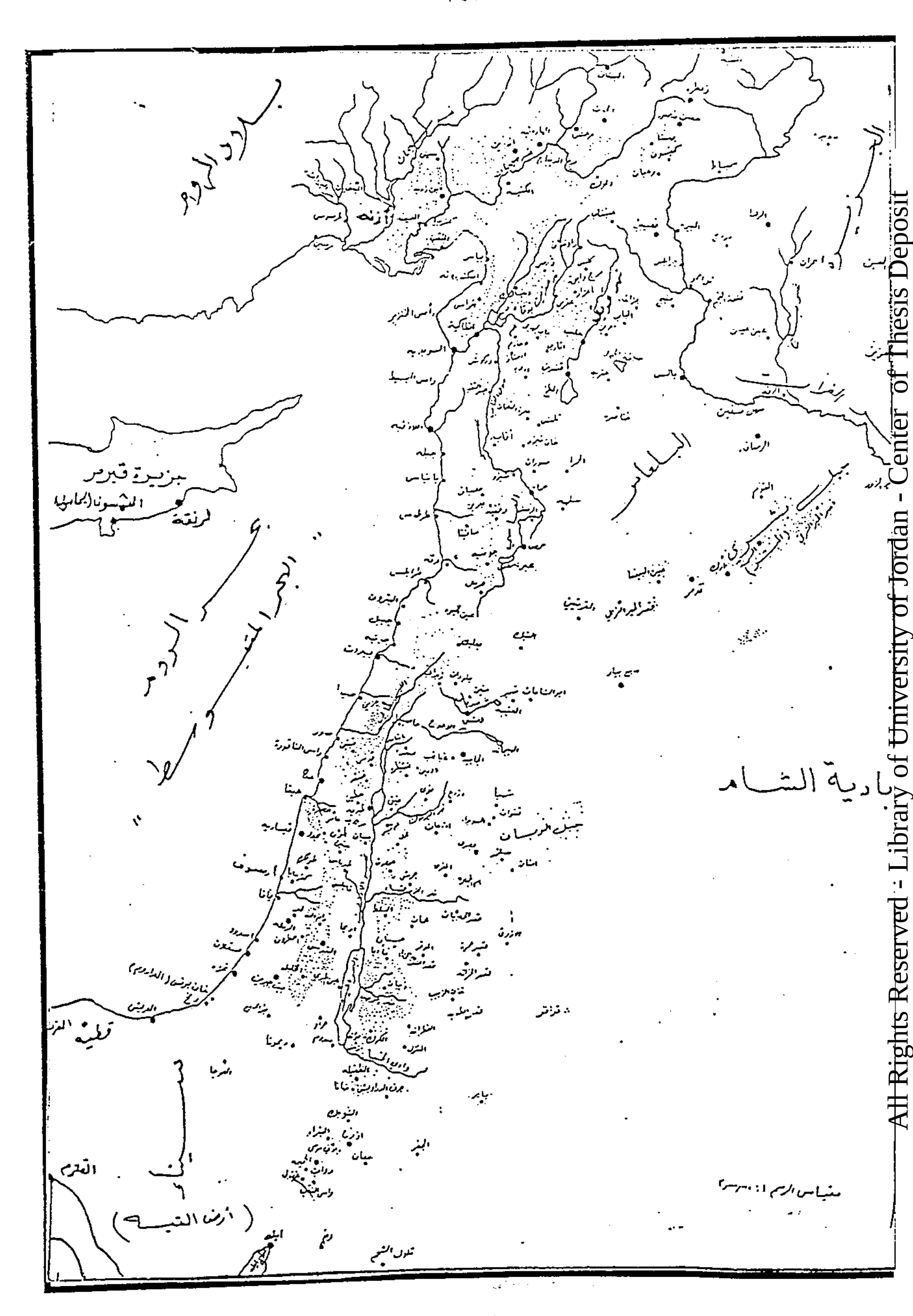
وأمر بحملك علـى مقتضـى الأمثلـة الامامية فـي حق مـن تقدمك مـن الجثالقة وسبقك، وإجراء أمرك عليه ومن تلاك منهم ولحقك، والحياطة لـك ولاهل ملتك فـي الأنفس والأمـوال، والحراسة الكافلة لكم بصلاح الأحوال، واتباع العادة المستمرة في موارات أمواتكم، وحماية بيعكـم ودياراتكم، والعمل في ذلك على الشاكلة التي عمل عليها الخلفاء الراشدون مـع مـن قبلكـم، وعـى بها الأئمة السابقون رضوان الله عليهم عهدكم وإلكم. وأن يقتصر في استيفاء الجزية على تناولـها من العقلاء الواجدين من رجالكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم مـن أطفـالكم، ويكـون استيفاؤها مرة واحدة في كل سنة، من غير عـدول فـي قبضـها عن قضية الشـرع المستحسـنة. وفسـح فـي الجاثليق أن يتوسط طوائف النصـارى فـي محاكماتـهم، فيـأخذ النصـف من القوي للمستضعف، ويقود الى الحق من مـال إلـى القسط والجنف، وينظـر فـي وقوفـهم نظـراً يقوم بحقـوق الأمانـة وأشراطها، ويمضي على واضح حدودها وسوي سراطها، فقابل هذا الانعام الذي شملك، وحقق مناك في ما ناجتك به نفسك وأملك، بدعاء ينبي عن الإعتراف ويعرب، يبدع فـي الاخـلاص ويغرب، وسبيل كافة المطارنة والقسيسين والأساقفة من الطوائف المذكورة أن يحتذوا المأمور به في هذا المثال، ويتلقوه بالانقياد والإمتثال، أن شاء الله تعالى.



خارطة رقم (١)

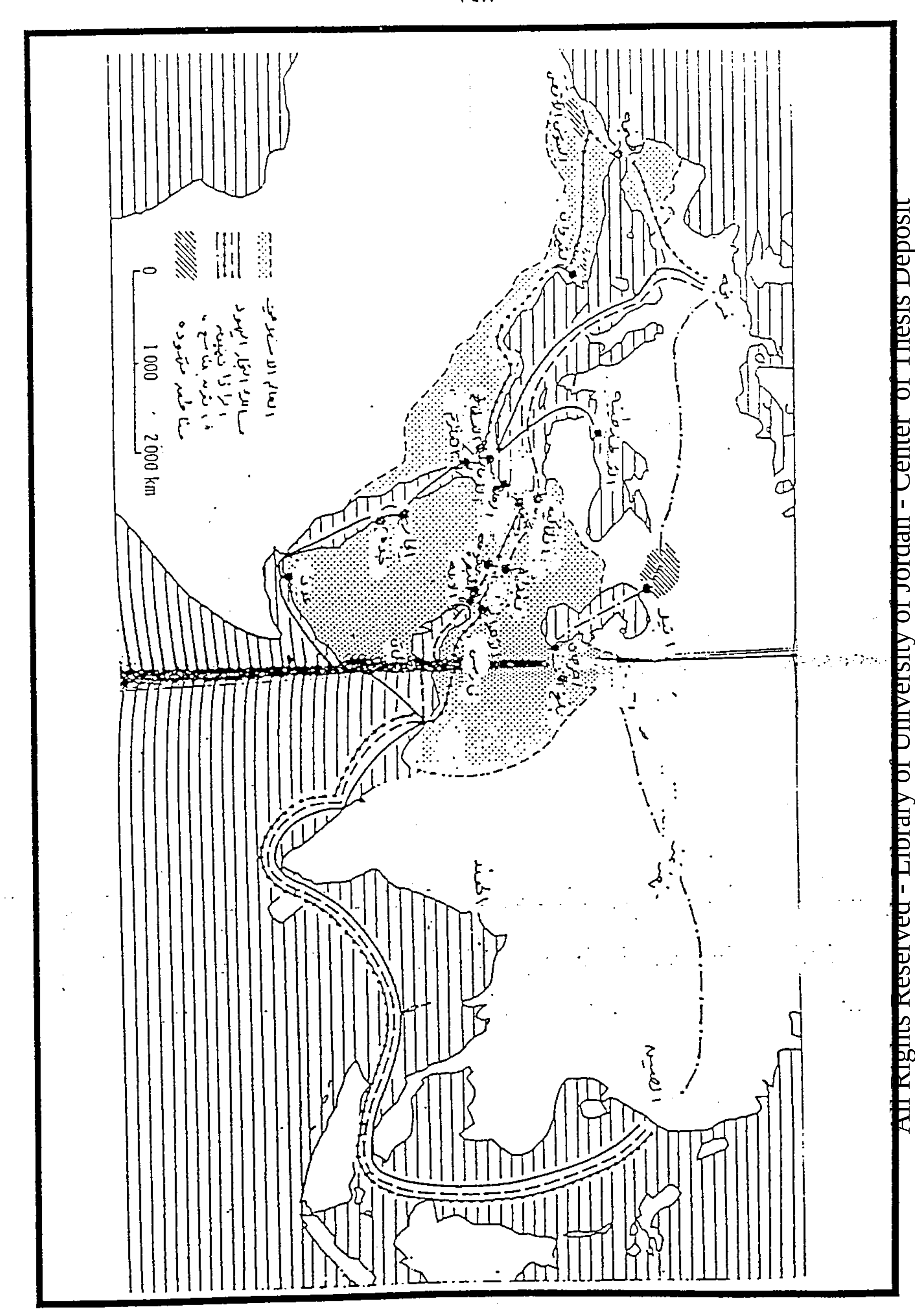
حدود بلاد الشام في القرن الرابع الهجري/ التاسع الميلادي

ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص١٥٥



خارطة رقم (٢)

حسين: فالح: الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، ص ١٩٢



خارطة رقم (٣)

مسالك التجار اليهود الراذانيين لمبارد، الجغرافية لاتاريخية، ص ٢٨٢

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

١- الكتب السماوية:

أ- القرآن الكريم.

ب- التوراة.

جـ- إنجيل لوقا.

٢- المصادر العربية الأولية

٣- المراجع العربية الحديثة:

٤- المصادر والمراجع الأجنبية المعربة.

٥- الدوريات العربية.

٦- الرسائل الجامعية.

٧- المؤتمرات.

٨- المصادر والمراجع باللغات الأجنبية:

أ- الكتب.

ب- المؤتمرات.

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

أولاً : الكتب السماوية

أ- القران الكريم

ب- التوراة

جـ- إنجيل لوقا

ثانياً: المصادر العربية الأولية:

١. الأبشيهي، أبو الفتح محمد بن أحمد بن منصور، (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق إبراهيم صالح، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩، (٣ جزء).

٢. الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين، (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، نثر الدر، تحقيق محمد قرنة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م، (٦ جزء).

٣. إبن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم، (ت ٦٣٠هـ /١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف دقاق، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧. (١٠ جزء).

٤. أحمد، محمد بن حنبل، (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م)، مسند الإمام أحمد، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، د.ت، (٦ جزء).

٥. الأخطل، غياث بن غوث بن الصلت الطارقة (ت ٩٠هـ /٧٠٨م). ديوان الأخطل، شرح راجي الأسمر، لبنان، دار الكتاب العربي، ١٩٩٢م.

٦. إبن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي، (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٨م)، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان وصديق المطيعي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

٧. الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس، (ت في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادية)، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب د.ت، (٢ جزء).

٨. الأزدي، محمد بن عبد الله، (ت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي)، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م.

٩. الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم، (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٩٦٧م.

١٠. الاصطخري، أبو اسحق إبراهيم بن محمد، (ألف كتابه سنة ٣١٨هـ/٣٢١هـ-٩٣٠/٩٣٣م)، كتاب المسالك والممالك، وهو معدل على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، ليدن، بريل، ١٩٦٧.

١١. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، كتاب الأغاني، مصور عن طبعة دار الكتب، القاهرة، دار إحياء التراث العربي، د.ت (٢٤ جزء).

١٢. ـــ، الديارات، تحقيق جليل العطية، لندن، قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١م.

١٣. ابن أبي أصيبعة، موفق الدين ابو العباس أحمد بن القاسم، (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٦٥م.

١٤. ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم، (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م)، كتاب الفتوح،ي تحقيق محمد عبد المعيد خالد، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٨، (٨جزء).

١٥. الأنطاكي، يحيى بن سعيد، (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٧م)، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، جروسي برس، ١٩٩٠.

١٦. البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبد الله، (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م)، ديوان البحتري، تحقيق حسن الصيرفي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣م، (٤ جزء).

١٧. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، صحيح البخاري، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت. (٩ جزء).

١٨. أبو البسام، أبو الخطاب عمر بن أبي علي محمد بن علي، (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م)، كتاب النبراس في تاريخ بني العباس، صححه وعلق عليه، عباس العزاوي، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٤٦.

١٩. ابن البطريق، سعيد، (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.

٢٠. ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي، (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، المعروف برحلة ابن بطوطة، بيروت، دار التراث، ١٩٦٨م.

٢١. البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر، (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٢م)، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن واندري فيري، قرطاج، بيت الحكمة، ١٩٩٢م.

٢٢. ابن البهلول، الحسن (عاش في أواسط القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، كتاب الدلائل، تحقيق يوسف حبي، مراجعة محمد أبو ريده، الكويت، منشورات معهد المخطوطات العربية، ١٩٨٧.

٢٣. البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٠م)، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م.

٢٤. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي، (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، الآثار الباقية عن القرون الخالية، أخرجه إدوار ساشو، ليبزج، ١٩٢٣م.

٢٥. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسن بن علي، (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، السنن الكبرى، بيروت، دار المعرفة، د.ت، (١٠ جزء).

٢٦. البيهقي، ظهير الدين، (ت ٥٦٥ هـ/ ١١٦٩م)، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٤٦م.

٢٧. الترمذي، أبو علي محمد بن سورة، (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، الجامع الصحيح أو سنن الترمذي، تعليق عزت عبيد الدعاس، حمص، مطابع الفجر الحديثة، ١٩٦٧م، (١٠ جزء).

٢٨. ابن تغري بردي، أبو المحاسن، جمال الدين يوسف، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م. (١٦ جزء).

٢٩. التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، (ت ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م)، كتاب الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود التالجي، بيروت، دار صادر، ١٩٧٨، (٥ جزء).

٣٠. ـــــــــ، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبود الشالجي، بحمدون، ١٩٧٣، (٨ جزء).

٣١. ابن تيمية، تقي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عباس، (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، الاختيارات الفقهية، تحقيق محمد حامد الفقي، بيروت، دار المعرفة، ١٩٤٩م.

٣٢. الثعالبي، أبو منصور عبد الله بن إسماعيل، (ت ٤٢٩/ ١٠٣٧م)، لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الإبياري وحسن الصيرفي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م.

٣٣. ـــــ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق مفيد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣، (٤ جزء).

٣٤. الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٧٩م، (٤ جزء).

٣٥. ـــــ، البيان والتبيين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، دار الفكر، د.ت، (٣ جزء).

٣٦. ـــــ، التاج في أخلاق الملوك (منسوب)، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٤م.

٣٧. ___، التبصر في التجارة، تحقيق السيد حسن حسني عبد الوهاب التونسي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٩٩٤.

٣٨. ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر للطباعة ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

٣٩. ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، (ألف كتابه سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٥٥.

٤٠. الجهشياري، محمد بن عبدوس، (ت ٣٣١هـ/ ٩٤٢م)، كتاب الوزراء والكتاب، تقديم حسن الزين، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م.

٤١. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، (١٨ جزء).

٤٢. ___________، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ضبط شرح نعيم زرور، بيروت، دار الكتب العلمي، ١٩٨٤م.

٤٣. ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي، (ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، المدخل إلى الشرع الشريف، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٩٧٢(٤جزء).

٤٤. ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب، (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)، كتاب المحبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تصحيح ايلزه ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، د.ت.

٤٥. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣م)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد نصر وعبد الرحمن عميرة، بيروت، دار الجيل، ١٩٨٥م.(٥ جزء).

٤٦. حسان بن ثابت، حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو (ت ٥٤ هـ/ ٦٧٣م)، ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وتعليق وليد عرفان، سلسلة جب التذكارية، (٢ جزء).

٤٧. ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م)، التذكرة الحمدونية، تحقيق إحسان وبكر عباس، بيروت، دار صادر، د.ت (١٠ جزء).

٤٨. الحميري. محمد بن عبدالمنعم، (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

٤٩. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، (ت ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧م)، كتاب صورة الأرض، بيروت، مكتبة الحياة، د.ت.

٥٠. ابن خرداذبة، ابو القاسم عبيدالله بن عبد الله، (ت ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)، المسالك والممالك، ويليه نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ/٩٤٨) ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩م.

٥١. الخصاف، أبو بكر أحمد بن عمر الشيباني، (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، كتاب الحيل والمخارج، نشره وصححه يوسف شخت، هنوفر، ١٩٢٣م.

٥٢. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، (١٤ جزء).

٥٣. ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.

٥٤. ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم، (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٣٠ (٨ جزء).

٥٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م)، سنن أبي داود، راجعه وضبط حواشيه محمد عبد الحميد، بيروت، دار إحياء السنة النبوية، د.ت. (٤ جزء).

٥٦. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م)، سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وأخرج أحاديثه، شعيب الأرناؤوط، تحقيق نذير حمدان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م، (٢٥ جزء).

٥٧. ________، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت (٤ جزء).

٥٨. أبن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت٢٩٠هـ/٩٠٢م) كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، بريل، ١٨٩١.

٥٩. ابن الساعي، أبو طالب علي بن نجيب تاج الدين، (ت ٦٧٤هـ /١٢٧٥م)، الجامع المختصر في عنوان التواريخ والسير، عني بنسخه ونشره وإصلاح تصحيفه وتعليق حواشيه وعمل فهارسه مصطفى جواد، بغداد، المطبعة السريانية، الكاثوليكية، (مج ٧).

٦٠. سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاوغلي، (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، دراسة وتحقيق جنان الهموندي، بغداد، الدار الوطنية، ١٩٩٠.

٦١. السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، (ت ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)، كتاب المبسوط، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٦م، (٣٠ جزء).

٦٢. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، بيروت دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠، (٩ جزء).

٦٣. الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمود، (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م)، كتاب الديارات، تحقيق محمود شمسي عواد، بغداد، مطبعة المعارف، ١٩٥١م.

٦٤. الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، الأم، بيروت، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م، (٨ جزء).

٦٥. ابن شاكر الكتبي ، محمد بن أحمد، (ت ٦٧٤هـ/ ١٣٦٢م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله الدرويش، دمشق، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤.

٦٦. ابن شداد عز الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ج٢، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٣. ج٢، ق١ و ق٢، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٣م، ج٣، ق١، ق٢، تحقيق يحيى عبادة، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٦٧. الشريف الرضي، محمد بن ابي الحسين بن موسى بن محمد، (ت٤٠٦هـ / ١٠١٥م)، ديوان الشريف الرضي، شرح وتعليق محمود حلاوي، بيروت، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٩٩٩، (٢ جزء).

٦٨. الشهرستاني، ابو الفتح محمد بن عبدالكريم، (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، موسوعة الملل والنحل، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ١٩٨١م.

٦٩. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م، (٩ أجزاء).

٧٠. الشيباني، محمد بن الحسن، (ت ١٨٩هـ/ ٩٠١م)، كتاب المخارج في الحيل، نشره واعتنى بتصحيحه يوسف شخت، ليبزج، ١٩٣٠م.

٧١. ـــــــــ، شرح كتاب السير الكبير، املاء محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة مصر، د.م، د.ت. (٥جزء).

٧٢. شيخ الربوة، أبو الفضل جعفر بن علي، (ألف في سنة ٥٠٠هـ/ ١١٧٤م)، الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة الأعراض ورديئها وغشوس المدلسين فيها، حققه وقدم له فهمي سعد، بيروت، دار ألف باء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

٧٣. الشيزري، عبدالرحمن بن نصر بن عبد الله، (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق الباز العريني، بإشراف محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٤٦م.

٧٤. صالح بن يحيى، صالح بن حسين، (ت٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، كمال الصليبي، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧م.

٧٥. الصابئ، أبو الحسن هلال بن محسن، (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، الوزراء أو تحفة الأدباء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م.

٧٦. ـــ، المختار من رسائل أبي اسحق إبراهيم الصابئ، نقحه وعلق حواشيه الأمير شكيب ارسلان، بيروت، دار النهضة، د.ت.

٧٧. ـــ، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٤م.

٧٨. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، كتاب الوافي بالوفيات، باعتناء وداد القاضي، فيسبادن، فرانز شتاينر، ١٩٨٢م، (٢٤ جزء).

٧٩. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، (٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، أدب الكاتب، نسخه وعنى بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد الأثرب، بغداد، د.ن، ١٣٤١هـ.

٨٠. ابن طباطبا، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي، (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، د.ت.

٨١. الطبري، أبو جعفر جرير، (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦-١٩٧٠م، (١٠ جزء).

٨٢. ابن طولون، تقي الدين محمد بن علي، (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)، القلائد الجوهرية بتاريخ الصالحية، تحقيق محمود دهمان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط٢، ١٩٨٠ (٢ جزء).

٨٣. ابن ظافر الأزدي، الشيخ جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن الحسين، (ت ٦١٣هـ/ ١٢١٦م)، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، إربد، مؤسسة حمادة ودار الكندي للنشر، ١٩٩٩م.

٨٤. ابن عبد البر، ابو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالله القرطبي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد الخولي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٢. (٦جزء).

٨٥. ابن عبد الحكم، عبد الرحمن، (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م)، سيرة عمر بن عبد العزيز، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٦٧م.

٨٦. ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج الملطي، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، د.م، د.ن) د.ت.

٨٧. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت ٦٦١هـ/ ١٢٦١م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق وتقديم سهيل زكار، دمشق. د.ن، ١٩٨٨، (١٠جزء).

٨٨. ـــــــ، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٨٦. (٣جزء).

٨٩. أبو عبيد، القاسم بن سلام، (ت ٢٢٤هـ / ٨٢٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨.

٩٠. ابن عساكر، علي بن الحسين بن هبة الله، (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأوائل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق محب الدين العمروي، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥. (٧٠ جزء).

٩١. ـــــــ، تاريخ مدينة دمشق، مج ١٦، صورة من نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق وكمل نقصها من النسخ الأخرى بالقاهرة ومراكش واسطنبول، دار البشير للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٥٤م.

٩٢. ـــــــ، تهذيب تاريخ دمشق، هذبة الشيخ عبد القادر بدران، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٩٧٩م. (٧ أجزاء)

٩٣. علي، شمس الدين محمد بن علي، (عاش في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، البدور المسفرة في نعت الأديرة، تحقيق هلال ناجي، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، ١٩٧٥م، وهذا الكتاب فصل من كتاب له عنوانه الدر الملتقط من كل بحر وسفط.

٩٤. العليمي الحنبلي، ابو اليمن القاضي مجير الدين المقدسي، (ت ٩٢٧هـ/١٥٢٠م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، عمان، مكتبة المحتسب، ١٩٧٣م، (٢ جزء).

٩٥. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت ١٠٨٩هـ/ ١٣٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، د.ت، (٨ جزء).

٩٦. عمرو بن متى، (عاش في الشطر الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي). أخبار فطاركة كرسي، المشرق من كتاب المجدل، طبع في رومية الكبرى، ١٨٩٦م.

٩٧. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا، (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٩، (٦ أجزاء).

٩٨. أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل محمد بن عمر، (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، م رينود ماك كوكين ديسلان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ١٨٥٠م.

٩٩. الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسين، (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد الفقي بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م.

١٠٠. ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري، (ت ٧٥٩هـ/١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، مطبعة دار الكتب العربية، ١٩٢٤، ج١.

١٠١. ــــ، التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، مطبعة العاصمة، ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م.

١٠٢. ابن الفقيه، أبو عبد الله أحمد بن محمد، (ت٢٦٠هـ/٩٠٣)، كتاب البلدان، تحقيق يوسف الهادي، بيروت، عالم الكتب، ١٩٩٦م.

١٠٣. ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق، (ت في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي)، الحوادث الجامعة والتجارب الناصعة في المائة السابعة، بيروت، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، ١٩٨٧.

١٠٤. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، (ت ٨١٧هـ/١٤١٤م). القاموس المحيط، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة المطبعة الأميرية، سنة١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، (٤ أجزاء).

١٠٥. أبو القاسم الغساني، محمد بن إبراهيم المشهور بالوزير، (ت في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي)، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقي محمد الخطاب، بيروت، دار العربي، ١٩٨٥م.

١٠٦. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م) عيون الأخبار، مصر، الدار المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م. (٤ أجزاء).

١٠٧. قدامة بن جعفر، أبو الفرج، (ت ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م)، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتحقيق محمد الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١م.

١٠٨. القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر د.ت.

١٠٩. القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف، (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، عنى بتصحيحه محمد ابن الكتبي بمقابلته على النسخة المطبوعة في ليبسك وتطبيقه على النسخ الثلاث الخطية المخطوطة في دار الكتب الخديوية بمصر، مطبعة السعادة. د.ت.

١١٠. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الأجزاء من ١-٤، ٧، ١٠-١٤، شرح وتعليق محمد حسين شمس الدين. ج٥، نبيل خالد الخطيب، و ج٦، والأجزاء من ٨-٩. يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م. (١٤ جزء).

١١١. ـــ، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار فراج، بيروت، عالم الكتب، د. ت (٣ أجزاء).

١١٢. ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، أحكام أهل الذمة، تحقيق قبحي العالم، بيروت، دار العلم للملايين، ط٢، ١٩٨١ (٢ جزء).

١١٣. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، دمشق، مكتبة المنار الإسلامية، ١٩٧٩، (٥ أجزاء).

١١٤. ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، د.ت، (١٤جزء).

١١٥. ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، نسب مضر واليمن الكبير، تحقيق محمود العظم،دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر السورية د.ت (٣ أجزاء).

١١٦. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري، (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تهذيب وتصحيح رفن كست، أعادت طبعه بالاوفست، بغداد، مكتبة المثنى، ١٩٠٨م.

١١٧. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م). صحيح سنن ابن ماجة، تأليف ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٩٨٦م، (٢ جزء).

١١٨. ماري بن سليمان، (عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، أخبار فطاركة كرسي المشرق، من كتاب المجدل للاستبصار والجدل، روما، ١٨٩٩م.

١١٩. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.

١٢٠. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالنحوي، (ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م)، الكامل في اللغة والأدب، عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د.ت.

١٢١. المتنبي، أبو الطيب (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٦م)، ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح العلامة عبد الله العكبري البغدادي، ضبط نصوصه وأعد فهارسه وقدم له عمر الطباع، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر، ١٩٩٧، (٢جزء).

١٢٢. مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج٣، تحقيق نبيلة داود، النجف، مطبعة النعمانية، ج٤، ق٢، تحقيق عمر السعيدي، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، ١٩٧٣م.

١٢٣. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين، بيروت المكتبة المصرية، ١٩٨٨م، (٤ جزء)

١٢٤. ـــ، التنبيه والإشراف، طبعة منقحة، بإشراف لجنة التأليف والإشراف، بيروت، دار مكتبة الهلال، ١٩٨١م.

١٢٥. مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، (ت ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، كتاب تجارب الأمم، اعتنى بالنسخ والتصحيح هـ. ف آمد روز، مصر، مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٩١٤م، (٣ جزء).

١٢٦. المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البشاري، (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط٣، ١٩٩١م.

١٢٧. المقدسي، المطهر بن طاهر، (ت ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م)، كتاب البدء والتاريخ، المنسوب لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، اعتنى بنشره وترجمته من العربية إلى الفرانسويه كلمان هوار، باريس، ارنست لرو ١٨٩٩-١٩١٩م، أعيدت طبعه بالاوفست، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت (٦ جزء).

١٢٨. المقريزي، أحمد بن علي، (ت ٨٥٤هـ/ ١١٤٥م)، كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، دار العرب الإسلامي، ١٩٩١م، (٨ جزء).

١٢٩. ________، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م، (٣ أجزاء).

١٣٠. ابن المقفع، ساويروس، (ت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، المعروف بسير البيعة المقدسة، قام على نشره مسى عبد المسيح واسولد برمستر، القاهرة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، ١٩٤٣م.

١٣١. ابن المقفع، عبد الله، (ت ١٤٢هـ/ ٧٥٩م). رسائل البلغاء، اختيار وتصنيف محمد كرد علي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط٤، ١٩٥٤م.

١٣٢. المنبجي، أغابيوس بن قسطنطين، (توفي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، دار المنصور، ١٩٨٦م.

١٣٣. ابن منجب الصيرفي، حسن الدين علي بن منجب بن سليمان،(ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق عبد الله مخلص، عن النسخة الوحيدة المحفوظة في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس، مقتطف من مجلة المعهد العلمي العربي، الخاص بالعاديات الشرقية، ١٩٣٣.

١٣٤. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـ /١٣١١م)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٩٨٦م، (١٥ جزء).

١٣٥. ______، مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٩. (٢٩ جزء).

١٣٦. النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق بن محمد بن اسحق الوراق، (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) كتاب الفهرست، تحقيق رضا ـ تجدد. طهران، ١٩٧١م.

١٣٧. أبو النواس، أبو النواس الحسن بن هاني، (ت ١٩٩هـ/ ٨١٤م)، ديوان أبي النواس، بيروت، دار صادر، د.ت.

١٣٨. النويري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر من ١-١٨ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت، ج ١٩، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢٠، تحقيق محمد رفعت فتح الله. ج٢١، تحقيق محمد علي البيجاوي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة الكتاب، ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦م، ج٢٣، تحقيق أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠، ج٢٤، تحقيق، حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣، ج٢٥، تحقيق محمد جابر عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤، ج٢٦ تحقيق

محمد فوزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥، ج٢٧، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥، ج٢٨، تحقيق محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢، ج٢٩، تحقيق محمد ضياء الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢، ج٣٠، تحقيق محمد عبد الهادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠، ج٣١، تحقيق البازي العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢.

١٣٩. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، كتاب الأوائل، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٥م، (٢ جزء).

١٤٠. الهمذاني، محمد بن عبدالملك، (ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م)، تكمله تاريخ الطبري في ذيول تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف. د.م. د.ت.

١٤١. ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفر، (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٦٦، (٢ جزء).

١٤٢. وكيع، محمد بن خلف بن حيان، (ت٣٠٦هـ/٩١٨م) أخبار القضاه، بيروت، عالم الكتب، د.ت. (٣ أجزاء).

١٤٣. ياقوت الحموي، ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، د.ت، (٥ أجزاء).

١٤٤. ________، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

١٤٥. يحيى ابن آدم القرشي، أبو زكريا يحيى بن سليمان، (٢٠٣هـ/٨١٨م)، كتاب الخراج، صححه وشرحه ووضع فهارسه، أحمد بن شاكر، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٤٧هـ.

١٤٦. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إبن واضح، (ت ٢٧٨هـ/ ٨٩٠م)، كتاب البلدان، منشور مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م.

١٤٧. ـــ، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م، (٢ جزء).

١٤٨. أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، كتاب الخراج، اعتمد في هذه الطبعة على نسخه مخفوظة في الخزانة التيمورية، رقمها ٦٧٤ فقه مع معارضتها بطبعة بولاق سنة ١٣٠٢، بيروت، دار المعرفة، د.ت.

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة

١٤٩. أسعد، منير، تاريخ حمص، حمص، مطرانية حمص الأرثوذكسية، ١٩٨٤ (٢ قسم).

١٥٠. آل تقي الدين، محمد أديب، كتاب منتخبات التواريخ لدمشق، تقديم كمال الصليبي، بيروت، دار الأفاق الحديثة، ١٩٣٩، (٣ جزء).

١٥١. أمين، أحمد، فجر الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١٠، ١٩٦٩م.

١٥٢. بطاينة، محمد ضيف الله، الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام، المدينة المنورة، مكتبة دار التراث، ١٩٨٨.

١٥٣. جاسر، شفيق، تاريخ القدس، عمان، مطابع الإيمان، ط٢، ١٩٨٩م.

١٥٤. جودة. صادق، مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.

١٥٥. أبو جيب، سعدي، القاموس الفقهي، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢.

١٥٦. الحسنى، عبد الرزاق، الصابئون في حاضرهم وماضيهم، صيدا، مطبعة الوفاق، ١٩٧٠م.

١٥٧. حسين، فالح، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، عمان، د.ن. ١٩٧٨.

١٥٨. حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٥م.

١٥٩. الحيدر آبادي، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة بيروت، دار النفائس، ط٦، ١٩٨٧م.

١٦٠. خماش، نجده، الشام في صدر الإسلام، دمشق، دار طلاس للدراسات والترجمة، ١٩٨٧م.

١٦١. خوري، شحادة ونقولا، خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية، القدس، مطبعة القدس، ١٩٢٥.

١٦٢. الدبس، يوسف الياس، من تاريخ سوريا الدنيوي والديني، بيروت، المطبعة العمومية، ١٩٠٥-١٩٨٣ (٩ أجزاء).

١٦٣. الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، "نصوص ودروس" بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٠م.

١٦٤. ـــــ، النظم الإسلامية، بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٨.

١٦٥. ـــــ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، دار الطليعة، ط٤، ١٩٨٢م.

١٦٦. ـــــ، القدس في الفترة الإسلامية الأولى القرن السابع حتى القرن الحادي عشر، في كتاب القدس في التاريخ، ترجمة كمال العسلي، عمان، الجامعة الأردنية، ١٩٩٢.

١٦٧. ـــــ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٧٤م.

١٦٨. ـــــ، دراسات في العصور العباسية المتأخره، بغداد، مطبعة الريان، ١٩٤٥،.

١٦٩. ـــــ، العصر العباسي الأول، دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي ، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨.

١٧٠. رستم، أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، مطبعة دار الفنون، د.م. ١٩٥٣م.

١٧١. رشدي، صبيحة، الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، بغداد، مؤسسة المعاهد المصرية، ١٩٨٠م.

١٧٢. رمضان، أحمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر، مؤسسة روزا اليوسف، ١٩٧٧م.

١٧٣. الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠ (١٠ أجزاء).

١٧٤. الزيات، حبيب، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، دمشق، مطابع الف باء للأديب د.ت.

١٧٥. ـــــ، الروم الملكيون في الإسلام، لبنان، المطبعة البولسية، ١٩٥٣، (٢ جزء).

١٧٦. زيدان، عبدالكريم، أحكام الذميين والمستأمنين في الإسلام، بغداد، ط ٢، ١٩٧٦ (٢ جزء).

١٧٧. زيود، محمد، دول بلاد الشام ومصر في العصر العباسي الثاني، دمشق ، جامعة دمشق، ١٩٩٣-١٩٩٤.

١٧٨. السامرائي، حسام الدين، المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية خلال الفترة ٢٤٧-٣٣٤هـ/ ٨٧-٩٤٥م، مكة، دار الفكر العربي، ط٢، ١٤٠٣هـ، (٣ جزء).

١٧٩. ضو، الأب بطرس وتاريخ الموارنة الدينية والسياسي والحضاري، بيروت، دار النهار للنشر، ط٢، ١٩٧٧م (٣ جزء).

١٨٠. العارف، عارف، المسيحية في القدس، القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذوكس، ١٩٥١م.

١٨١. عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا في العصورالوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٨، ١٩٨٥م.

١٨٢. العايب، سلوى الحاج، المسيحية العربية وتطوراتها من نشاتها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٩٧م.

١٨٣. عبد الخالق، هناء، الزجاج الإسلامي في متاحف ومخازن الأثار في العراق، بغداد، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٦.العلبي، أكرم حسن، خطط الشام، دمشق، دار الطباعة، ١٩٨٩.

١٨٤. علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، بغداد، مكتبة النهضة، ط٢.

١٨٥. علي، محمد كرد، خطط الشام، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٦٩ ـ١٩٧١ (٦ جزء).

١٨٦. عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، دار النهضة للعربية، ١٩٨١م.

١٨٧. الغزي، كامل البالي، نهر الذهب في تاريخ حلب، قدم له وصححه وعلق عليه شوقي شعث، حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٩٩١. (٢ جزء).

١٨٨. غنيمة، يوسف رزق الله، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، لندن، دار الوراق للنشر، ط٢، ١٩٩٧م.

١٨٩. غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٢.

١٩٠. فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية، دار الشروق، ١٩٩٨. (٢جزء).

١٩١. قاسم، قاسم عبده، أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م.

١٩٢. قلعجي، محمد رواس، موسوعة فقه عمر بن الخطاب، بيروت، دار النقاش، ط٣، ١٩٨٦.

١٩٣. قنواتي، جورج، المسيحية والحضارة الإسلامية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٤، ١٩٨٤م.

١٩٤. القسطالي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، د ن. ١٨٧٩م.

١٩٥. كاتبي، غيداء، الخراج منذ الفتح الإسلامي حتى أواسط القرن الثالث الهجري، الممارسات والنظرية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٤م.

١٩٦. المخلصي، الأب يوسف الشماس، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، صيدا، المطبعة المخلصية، ١٩٤٩.

١٩٧. المعجم الوسيط، قام بإخراجه إبراهيم مصطفى وآخرون، تركيا، دار الدعوة. د.ت (٢ جزء).

١٩٨. الموسوعة الأردنية، عمان دار الكرمل، ١٩٨٩، (٣ جزء).

١٩٩. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف محمد شفيق غربال، بيروت، دار نهضة لبنان للطباعة والنشر، ١٩٨١م، (٢جزء).

٢٠٠. الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤م، (٤ جزء).

٢٠١. نعيسة، يوسف، يهود دمشق، دمشق، دار المعرفة، ١٩٨٨م.

٢٠٢. يتيم، ميشيل، تاريخ الكنيسة الشرقية، حلب، المطبعة المارونية، د.ت.

رابعاً: المصادر والمراجع الأجنبية المعربة

المصادر

٢٠٣. اينهارد، سيرة شارلمان، ترجمة عادل زيتون، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٩م.

٢٠٤. التطيلي، بنيامين بن يونة التطيلي الأندلسي، (عاش في القرن السادس البحري / الثاني عشر الميلادي)، رحلة بنيامين من ٥٦١-٥٦٩هـ / ١١٦٥-١١٧٣م). ترجمة عزرا حداد، بغداد، مطبعة الشرق، ١٩٤٥م.

٢٠٥. التلمحري، ديونيسيوس، (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م) التاريخ المنحول، ترجمة يوسف بن اسحق، بيروت، الجامعة الأمريكية، ١٩٧٩م.

٢٠٦. تواريخ سريانية عن القرن ٧-٩م، نقل وتحقيق يوسف حبي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، الهيئة السريانية، ١٩٨٢.

٢٠٧. زايد، محمود، رحلة برتراندون دي لابوركير إلى فلسطين ولبنان وسوريا (١٤٣٢م). د.م.د.ن. ١٩٦٢. أخذ عن مجلة الأبحاث، السنة ١٥، ج٣، ١٩٦٢م.

٢٠٨. ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج الملطي. (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، تاريخ الزمان نقلة إلى العربية الأب اسحق أرملة السرياني، وصدر تباعاً في مجلة المشرق (١٩٤٩-١٩٥٦)، صدر لمناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف، بيروت، دار المشرق ش.م.م. ١٩٨٦.

٢٠٩. قسطوس بن لوقا البعلبكي، (ت في سنة ٣٠٠هـ /٩١٢م)، الفلاحة الرومية، ترجمة سرجس ابن هليا الرومي، د.م.د ن. د.ت

٢١٠. ليونهارت، راوولف، رحلة المشرق إلى العراق وسوريا وفلسطين، تاريخ الرحلة سنة (٩٨١هـ/ ١٥٧٣)، ترجمة سليم التكريتي، العراق، منشورات وزارة الثقافة والفنون، ١٩٧٨م.

٢١١. مجهول، (عاش ما بين القرن السادس والسابع الهجري / الثاني والثالث عشر الميلادي)، تاريخ الرهاوي، عربة عن السريانية ووضع حواشية الأب البير أبونا، بغداد مطبعة شفيق، ١٩٨٦، ج٢.

٢١٢. ناصر خسرو، أبو معين ناصر القبادياني، (توفي في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي)، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية، يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٢، ١٩٧٠.

٢١٣. ابن وحشية أحمد بن علي بن قيس الكسداني ، (ت في حوالي القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي)، الفلاحة النبطية، تحقيق توفيق مهند، دمشق، د.ن، ١٩٩٥، (٢ جزء).

المراجع:

٢١٤. ارنولد، سيرتوماس، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م.

٢١٥. اشتور، الياهو، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عيله، مراجعة أحمد سبانو، دمشق، دار قتيبة للطباعة والنشر، ١٩٨٥م.

٢١٦. ايليسيف، نيكيتا، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، بيروت، مؤسسة دار الكتاب الحديث، ١٩٨٦م.

٢١٧. بارتولد، و. ، دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى، ترجمة عزيز حداد، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، ١٩٧٣. مقدمة الكتاب "دور فلسطين في العلاقات بين الشرق والغرب في العصر العباسي"، تقديم فاروق عمر فوزي.

٢١٨. بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقلة إلى العربية السيد يعقوب بكر رمضان عبد التواب، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥ (٦ جزء).

٢١٩. ترتون، أ.س، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧م.

٢٢٠. جولدتسهير، أجناس، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٤٦م.

٢٢١. حتي، فيليب، مختصر تاريخ لبنان، ترجمة فؤاد نصار، مراجعة محمود زائد، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨م.

٢٢٢. ـــــ، تاريخ العرب، ترجمة جبرائيل جبور، د.م. دار غندور للطباعة والنشر، ط٥، ١٩٧٤م.

٢٢٣. ـــــ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، أشرف على مراجعته جبرائيل جبور، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٩م (٢ جزء).

٢٢٤. ديماند، م.س، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣م.

٢٢٥. دينيت، دانييل، الجزية والإسلام، ترجمه وقدم لـه فوزي فـهيم جاد الله. مراجعة إحسان عباس، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د ت.

٢٢٦. ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، لجنة الـأليف والنشر، ط٢، ١٩٦٤. (٣٠ جزء).

٢٢٧. رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبيـة، ترجمـة السيد البـاز العرينـي، بـيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨١، (٣ جزء).

٢٢٨. ستراتج، لي، بلدان الخلافـة الشرقيـة، ترجمـة كوركيس عـواد، بغداد، مطبعـة الرابطـة، ١٩٥٤م.

٢٢٩. سـوفاجيه، جـان، دمشـق الشـام، ترجمـة أفـرام البسـتاني، تحقيـق أكـرم العلبـي، بـيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦م.

٢٣٠. فييه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسن زينة، بيروت، دار المشرق، س.م.م. ١٩٩٠م.

٢٣١. كـاهن، كلـود، تـاريخ العـرب والشعـوب الإسـلامية مـن ظـهور الإسـلام حتـى بدايـة الإمبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة للطباعـة والنشـر، ط٢، ١٩٧٣م.

٢٣٢. كريستي، أ.هـ. تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة، ترجمة زكي محمد حسن، سوريا، دار الكتاب العربي، ١٩٨٤م.

٢٣٣. لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعـالم الإسـلامي خـلال القرون الأربعـة الأولـى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق، دار الفكر، ١٩٧٩.

٢٣٤. متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمـة محمـد عبـد الـهادي أبـو ريده، القاهرة، مكتبة الخابخي، ط٤، ١٩٦٧، (٢ جزء).

٢٣٥. هايد، ت، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصـور الوسـطى، ترجمـة أحمـد رضـا، تقديم عز الدين فودة، القاهرة، ١٩٨٥، (٤ جزء).

٢٣٦. هنتس، فالتر، المقاييس والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمـة كـامل العسلي، عمان، منشورات الجامعة الأردنية، ٩٧٠م.

٢٣٧. ويستفلد، ف، جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، ترجمة عبد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت.

خامساً: الدوريات العربية

٢٣٨. أرملة السرياني، إسحق، الملكيون بطريركيتهم الانطاكية ولغتهم الوطنية والطقسية، مجلة المشرق، مج٣٤، ١٩٣٦، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء، اليسوعيين.

٢٣٩. ـــــ، في البطريركية الأنطاكية، مجلة المشرق، مج٢١، ١٩٢٣م، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

٢٤٠. بدوي، عبد المجيد، سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة في الشام والعراق في عهد الراشدين وبني أمية. دورية كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الثامن، مايو، ١٩٨٨.

٢٤١. حسين، فالح، العشور ضرائب التجارة في صدر الإسلام، مجلة دراسات تاريخية، السنة التاسعة، العددان ٢٩، ٣٠، آذار - حزيران، ١٩٨٨.

٢٤٢. الدوري، عبد العزيز، نظام الضرائب في صدر الإسلام " ملاحظات وتقييم" مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، السنة ٤٩، ج٢، نيسان إبريل ١٣٤٩هـ / ١٩٧٤م.

٢٤٣. الزيات، حبيب، أديار دمشق وبرها، مجلة المشرق، مج ٤٣، ١٩٤٩م.

٢٤٤. ـــــ، الفسيفساء وصناعها قديماً من الملكيون، مجلة المشرق، مج ٣٥، ١٩٣٧.

٢٤٥. ـــــ، الصيارفة في الإسلام، المشرق، مج ٣٥، ١٩٣٧.

٢٤٦. ـــــ، الأسماء والكنى والألقاب النصرانية، مجلة المشرق، مج ٤٢، ١٩٤٨م.

٢٤٧. ـــــ، أيام السبوت بدمشق في عهد العباسيين، مجلة المشرق، مج ٣٦، ١٩٣٨م.

٢٤٨. ـــــ، الديارات النصرانية في الإسلام، مجلة المشرق، مج ٣٦، ١٩٣٨.

٢٤٩. ـــــ، اليهود في الخلافة العباسية، مجلة المشرق، مج ٣٦، ١٩٣٨.

٢٥٠. شيخو، لويس، النار العجيبة في القبر المقدس، مجلة المشرق، مج ١٦، ١٩١٣م.

٢٥١. عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، الكويت، إبريل، مايو – يونيو، ١٩٨٠، مج١١، عدد١.

٢٥٢. العبادي، أحمد مختار، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، الكويت، إبريل – مايو – يونيو- ١٩٨٠، مج١١، عدد١.

٢٥٣. علي، جاسم صكبان، التاريخ العربي والإسلامي من خلال المصادر السريانية العراقية، مجلة عالم الفكر، الكويت، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر،١٩٨٤م.

٢٥٤. كاتبي، غيداء، الجهبذة في العراق وتطورها في القرن الرابع الهجري، مجلة دراسات، مج ٢٦، عدد٢، ١٩٩٩م.

٢٥٥. منيمنه، ساره، التكوين الوظيفي للمدينة الإسلامية، مجلة الفكر العربي، دمشق، تشرين أول– تشرين ثاني- ١٩٨٣، عدد ٢٩. السنة الرابعة.

سادساً: الرسائل الجامعية

٢٥٦. حجازي، فايزة، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، ١٩٩٢.

٢٥٧. عيسى، بثينة عبد الرحمن، التكاليف والضرائب الإضافية في صدر الإسلام، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٧.

٢٥٨. مكاحلة، نهى، الضرائب في المغرب الإسلامي في العصر الإسلامي، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩.

سابعاً: المؤتمرات:

٢٥٩. بيشه، غازي، مناهضة الصور وتشويهها في ضوء الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في ام الرصاص وماعين. المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام.١٩٩٠

٢٦٠. الحمارنة، سامي خلف، الطبيب عيسى بن حكم الدمشقي ورسالته الهارونية، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام،١٩٩٠.

٢٦١. الحمارنة، صالح، ثورة الفلاحين في فلسطين أيام المعتصم ٢٢٧هـ/٨٤٢م. المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، مج ٣، ١٩٨٣م.

٢٦٢. خريسات، محمد عبدالقادر، التوسع العمراني في مدينة دمشق حتى أواخر الحكم الفاطمي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ١٩٩٠.

٢٦٣. ـــــ، دور العرب المتنصرة في الفتوحات، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام. مج ٢، ١٩٨٥.

٢٦٤. خماش، نجدة، التنظيم الإداري في الشام، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ١٩٩٠.

٢٦٥. دفتر، ناهض عبد الرزاق، دور الضرب والقائمون عليها وأنواع المسكوكات في بلاد الشام في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، ١٩٩٠.

٢٦٦. الدوري، عبد العزيز، تنظيمات عمر بن الخطاب "الضرائب في بلاد الشام" المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مج ٢، ١٩٨٥م.

٢٦٧. ربابعة، أحمد، الصناعة في فلسطين في العصور الحديثة، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ١٩٨٣.

٢٦٨. زيادة، نقولا، تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام ١٩٩٠.

٢٦٩. زيادة، نقولا، فيلكس فابري في فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، مج ٢، ١٩٨٣م.

٢٧٠. عباس، إحسان، الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، مج ٢، ١٩٨٣م.

٢٧١. عبد الوهاب، لطفي، حولية ثيوفانس، مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأموي، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ١٩٨٧م.

٢٧٢. عطية، جورج، الجدل الديني المسيحي في العصر الأموي وأثره في نشوء علم الكلام. المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام. ١٩٨٧.

ثامناً: المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

A) Books:

273. Adler, Elkhan Nathan, Jewish Travellers, London: Published by George Rout Ledge and Sons, L.T.D., Broad Way house, Carter Lane.

274. Arculf, The Travels of Bishop Arculf the Holy Land, A.D. 700, In Thomas Wright (ed.) Early Travels in Palestine, London: 1848, PP.

275 Bernand The Wise, The Voyage of Bernard The Wise, A.D. 867. In Thomas Wright (ed.) Early Travels in Palestine, London: 1848, PP.

276 Frescobald, Gucci and Sigoli, Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syrian, in 1384, translated from the Italian by F.R. Theophilus Bellorini, Jerusalem: Franciscan Press, 1948.

277. Goitein, S.D., A Mediterranean Society, Berkeley: University of California Press, 1976-1978, (4 Vols.).

278. _______, Studies in Islamic History and Instituations, Leiden: E.J. Brill, 2nd ed., 1968.

279. _______, Jews and Arabs their Contacts Through the Ages, New York: Schooken Books Inc. 5th Printing, 1970.

280. Hirschleler, Pal, The Social Isolation of Ahl Adh-Dhimma, In Eliyahu Ashtor (ed.) The Medieval Near East: Social and Economic History, London: Variorum Press, 1978. PP. 74-92.

281. Lewis, Bernard, The Jews of Islam, London: Routledge and Kegan Paul, 1981.

282 Mann, Jacob, The Jews in Egypt and In Palestine Under the Fatimid Caliphs, London: Oxford University Press, 1969. (2 Vols.).

283. Maundeville, John, The Book of Sir John Maundeville, A.D. 1322-1356, in Thomas Wright (ed.), Early Travels in Palestine, London, 1, PP. 127-282.

284. Michel Le Syrian, (1166-1199 N.D), Chronique De Michel Le Syrien, Editee Pour La Premiere fois et traduite en francais PAR J.B. Chabot, Paris, 1905. (4 Vols).

285. Moshe, Gil, A History of Palestine 634-1099, Translated from the Hebrew by Ethel Broido, Cambridge: Cambridge University Press, 1992.

286. Runciman, Sir Steven, The Historic Role of The Christian Arabs of Palestine, Britain: Longman for the University of Essex, 1976.

287. Shorter Encyclopaedia of Islam, edited by H.A.R. Gibb and J.H. Kramers, Leiden: E.J. Brill, 1974.

288. Stillman, Norman, The Jews of Arab Lands, A history and Source book, Philadelphia: The Jewish Publication Society of America, 1979.

289. Theophanes, The Chronicil of Theophanes, An English Translation of anni mundi 6095-6305 (A.D 602-813), with introduction and notes, by Harry Turtledove, Philadelphia: Universtiy of Pennsylvania Press, 1982.

290. The Jewish Encyclopedia, New York: Katar Publishing House, 1964. (12 Vols.).

291. The New Encyclopedia Britannica Macropaedia Knowledge in Dephlounded, 1768 15th Edition, Chicago: (30 Vols.).

292. William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, Translated and Annotated by Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, New York: Columbia University Press, 1943, (2 Vols.).

293. Ye'or, Bat, The Dhimmi: Jews and Christian under Islam, translated from French by David Maisel and others, Rutherford: Fairleigh Dickinson University Press, 3rd printing, 1985.

B. Conferences:

294. Senick, Robert, Christianity In The Patriarchate of Jerusalem In The Early Abbasid Period A.D. 750-813. The International Conference on Bilad Al-Sham, 5, 1990

The second chapter deals with the stand of the Abbasid state from Ahl Adh dhimma in terms of financial duties and the position of the state toward the cheifs of religious sects and holy places.

The third chapter dealt with some social aspects of Ahl Adh dhimma. It consisted of their distribution in Bilad Al Sham and the relationships between Ahl Adh dhimma and Muslims. The chapter also dealt with the cases of conversion to Islam which took place during the Abbasid period, and the social constraints which Ahl Adh dhimma had to abide by some times. The chapter also exhibits with the social status of some figures from Ahl Adh-Dhimma in Bilad al-Sham.

The fourth chapter dealt with teconomic activities of Ahl Adh-Dhimma, and their rule in agricultural, industrial and commercial life.

The study came to the following conclusions:

- Ahl Adh-Dhimma lived in Bilad Al-Sham during the Abbasid period enjoying all their religious and civils rights. There was no social separation between the different sectors of the society.
- Abbasid Caliphs allowed them to organize themselves internally and elect their clergymen without any interference from the state. They only had to get permission from Caliphs to appoint elected people. They were allowed to renovate their churches and monasteries and building new ones. Ahl Adh-Dhimma practised economic activities and they even excelled in some fields of economy.

The dominance of ahl Adh-Dhimma on Muslims through their administrative positions in the state and owning large sums of money made faqihs, qadis of the Muslim community angry, they demanded from Caliphs not to allow Ahl Adh-Dhimma to control Muslims. Therefore, the Caliphs had to pacify those scholars and they issued the directives that dismissed Ahl Adh-Dhimma from the registers and they were subjected to some social constraints. However, these directives did not last for a long time, because Ahl Adh-Dhimma continued to enjoy an important position in the state.

There were many cases in which faqihs, qadis took the side of Ahl Adh dhimma when their rights were violated, they asked Caliphs to give them their rights and to follow the Islamic rules toward Ahl Adh-Dimma.

The continuation of wars with the Byzantian State obliged the state to take some discriminative measures, such as obliging Ahl Adh dhimma in the border areas to wear special clothes in order to recognize them for fear of spies.

Finally, The study concludes that the Ahl Adh-Dhimma had always enjoyed many priviliges granted to them by Islamic law and enforced by Islamic rulers. However, during times of military conflicts and political economic and social upheavals, feelings of anamosity and discrimination were directed towards Ahl Al - Dhimma.

ABSTRACT

AHL ADH-DHIMMA IN BILAD AL-SHAM DURING ABBASID PERIOD FROM 132-334 H – 749 – 944 A.D

By

Fayzeh Abdul-Rahman Hijazi

Supervisor

Prof. Dr. Mohammad A. Khriesat

The topic of Ahl Adh-Dhimma and Islamic rule has received great interest from Muslim and Christian authors whether in ancient or modern times as it is an important and crucial topic. Some of these studies dealt with theological sides, regardless of the historical side, others of the studies dealt with the conditions of Ahl Adh-Dhimma in general, during Islamic ages. Some studies emphasized the conditions of Ahl Adh-Dhimma in certain region and time.

This topic was dealt with by some western and orientalist authors. Some of them were objective toward Islamic state, others dealt with the topic in a biased and extremist point of view, and tried to show that Ahl Adh-Dhimma were perscuted during Islamic rule. They emphasized in their works the times of wars and disturbances, without mentioning the normal life enjoyed by Ahl Adh Dhimma in terms of freedom of religion and good neighbourhood. They ignored real reasons and actual conditions that led to such disturbances. This is why I chose the topic of Ahl Adh-Dhimma under Islamic rule to give as clear view as possible about their conditions. The topic of my M.A thesis was about Ahl Adh-Dhimma in Bilad Al Sham during Ayyubids and Mamluks period because there was no specialized study about Bilad Al Sham during that period. I was interested in continuing my study about their conditions in Bilad Al Sham during Abbasid period 132-359 H – 749-969 A.D on the assumption that this territory included the highest population of Ahl Adh Dhimma, Christian, (Nestorians, Jacobites, Melkites), Jews, Samaritans, Majous, and Sabians. This era also represents the greatest part of the early Islamic, as it did not extend much beyond the time of the Prophet and his Caliphs, during which the foundations were set between Muslims and Ahl Adh Dhimma. Also, this time witnessed the continuation of wars with Byzantium. This affected the relationship with Christians in the country, especially the Malkites.

The study includes four chapters:-

The first chapter deals with the geographic borders of Bilad Al Sham in the period under study. It deals with the term Dhimma semantically and linguistically. Then it deals with the conditions of Ahl Al dhimma in Bilad Al Sham in the period that preceded the Abbasid period.